بين التصوف والحياة

للاستاذ الكبير الشيخ

عبد الباري الندوي

استاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقاً

نشر وتوزيع

مكتبة دار الفتح بدمشق

ص.ب ٤٧٥

نقــله الى العربيــة

محمد الرابــع الحسني النــدوي

✶ ✶ ✶ ✶

حقوق الطبع والنقل محفوظـة

الطبعــة الاولى

١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م

✶ ✶ ✶ ✶

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الاستاذ الكبير العلامة ابي الحسن على الحسني الندوي

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

اما بعد فان للمصطلحات والاسماء الشائعة بين الناس للاشياء جناية على الحقائق ، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة وفي كل أدب ودين ، فانها تولّد كائنا آخر ، تنشأ عنه الشبهات ، وتشتد حوله الخصومات ، وتتكوّن فيه المذاهب ، وتستخدم لها الحجج والدلائل ، ويحمى فيها وطيس الكلام والخصام ، فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة ، وعن هذه الاسماء الحرفية ورجعنا الى الماضي والى الكلمات التي كان يعبر بها الناس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة ، والى ما كان ينطق به رجال العهد الاول والسلف الاقدمون ، انحلّت العقدة ، وهان الخطب واصطلح الناس .

ومن هذه المصطلحات والاسماء العرفية التي شاعت بين الناس « التصوف » ومن هنا ثارت أسئلة وبحوث وتساءل الناس ما مدلول الكلمة وما مأخذها ، هل هو من الصوف او من الصفاء أو من الصفو أو من الصفة ؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها « الحكمة »[1] ؟

ومتى حدثت هذه الكلمة ؟ ولم نعرف لها أثرا في الكتاب والسنة وما جاءت في كلام الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم باحسان وما عرفت في خيرالقرون ، وكل ما كان هذا شأنه ، فانه من البدع المحدثة ، وحميت المعركة بين أصدقائه وخصومه والموافقين والمعارضين حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها .

اما اذا عدلنا عن هذا المصطلح الذي نشأ وشاع في القرن الثاني[1] ورجعنا الى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين وتأملنا في القرآن والحديث ، وجدنا القرآن ينوّه بشعبة من شعب الدين ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ «التزكية» ويذكرها كركن من الاركان الاربعة التي بعث الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها « هُوَ الذي بَعَثَ في الأمِّيين رَسولاً منهم يتلو عَلَيْهِمْ آياته ويُزكّيهم

---

(١) كلها أقوال قيلت في معنى التصوف واشتقاقه راجع دائرة المعارف للبستاني وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان .

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٠ نقلا عن الامام القشيري

ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمَةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبين[1] » وهي تَزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل ، التزكيـة التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم واخلاصهم واخلاقهم والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي الذي ليس له نظير في التاريخ وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم •

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الاسلام والايمان ويعبِّر عنها بلفظ « الإحسان » ومعناها كيفية من اليقين والاستحضار يجب ان يعمل لها العاملون ، ويتنافس فيها المتنافسون ، فَيَسْأل الرسول صلى الله عليه وسلم ما الاحسان ؟ فيقول « أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه فإن لم تَكُنْ تراه فإنَّهُ يَراك[2] •

ووجدنا الشريعة وما أُثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الاقوال والاحوال ودُوِّن في الكتب ينقسم بين قسمين ، أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح ، وأدعية وأذكار ، وأحكام ومناسك قد تكفَّل بها الحديث رواية وتدوينا ، والفقه استخراجا واستنباطا وقام بها المحدثون والفقهاء ــ جزاهم الله عن الأمة ــ فحفظوا للامة دينها وسهَّلوا لها العمل به •

---

(١) الجمعة /٢/ ، (٢) حديث متفق عليه .

وقسم آخر هو كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الافعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسول صلى الله عليه وسلم قياما وقعودا وركوعا وسجودا ، وداعيا وذاكرا ، وآمرا وناهيا ، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد ، وهو الاخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والايثار والسخاءوالادب والحياء والخشوع في الصلاة والتضرع والابتهال في الدعاء ، والزهد في زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة والشوق الى لقاء الله الى غير ذلك من كيفيات باطنية واخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد والباطن من الظاهر ، وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علما مستقلا ، وفقها منفردا فان سمِّي العلم الذي تكفل بشرح الاول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله « فقه الظاهر » سمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول اليها « فقه الباطن » .

فكان الاجدر بنا أن نسمِّي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو الى كمال الايمان والحصول على درجة الاحسان والتخلق بالاخلاق النبوية واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في صفاته الباطنية وكيفياته الايمانية كان الاجدر بنا وبالمسلمين أن يسمّوه « التزكية » أو « الاحسان » أو « فقه الباطن » ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال

الشقاق ، وتصالح الفريقان اللذان فرق بينهما المصطلح وباعد بينهما الاستعمال الشائع ، فالتزكية والاحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية ، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة يقرُّ بها المسلمون جميعا ، ولو ترك « المتصوفون » الالحاح على منهاج عمليّ خاص للوصول الى هذه الغاية التي تعبِّر عنها بالتزكية أو الاحسان أو فقه الباطن ، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها ، وألحُّوا على « الغاية » دون « الوسائل » لم يختلف في هذه القضية اثنان ، ولم ينتطح فيها عنزان وخضع الجميع وأقرّوا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الاسلام يحسن أن نعبِّر عنه بالتزكية او الاحسان أو فقه الباطن ، وأقرّوا بأنه روح الشريعة ، ولُبُّ لُباب الدين وحاجة الحياة ، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية ، ولا لذّة ــ بالمعنى الحقيقي ــ في الحياة الفردية الا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة.

ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح والعرف الشائع « التصوف » على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمة ، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة ، وصدت فريقا كبيرا من الناس عن سبيلها والحرص على تحصيلها ولكن كان ذلك لاسباب تاريخية يطول ذكرها والامور تجري كثيرا على غير الاهواء والمصالح ، وليس لنا الآن ان نقرر الحقيقة وتتحرر من القيود والمصطلحات ومن النزعات والتعصبات ولا نفرّ من حقيقة دينية يقررها

الشرع ويدعو اليها الكتاب والسنة وتشتد اليها حاجة المجتمع والفرد لاجل مصطلح محدث أو اسم طارىء دخيل •

ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر وهو أنه دخل فيها دجّالون ومحترفون وباطنيون وملحدون ، اتخذوهاوسيلة لتحريف الدين واضلال المسلمين وافسادالمجتمع ونشرالإباحية، وتزعموا هذا الفن وحملوا لواءه فكان ذلك ضغثاً على إبّالة ، وزهـّد فيه وتفـرّ منه أهل الغيرة الدينية والمحافظين علىالشريعة الاسلامية وطائفة اخرى من غير المحققين لم يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلـطوا بينها، وألحوا على الوسائل أحيانا وضيـّعوا الغاية أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه ، وعدُّوه من الكمالات ومن الغايات المطلوبة وعقـّدوا المسألة وطوَّلوهـا ، وجعلوا الشيء الذي يُكلـّف به كل مسلم والذي هو لُب الدين وحاجة الحياة العزة وفلسفة ورهبانية لا يجرؤ عليها ولا يطمع فيها الا من نفض يده من أسباب الحياة ورفض الدنيا وما اليها ، ولا شك أن أولئك قليل من قليل في كل عصر وجيل ، وليست هذه دعوة الدين ولا أسوة الرسول ولا حكمة الخلق ، ولكن الله قيـّض للمسلمين في كل عصر وجيل من ينفون عن هذا الدين « تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ويدعون الى التزكية الخالصة مـن شوائب العجميـة والفلسفـة والى « الاحسان » و « فقه الباطن » من غير تحريف ، وانتحـال

وتأويل ، ويجددون هذا الطب النبوي لكل عصر وينفخون في الامة روحا جديدة من الايمان والاحسان ، ويجددون صلة القلوب بالله والاجسام بالارواح ، والمجتمع بالاخلاق ، والعلماء بالربانية ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد ، وزينة الحيلة الدنيا وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم ووعدهم ووعيدهم ، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر والاحتساب على الملوك والامراء والاستهانة بالمظاهر والزخارف ، والقناعة باليسير فيستطيع أحدهم أن يقول — وقد طلب منه أن يُقَبِّل يد الملك ليرضى عنه — يا مسكين والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبِّل يده يا قوم أنتم في واد وأنا في واد(١) ويقول بعضهم وقد عرض عليه ملك بلاده أن يقبل شيئا مما آتاه الله من الخير الكثير (إن الله يصف هذه الدنيا بطولها وعرضها بالقلة والخِسَّة فيقول «قل متاع الدنيا قليل» ، وقد رزقك الله جزءا صغيرا من قطعتها الصغيرة ، فلا أرزؤك فيه(٢) ويمد أحدهم رجله الى أمير جبار ، ويرسل اليه هذا الاميرصرة من الذهب فيرفضها قائلا « إن من يمد رجله لا يمد يده(٣) » .

فلا شك أنه لولا هؤلاء — أصحاب النفوس المزكاة ، الذين وصلوا الى درجة الاحسان وفقه الباطن — لانهار المجتمع

(١) قالها الشيخ عز الدين بن عبد السلام (م ٦٦٠ هـ) .

(٢) قالها الشيخ المرزا مظهر الدهلوي أحد كبار الشيوخ النقشبندية في القرن الثاني عشر الهجري .

(٣) هو عالم دمشق الشيخ سعيد الحلبي من رجال القرن الماضي .

الاسلامي ايمانا وروحانية وابتلعت موجة « المادية » الطاغية العاتية البقية الباقية من ايمان الامة وتماسكها ، وضعفت صلة القلوب بالله والحياة بالروح ، والمجتمع بالاخلاق ، وفقد الاخلاص والاحتساب ، وانتشرت الامراض الباطنية واعتلت القلوب والنفوس وفُقد الطبيب ، وتكالب الناس على حكام الدنيا ، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب ، وغلب عليهم الطمع والطموح وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة ونيابتها وهي « تزكية النفوس والدعوة الى الاحسان وفقه الباطن » .

أنظر الى بلاد ضعفت فيها الدعوة الى الله والربانية وتزكية النفوس من زمان وندر فيها وجود الدعاة الى الله وتجديد الصلة بالله واصلاح الباطن — بنفوذ الحضارة الغربية او للقرب من مركزها أو بفعل عوامل اخرى انك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم ولا التعمق في التفكير ، ولا فضل من ذكاء ، ولا غنى من أدب ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنة ولا نعمة من استقلال ، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها ، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حلّ لها ، فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء ونهامة المال العمياء والامراض الاجتماعية والخلقية ، والمثقفون — الثقافة الدينية أو المدنية — فريسة الحرص على الجاه والمنصب والامراض الباطنية من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب الظهور ونفاق ومداهنة

وخضوع للمادة والقوة ، والحركات الاجتماعية والسياسية تفسدها الاغراض وعدم تربية النفوس وضعف القادة ، والمؤسسات يفسدها الخلاف والشقاق وقلة الشعور بالمسئولية والتفكير الزائد في المادة وزيادة الرواتب ، والعلماء يُضعف سلطانهم اهتمامهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر وسخط الخاصة والعامة ، واعتيادهم الزائد للحياة الرخية الناعمة ، ولا علاج لكل ذلك الا في « التزكية النبوية » التي نطق بها القرآن وبعث لها الرسول ، وفي «الربانية» التي طولب بها العلماء « ولكنْ كُونوا ربَّانِيِّين بما كُنتُم تُعَلِّمونَ الكِتابَ وبما كُنتُمْ تَدْرُسون » .

انني لا ألح على منهاج خاص من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين واشتهر في الزمن الاخير بالتصوف ـ من غير حاجة الى ذلك فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاتهما غنى عنه ـ ولا أبرىء طائفة ممن تزعَّم هذه الدعوة واضطلع بها من نقص في العلم والتفكير أو خطأ في العمل والتطبيق ولا أعتقد عصمتها فكلٌ يخطىء ويصيب ، ولكن لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة الى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد ايمانها وصلتها بالله والدعوة الى اصلاح الباطن والعناية بالفرد قبل المجتمع . واقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم بلسان الشاعر العربي « الحطيئة » :

أقلّوا عليهم لا أباً لأبيكمُ
من اللّوم أو سُدّوا المكانَ الذي سَدّوا

وقد كانت الهند مركزا لهذا الصنف من التزكية والدعوة والربانية لاسباب تاريخية خاصة نشرحها في الجزء الثاني من كتابنا « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » ونشطت فيها حركة الاصلاح وقويت حتى وصلت الى أقصى العالم الاسلامي في الغرب والشرق ، ووُجد فيها مجتهدون استقلوا في تفكيرهم وجدّدوا هذا الفن وسهلوه لاهل العصر ونقحوه مما التصق به من البدع والزوائد ، واستخلصوا منه خلاصة توافق نفوس أهل العصر وطبائعهم وتقرب الطريق وتيسر الوصول نذكر منهم الامام الرباني الشيخ أحمد السرهندي (م ١٠٣٤هـ) وشيخ الاسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) والسيد الامام احمد بن عرفان الشهيد (م ١٢٤٦ هـ) والعالم الرباني مولانا رشيد أحمد الكنكوهي (م ١٣٢٣هـ) .

وقد كان من خلفائهم المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي (م ١٣٦٢ هـ) الذي هو من كبار علماء هذا العصر الربانيين . وأعظم مؤلف في هذا العصر بالاطلاق(١) ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في اصلاح العقيدة والعمل والرجوع الى

---

(١) يبلغ عدد مؤلفاته الى تسعمائة وعشرة كتب .

الله واصلاح النفس وانتفع الناس بكتبه انتفاعا لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان وقد شرح الله صدره لتيسير هذه الطريقة ـ التي كانت قد التوت وتعقدت ـ وتقريبها وتنقيح الغايات من الوسائل واللباب من القشور والزوائد وبلغ فيها درجة الإمامة والاجتهاد حتى أقرّ له كبار العلماء والشيوخ والمربّين بالتفرد في هذا الباب والتجديد لهذا الفن ، ووفقه الله عن طريق التربية والتأليف والوعظ لتجلية حقيقة التصوف واقناع الناس بأهميته والحاجة اليه وتيسره لكل فرد على حسب طبقته وأشغاله وثقافته وعقليته حتى سهل مناله ودنا جناه وأقبل عليه العلماء والزعماء والمؤلفون والموظفون وكبار المثقفين والمعلمين في الجامعات ، وممن تأثر بالحضارة الغربية والفلسفة الحديثة وتعرض للالحاد والمروق من الدين ، والعاطلون والمشتغلون ، وأهل النبوغ والذكاء وأهل الحرف والصناعات واصحاب النفوس القوية وأهل الهمم الضعيفة على السواء حتى كان للتصوف واصلاح الباطن مكانة في الطبقة المثقفة ودولة في هذا العهد المادّي .

اختار الله لعرض دعوته وفكرته ـ التي احتواها آلاف من الصفحات ـ أستاذنا الكبير الشيخ عبد الباري الندوي أحد تلاميذه الروحيين وقد كان من أجدر الناس بهذا العمل العظيم، فقد كان معلما للفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد ومؤلف كتاب « بين الدين والعقليات » المشهور وعاش في الوسط

الديني والعلمي ، وتخرج في معهد كبير ديني وصحب كبار العلماء والمؤلفين والكتاب في الهند وعاصر دور العقلية والتنور والحرية الفكرية في هذه البلاد ودرس الفلسفة الحديثة بتعمق وتوسّع ثم مارس مهنة التعليم في جامعة من أرقى جامعات الهند ودرّس طوائف من الشباب الاذكياء النابغين الفلسفة وعلوم الدين واجتاز مراحل القلق الفكري والارتيابية والسوفسطائية، وكان متصلا بالمدارس الفكرية الحديثة في أوربا ثم ساقه سائق التوفيق الى شيوخ مخلصين في مقدمتهم الشيخ أشرف علي التهانوي الذي خص الاستاذ بالثقة والعناية لذكائه وسلامة فهمه وصدق طلبه حتى حصلت له الاجازة منه ودامت الصلة بينه وازدادت توثقا وإحكاما ، ولم تزده الايام والتجارب الا اعجابا بشخصية شيخه وثقة بفهمه واجتهاده واستمر اللقاء والمراسلات حتى استأثرت بالشيخ رحمه الله (عام ١٣٦٢هـ) .

وانقطع الشيخ بعدما احيل الى المعاش سنة ١٩٤٥ الى تلخيص مؤلفاته والاقتباس منها والتقاط الدرر من بحارها ونظمها في أسلوب كتابي عصري وعنى بعرض فكرته كفكرة جامعة وصورة كاملة في مؤلفاته ، ومن أنفع هذه المؤلفات هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته بالعربية واسمه « تجديد التصوف والسلوك » أسميناه بالعربية « بين التصوف والحياة » وهو كتاب يثبت في قوة ووضوح وأسلوب علمي أن الذي اعتاد المتأخرون أن يسموه بالتصوف ، هو لب الاسلام وكمال

الايمان ، وانه لا يمكن الرجل ما أن ينال بركات الاسلام وثمراته الدينية والدنيوية والفردية والاجتماعية والقومية والسياسية بدون ان يتحقق بهذا الكيف و يعني باصلاح نفسه ــ قبل غيره ــ وتزكيتها وتحليتها بصفة الاحسان وفقه الباطن •

وقد نقل هذا الكتاب القيم الاستاذ محمدالرابع ابن رشيد الحسني الندوي أستاذ دار العلوم ندوة العلماء وبذل فيه جهده ومقدارا كبيرا من وقته لان التصوف قد أصبحت له لغة خاصة وتعبيرات خاصة في الهند يصعب نقلها والتعبير عنها في اللغة العربية على شدة اشتغاله بالدروس والاشراف على قسم الادب العربي في دار العلوم ونشاطها الادبي والصحافي •

وللمؤلف شكر القراء والمنتفعين بهذه العلوم الصحيحة النافعة واعجابهم ، وللمترجم تقديرهم واعترافهم ولكل من له نصيب في هذا العمل دعاؤهم •

في ٤ ربيع الاول ١٣٨٠ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الشيخ أشرف علي التهانوي

ولد الشيخ الكبير أشرف علي بن عبد الحق العمري في « كَهانَه بَهَوَن » بلدة من البلدان الغربية لايالة « اترابراديش » في الهند على بعد خمسين ميلا من دهلي على وجه التقدير ونشأ فيها فلقب بالتهانوي وتلقى التعليم الابتدائي في بلدته ثم انتقل الى المعهد الديني المشهور دار العلوم الديوبندية واقام فيها خمس سنين أكمل فيها دراسته وتخرج وهو ابن عشرين سنة وكان ذلك في ١٣٠١ هجرية واتصل بالمصلح الصوفي الكبير الشيخ الحاج امداد الله والعالم الرباني الجليل الشيخ رشيد احمد الجنجوهي رحمهما الله تعالى وبايع اولهما وافاد منه حكمة عظيمة وعلما جما وتدرج في مدارج الكمال حتى أصبح علما كبيرا من اعلام المصلحين للامة الاسلامية في شبه القارة الهندية واستفاد منه الوف من المسلمين وكان له فضل كبير في نشر العقيدة الصحيحة واصلاح الاعمال والاخلاق ومحاربة العوائد والبدع التي تسربت في المسلمين عن طريق المواطنين وتخرج على مدرسته الصوفية زهاء مائة واربعين مسترشدا من أشهرهم العلامة السيد سليمان الندوي ومولانا

شبير احمد العثماني من كبار مؤسسي باكستان والمفتي محمد حسن الامرتسري مؤسس الجامعة الاشرفية في لاهور ومولانا خير محمد الجاليدهري مؤسس مدرسة خير المدارس كبرى المدارس الدينية في باكستان ومولانا ظفر أحمد التهانوي من كبار علماء باكستان ومولانا وصي الله المربي الكبير في الهند ومولانا عبد الباري الندوي من كبار الاساتذة والمفكرين ومؤلف هذا الكتاب وغيره من كتب قيمة •

اشتغل الشيخ التهانوي بعد تخرجه من المعهد الديوبندي بالتدريس في مدرسة فيض عام بمدينة كانيور لمدة اربع عشرة سنة ثم قطع صلته عن التدريس واعتكف في بلدته يربي النفوس الراغبة الى تطهير الباطن وتزكية القلب كما اشتغل بالعلم الديني يؤلف ويفيد حتى بلغ عدد ما ألفه طول حياته اكثر من تسعمائة مؤلف بين صغير وكبير ، توفي رحمه الله في سنة ١٣٦٢ هجرية •

★ ★ ★ ★

بين التصوف والحياة

تناقض

إن من غرائب الامور ان يعتقد كثير من الناس أن التصوف هو الكمال في الدين والدرجة التي تدعى بدرجة الاحسان وهي أعظم درجة من درجات الاسلام والايمان ، وتجد كثيرا من الناس يعتقدون أن المنزلة التي تحصل للمتصوفين والاولياء عند الله من حيث التقرب والدنو اليه لا تحصل لغيرهم حتى لكبار الفقهاء والمحدّثين الذين يحملون العلوم الشرعية الظاهرة .

ان هؤلاء الصوفية واولياء الله ليحملون في جميع أعمال حياتهم وأفعالها وحركاتها وسكناتها صلة إلهية خاصة يكونون معها كأنهم في المشاهدة الإلهية والحضور في كل زمان ، وكأنهم متمتعون بلون ما من الوان المكالمة والمناجاة مع الله ، فبذلك لا يرون أحدا أعلى منزلة من الصوفية غير الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم ، وهذا الاعتقاد عن الاولياء الصوفية ليس خاصا بعامة الناس فحسب ، بل أن الخاصة من الناس والمحققين منهم أيضا يسلّمونه ويعترفون به .

وفي جانب آخر نجد شبهات كبيرة وأفهاما خاطئة تسربت الى الناس عن طريق التصوف لا نحسب أن مثلها عمت وانتشرت عن طريق نحلة من النحل الاسلامية وعلم من العلوم الاسلامية حتى أننا قلما نجد صورة من صور الكفر والشرك لم يعدها بعض الناس من صميم التصوف او من التصوف بعينه ولذلك نجد أن كثيرا من الشخصيات الاسلامية الكبرى أنكرت التصوف ولغت عليه برمته او حسبته الضلالة بعينها •

سر هذا التناقض

والسر في هذا التناقض أن منشأ الكمال في شيء انما هو في باطنه أكثر مما يكون في ظاهره ، وفي قوته اكثر من مقداره وفي لبه أكثر من قشره ، وفي روحه اكثر من جسمه ، وفي مغزاه أكثر من شكله ، وكلما كان الشيء أعرق في الباطن والغموض كان أشد تعرضا للشبهات والضلالات وتطرقت اليه الاوهام ونسجت حوله الاساطير، ومما لا شك فيه ان الشبهات والضلالات التي عدت من صميم الدين وكمالاته صعب اقتلاع جرثومتها واستئصال جذورها ، فلذلك نرى أن الضلالات التي دخلت في الاسلام عن طريق التصوف حتى ما يبلغ منها درجة الاشراك بالله والالحاد في الدين قد تغلغلت في حياة المسلمين واصبحوا يعدونها من صميم الدين وأصله : حتى أنه لم يعد من الامكان ازالتها واستئصالها الا بجهد وعسر •

لقد وقع العامة وعدد كبير من الخاصة نحو التصوف في

شبهات عظيمة فمنهم من يعد التصوف كشوفا وكرامات وتصرفات ، ومنهم من ينظر الى الاشغال الروحية والمراقبات والاحوال والكيوف الباطنية هو التصوف بعينه ، ويؤمن بذلك، ومنهم من لا يعد التصوف إلا تقاليد وعادات خاصة ، ومنهم من يراه رياضات ومجاهدات وزهادة في العلاقات الاجتماعية ومنهم من يعد التصوف الفلسفي أو التصوف المصطبغ بالصبغة الفلسفية من أفكار وحدة الوجود ووحدة الشهود ونظرياتهما هو التصوف الحق ومنهم من يرى التصوف مجموعة من الاسرار والمَغيَّبات ، وقد بلغ الامر في ذلك الى أن سماه رجال الغرب باسم « السرّية » وكثير من المسلمين أيضا جعلوه سرا أو رمزا متنقلا من صدر الى صدر ، أما الذين رأوا التصوف والطريقة والحقيقة والمعرفة ضدا للشريعة فأولئك هم الذين وقعوا في ضلالة أشد وخطأ أطم .

تنقيح التصوف من الاوهام والزوائد

وقد وفق الله المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي بالتمحيص في هذا الباب ، ونقح مثل هذه الاخطاء المختلفة ، فكان عمله ذلك عملا تجديديا في باب التصوف ولم يقتصر ــ رحمه الله ــ على هذا الجانب السلبي بل أضاف الى ذلك الجانب الايجابي وهو أنه وفق الى عرض التصوف عرضا صحيحا اسلاميا حتى تحقق ان التصوف ليس الا تعبيرا للشريعة الاسلامية وتفسيرا لها ، لم يؤد الشيخ هذا العمل التجديدي

نظريا وعلميا بل انما أحيا التصوف عمليا وحققه بوسائل التعليم والتربية في غاية من التحقيق والاجتهاد وبعثه بعثا جديدا •

حقيقة التصوف

وخلاصة بحوثه أنك كما ترى « للانسان الكامل » وجهين الظاهر والباطن أو القالب والقلب ، كذلك ترى «للدين الكامل» وجهين « الشريعة » و « الطريقة » وكما ان الفقهاء يستنبطون في الشريعة أعمالا وأحكاما ظاهرة كذلك الصوفية يستنبطون ويستخرجون من طريقة التصوف أعمال القلب والباطن وأحكامهما •

يمكننا أن نشرح ذلك في عبارة اخرى فنقول ان التصوف يحل من الباطن ذلك المكان الذي يحله من الظاهر « الفقه » فكما ان للصلاة والصيام وغيرهما من الاعمال والعبادات صورة ظاهرة توجد احكامها ومسائلها في علم الفقه ، كذلك الخضوع والخشية وحضور القلب ، أو ذكر الله تعالى بالقلب الذي هو غاية الصلاة « أقمِ الصَّلاةَ لِذِكْري » صورة باطنة توجد أحكامها وتفاصيلها في هذا العلم الذي يستحق أن يسمى «فقه الباطن » وكما ان العزوف عن الطعام والشراب في وقت محدد يسمى صوما في الاعمال الظاهرة كذلك باطنه يسمى التقوى الذي أشار اليه الله سبحانه وتعالى بقوله « لَعلَّكم تتقون » ثم كما ان للاعمال الشرعية قالبا ومظهرا خارجيا لا تتحقق بغيره ولا تتجلى الا فيه كذلك هذه الاعمال الشرعية لا تبلغ درجة

الصحة ولا تخرج من الفساد ولا تحرز عندالله القبول ولا تأمن سخطه الا اذا كانت مُتّسمة بنيات صالحة ومتصفة بالاخلاص، فقد جاء في الحديث (إنّما الأعمالُ بالنيات) حتى ان الايمان والعقائد الصالحة التي يتوقف عليها نجاة الرجل وسلامته في الآخرة وتنحصر فيها صحة أعمال الرجل الظاهرة وإحراز كل ذلك المقبول عند الله ليسا الا عملين قلبيين باطنيين ، وبذلك تظهر أهمية هذا الفقه الباطني أو التصوف ومكانه من الشريعة الاسلامية •

يعلم الجميع ان أساس جميع العقائد والايمانيات هو توحيد الرب تعالى وهو اثبات كلمة (لا اله الا الله) بمعنى نفي الالوهية والربوبية عن جميع المخلوقات ونفي صدورالنفع والضرر في صورة الفعل والتأثير عنها واقرار كل ذلك واثباته لله وحده ومما لا شك فيه انالانسان لا يخضع لاحد ولايتخذه إلهه وربه ولا يعبده ويتضرع له الا اذا انكشف له أنه هو النافع والضار ، ومعنى كلمة لا اله الا الله أننا نؤمن بأن النفع أو الضرر الذي يصيبنا في صور ظاهرة مختلفة وبطرق متنوعة من الموت والحياة والمرض والصحة او الفقر والرفاهة والذلة والشرف ليس فيه الفاعل الحقيقي الا الله جل وعلا ، وليست هذه العقيدة غير عمل القلب والباطن ، لكن كثيرا من العلماء المتقنين للعلوم والاحكام الظاهرة والعاملين بها يجعلون ــ مع الاسف ــ غير الله مصدرا للنفع والضرر ومبعثا للفعل والتأثير بكل جدارة •

ويشاهدون هذا التأثير في غير الله ، اليس نفي هذه المشاهدة الزائفة ، ونفي هذه الأبهة المزيفة ومشاهـدة المؤثر الحقيقي والفاعل الحقيقي في هذا الكون التي عبر عنها لسان الشريعـة بالاحسان وهي التي يسميها الصوفية « التوحيـد الافعالي » وتفسيره أن تنشأ مع الله علاقة العبودية الخالصة بحيث تحصل فيها مشاهدة الله ورؤيته والاذعان بحضوره ومعيته في الحياة وفي جميع أعمالها أليس هذا التوحيد الحقيقي هو الدين نفسه والكمال في الدين أفلا يكون هذا العلم والاذعان وهذا اليقين والايمان روح جميع العبادات والمعاملات في الحياة الدينيـة وأفلا يكون صيانة هذه الروح وحفظ هذا النبع أو الايمـان والعقيدة أفضل وألزم من جميع الاعمال الظاهرة الاخرى ؟!

التصوف هو الفقه الباطني

ان التصوف أو العلم الباطني الذي بالغ فيه الناس مبالغة عظيمة وصوروه تصويرا شائها وشرحوه شرحا طبعه بطابـع الضلالة والبدعة ليست حقيقته الا انه قانون لاعمال القلب والباطن، وعلم فقه الباطن لصلاحهما وفسادهما مثل علم الفقه والاحكام المقررة لاعمال الجسد وجوارحه ، ونجد تفاصيل احكام التصوف منصوصة في الكتاب والسنة مثل ما نجد احكام الفقه الظاهري منصوصة فيها وتتبين أهمية أحكام التصوف وأفضليتـه من نصوص القرآن والحديث ، التي تصرّح بها أو تلمّح اليها حيث قال الله تعالى (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ إلاّ من أتى

الله بقلب سليم) وجاء شرحه وإيضاحه في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا وإنّ في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألاوهي القلب» ومراد ذلك أن صلاح اعمال الجسد الظاهرية وأفعاله وفساد أعمال الجسد الظاهرية وافعاله انما يتوقفان على الصلاح القلبي والباطني وفساده ، وليس الغرض من التصوف أو الفقه الباطني الا اصلاح هذا القلب وتزيينه وصيانته من الشر والطب له عند فساده ومرضه .

حينما علمنا هذه الحقيقة للتصوف والطريقة عرفنا ان التصوف بدل ان يكون مناقضا للدين والشريعة ومضادا لهما يحتل مكانا يستحيل معه لمسلم ما أن يبلغ درجة المؤمن الحق بدون ان يتخذ من التصوف لحياته منهاجا ، اما اذا كان رجل ما ينفر ذهنه ويشمئز هو من اسم التصوف ومصطلحه او كان يأبى عن ان يعترف بالتصوف كعلم بعينه وفن بذاته ، فلِمَ لا ينفر ولا يشمئز من المصطلحات الدينية الاخرى من تفسير ومفسر وتجويد ومجود وحديث ومحدث وفقه وفقيه وكلام ومتكلم وغيرها مما تعرف بها علوم الدين المختلفة وفنونها جمعاء ، فان قال ان هذه المصطلحات مستقاة ومقتبسة من ألفاظ القرآن والحديث وعباراتهما فيُردّ عليه بأن كلمة « الصوفي » ربما كانت في أصلها مقتبسة من أصحاب الصُفّة بدل أن تكون مقتبسة من لابسي الصوف وان لم يقبل هذا الرد أيضا فلم

لا يسمي هذا العلم بعلم الاحسان أو علم القرب ، بدل أن يسميه التصوف مثل الآخرين كما فعل ذلك عديد من أكابر الصوفية .

ولقد قام الشيخ التهانوي الجليل رحمه الله ـ نظرا الى أهمية تجديد التصوف وضرورة تعليمه وإبانة حقيقته ـ بتأليف رسائل كبيرة وصغيرة مفردة لهذا الموضوع وغير مفردة وبمواعظه وملفوظاته[1] وعرض في تأليفاته المختلفة لهذا الموضوع بايجاز وبتفصيل وبعناوين مختلفة وتعابير منوعة في ذكر التصوف وشرحه شرحا مبسوطا فكتب في توطئة رسالة له اسمها « حقيقة التصوف » .

« ان الاعمال التي أمرت الشريعةالاسلامية بإتيانها أو نهت عنها هي من نوعين ، بعضها تتعلق بظاهر الجسد وبالحقائق المعروفة العامة مثل الشهادة باللسان والصلاة والصيام ، والحج والزكاة وخدمة الابوين وهي تسمى مأمورات ، ومثل التكلم بكلمة الكفر والاتيان بأعمال الشرك والزنا والسرقة وأكل الربا والارتشاء وهي تسمى منهيات ، وأمرت بجوارها بأعمال تتعلق بالباطن وهي الايمان والتصديق والعقائد الصالحة والصبر والشكر والتوكل والرضا بقضاء الله والتسليم والاخلاص له ومحبة الله ورسوله وما سواها من الاعمال الحسنة الاخرى

---

(١) الملفوظات نوع من كتب المتأخرين يجمعون فيها كلمات شيوخهم وفوائدهم المنثورة ..

وهي مأمورات وفضائل أيضا ، أما العقائد الباطلة وعدم الصبر والكفران والرياء والكبر والعجب وغيره فهي المناهي والرذائل التي نهت عنها الشريعة الاسلامية .

تجد في القرآن (أقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة) وتجد (يا أيُّها الذينَ آمنوا اصبِروا) وتجد (واشكروا اللهَ)وكما تجد في موضع من القرآن (كُتِبَ عليكُم الصيامُ) و (لله على الناسِ حِجُّ البَيْتِ) تجد كذلك في موضع آخر (يُحِبُّهم ويحبُّونه) و (والذين آمَنُوا أشَدُّ حبّاً للهِ)، وكما تجد في موضع (إذا قامُوا الى الصَّلاة قاموا كُسالى)، تجد في موضع آخر (يُراؤونَ النَّاسَ)، وكما تقرأ لوما وتقريعا على تارك الصلاة ومانع الزكاة تقرأ كذلك ذماً وإنكاراً على صاحب الكبر والعجب ، وكل ذلك يوجد في الاحاديث أيضا فحينما نرى فيها أبوابا لبيان الصلاة والصيام وشرح أحكام البيع والشراء والزواج والطلاق ، نرى أبوابا أيضا في ذم الرياء وطلب السمعة والكبر وغيره » .

لا يمكن لامرىء مسلم أن ينكر أن الاعمال الباطنية تعادل الاعمال الظاهرة بكونها أحكاما الهية أيمكن أن يقر الرجل في آية (أقيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ)، بأنها مكونة بفعل الأمر وصيغته ولا يقر بعد ذلك في كلمة (إصبرُوا)، و(اشكروا)، بنفس الفعل ونفس الصيغة ؟! وهل يمكن ان يقول أن (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) يدل على شرعية الصوم ولا يدل (والذين

آمنوا أشد حباً لله) على ان المحبة مأمور بها ، بل لو حققنا النظر في هذا الباب لعلمنا أن الاعمال الظاهرة هي نفسها لم تفرض الا لتخدم الانسان في تزكية باطنه ، ولعلمنا أن تزكية الباطن هي غاية في محلها وهي مستوجبة لنجاة الرجل في الآخرة وأن فساد الباطن وقذارته يستوجبان الهلاك في الآخرة فان الله سبحانه قال (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وقال (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) تدل الآية الاولى على أن تزكية الباطن مستوجبة للفلاح وتدل الآية الثانية على أن سلامة القلب اذا فقدت من انسان لم ينفعه مال ولا بنون .

ان الايمان والعقائد التي يتوقف عليها قبول الاعمال انما هي من عمل القلب ، ومما لا شك فيه ان الاعمال الانسانية كلها هي وسيلة مجردة وليست كمال الدين وبذلك عرفنا ان الغاية الوحيدة للانسان هي تزكية القلب وان القلب في محل الملك بين رعيته وجنوده ، وان الجوارح في محل الجنود والعبيد ، فاذا صلح الملك تبعته في صلاحه أتباعه وطاوعته (ألا وإن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) تثبت صحة ذلك في كل حين وذلك بأن قلب الانسان اذا انطوى على شيء غلب عليه واستعبد جوارحه لخدمته فجعل العين تنظر له والاذن تسمع له واليد تتناول ما يشتهيه ، والقدم تريد المشي الى ما يريده

سواء كان ذلك الشيء شرا او خيرا ، وليس ذلك الا لان هوى القلب هو الذي يبعث هذه الجوارح على إتيان هذه الاعمال .

هؤلاء رجال الدنيا ينغمسون في اعمالهم انغماسا لا يدعهم يسمعون حتى صوت الاذان الذي يدوي في الارجاء ، وكذلك الذين يستديمون في ذكر الله والتأمل فيه يغرقون في ذلـك فلا ينقطعون عنه لحظة ولا يلفتهم شيءدونه ، فهذا هو الاستغراق، حينا يكون للدنيا ، وحينا يكون في أمر الدين .

خطأ جسيم

إن من الخطأ والالتباس العظيمين ما وقع فيه بعض كبـار العلماء بأن حسبوا طرق التزكية السائدة اليوم هو التصوف بعينه ، ولذلك دخل الاشراقيون على وجه العموم ورهبـان البراهمة على وجه الخصوص فيزمرةالمتصوفة ، وهذا الالتباس الخاطىء لم يدخل في عقول الناس الا منالكلمة المعروفةالذائعة أن « الصوفي لا مذهب له » فتحرر التصوف بذلك من قيـد الاسلام وجاز له أن يتحد اذا شاء مع كل عقيدة ودين غـير الاسلام ، قال اصحاب هذا الفكر الخاطىء أن التصوف هو أسمى من أن يتقيد بظواهر الاعمال ، وانه لزعم فاسد لا حقيقة له ولا نصيب له من الصحة ، وقداستنكرهشيخنا الشيخأشرف علي التهانوي قائلا : ليست كل تزكية تصوفا ، انما التصوف هو التزكية التي تخضع لاحكام الشريعة الاسلامية وتحصـل باتباعها والامتثال لها ، وانما هي التي يصلح بهـا للمرء أمـر

آخرته ويدخل صاحبها تلك الجنة التي وعد بها المتقون ، ان الله تعالى قال (قد أفلَحَ مَنْ زكّاها) وذلك باتباع الشريعة الاسلامية لا بمخالفتها ، أما الرياضات الروحية والمجاهدات البدنية الكثيرة التي يأتيها رهبان البراهمة وغيرهم فليست من التزكية والتصوف في شيء مهما قيل عنها ومهما سميت بأسماء التصوف ، ولن تحمل تلك الاسماء والالقاب معنى ولا حقيقة ولا شأن لها بالتصوف ، انها الفاظ مجردة ، ومردودة عند الله غير مقبولة .

التزكية المرضية

وعلى هذا الاساس يمكننا أن نجعل للتزكية قسمين : أحدهما التزكية المرضية ، وآخرهما التزكية المردودة وقدضرب له الشيخ التهانوي مثالا وقال :

« نغسل المرآة القذرة بالماء الصافي الخالص فتصبح رائقة لماعة ، فتعجب رائيها لكنها إن غسلت بالبول زال عنها القذارة والوسخ الملموسان وصفا مرآها بدون شك لكنها لن تتطهر ولن تعجب الناس ولن تروقهم بل انما تكرهها النفوس وتتقذر منها، فلذلك لا يمكن لرجل ما أن يحرز رحمة الله وينال الفلاح يوم الآخرة ، وحياته متعارضة مع الشريعة الاسلامية ، ان التصوف في لفظه ومعناه هو نفس ذلك العلم الذي اذا عمل به رجل جلا قلبه وصفت نفسه وعمت التزكية فيقلبه فكانت أداة صالحة لرفع درجاته عند ربه .

الحب وشرطه

اما الحب الذي هو عنصر هام من عناصر التصوف والذي نجد مكتبة التصوف مليئة بذكره والحديث عنه فلا ريب أنه أسمى الخصائل القلبية واكرم احوال النفس لكنه لا يصح أيضا ولا يُتقبل عند الله الا اذا كان تابعا للسنة السنية وخاضعا للشريعة السمحة .

ويُعدُّ هذا الحب من خير خصائل القلب وأهم فضائله ، وانه أيضا لا ينشأ ولا يحصل الا بعد الامتثال لاوامر الله واتباع رسوله ، أما الحب الذي خلا من الخضوع للشريعة الاسلامية فلا قيمة له عند الله ، ولن يقبل لديه أبدا لان الله يقول « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ » .

اما جهلة الصوفية فيستندون دائما الى الجملة الشائعة « الصوفي لا مذهب له » ويشرحونها شرحا لا يتفق الا مع ميولهم ورغباتهم فحسب ، ويظنون أن تزكية القلب وإن كانت غير خاضعة للشريعة الاسلامية هي أرفع درجة من العبادات والاعمال الظاهرة مثل الصلاة والزكاة وغيرهما ، وان هذه الاعمال أحط منزلة وأقل قيمة من طرق التزكية السائدة ، المشهورة .

أما الاسلام بالعكس من ذلك فلا يعتبر من صفات القلب وخصائله ولا يستحسن ولا يقبل الا تلك الخصائل التي تنشأ وتحصل من المواظبة على الصلاة والصيام والعبادات المشروعة

الاخرى والامتثال للاحكام المأمور بها في الشريعة الاسلامية .

وترمز الآية الكريمة (قَـد أفْلَـحَ المُؤْمِنُـونْ الذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونْ) الى ان الخشوع الذي هـو من صفات القلب والذي يأتي بالفلاح يوم الآخرة هو ذلـك الذي يكون في الصلاة ويختص بها فكيف يمكن اذن للصوفي الذي لا يقيم الصلاة ولا يأتي بها أن يحرز هـذا النوع مـن الخشوع ويكسب به فلاح الآخرة وسعادتها .

وقس على ذلك جميع العبادات مثل الزكاة والصدقـات والحج والصيام وغيرها فانها تشبه الصلاة في ذلك القانون فانه لا تجدي هذه العبادات نفعا أيضا إلا اذا كانت مطبوعة بتلك الحالة القلبية التي ذكرها القرآن ، أنهـا تلزم وتجب لصحـة الصلاة وقبولها .

وخلاصة القول أن امتثال الشريعة الاسلاميـة واتبـاع الرسول عليه الصلاة والسلام هما أهم الاعمال وأوجبها ، وان الذي لا يخضع ولا يستسلم لها ولا يحافظ على اكمالها لا يمكنه أن يبلغ رضا لله ويحرز ثوابه وجنته ولا شبهة ان الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى هما غايتان منشودتان وهدفان جليلان لكل مسلم ، أفليس التصوف باطلا اذا تحرر من الخضوع لاحكام الشريعة ومن السعي للعمل بها كاملة ، وكما ان كرامات الاولياء لا تصح ولا تقبل الا اذا كانت صادرة من رجل ورع تقي بار كذلك للتصوف لا يصح ولا يقبل عند الله الا اذا كان في رجل

ورع تقي عامل بالشريعة خاضع لها ، ولا بدع في ذلك فقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وهم سادة الاولياء وأئمة الابرار يواظبون على جميع العبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد وتلاوة للقرآن ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك من الاعمال الصالحة ويداومون عليها ، ولذلك كانت قلوبهم صافية ونفوسهم زاكية لانهم قاموا بهذه الاعمال كلها أحسن قيام ، فرضي عنهم الله سبحانه وقال في كتابه عنهم « رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عنه » فثبت أن التصوف ليس الا تزكية للباطن مع الامتثال للشريعة الاسلامية والاستسلام لها كل الاستسلام .

حدوث مصطلح التصوف وتدوينه كفن

أما اسم التصوف فهو مثل أسماء أخرى لعلوم وفنون اسلامية شتى لا يختلف عنها في شيء ، فكما أن لكل من علوم التفسير والحديث والفقه وغيره اسما ولقبا كذلك لعلم التصوف اسم ولقب ، كانت العلوم كلها غير مميزة في معالمها وغير محددة في أشكالها في عصر الرسول عليه السلام وانما ميزها وقرر حدودها ومعالمها ووضع أسماءها علماء الاسلام في عصر تلا عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لانهم حينما درسوا الشريعة الاسلامية في أنحائها المختلفة وخاضوا في أعماقها وجدوها تحتاج الى تقسيمها وتوزيعها بين أجزاء مختلفة ليسهل أمر دراستها ويمكن الاحاطة بها احاطة متزنة متينة وكانوا يبغون

بذلك تأييد دينهم وتبليغه ففعلوا ذلك، ومن هنا تحددت هذه العلوم وتوزعت في هذه الاقسام المعروفة وتسمت بأسمائها ، كذلك كان التصوف أيضا في ذلك الوقت في مرحلة بدائية وغير مميز ولا مبين لم تحدد معالمه ولم يسم باسم خاص بل كان داخلا في علوم مختلفة متغلغلا فيها تشتمل عليه النصوص القرآنية والاخبار النبوية ، وكان الناس يستفيدون به حسب مايحتاجون اليه وبهذه الاستفادة والاشتغال المتواصل به لم يزل رصيده يزداد وثروته تفيض بما أضاف اليه مشايخ الاسلام والربانيون من أحوالهم وكيفياتهم النابعة من مجاهداتهم ومراقباتهم وعبوديتهم الصادقة ، حتى اقتضى الامر اخيرا أن يحددوا معالمه ويجعلوه في علم بعينه ففعلوا ذلك وأسموه بكلمة « التصوف » وتزكية الباطن وقرروا له طريقة تعليم وتربية خاصة ، وكان من رأيهم أنها خير طريق وأسرعها للبلوغ الى غاية تزكية النفس وتربيتها .

وكما ان علماء الاسلام توزعوا في شتى الجماعات العلمية لاختصاصاتهم في العلوم الاسلامية كل يعلم بعلمه حتى وصل بعضهم الى درجة الامامة والنبوغ في الناحية التي اختص بها فعرف بذلك وأشير اليه بالبنان وخلد ذكره على صفحات التاريخ وأثنى عليه أقرانه ومن عرفوه معرفة جيدة حتى قال الامام الشافعي وهو إمام في مذهبه الفقهي حينما عرف الامام أبا حنيفة وفقهه في الدين (الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة)

وعدّ علماء الاسلام الامام البخاري غاية في علم الحديث وحجة فيه ، ولا يزال البخاري في مكانته عند المسلمين اليوم ، أقول فكما نبغ في هذه العلوم واختص بها رجال وعدوا بذلك رجال الفن وأئمته كذلك نبغ في علوم الباطن رجال عظام قاموا بتزكية الباطن وتربية النفس الانسانية ، واتخذهم الناس قدوة في هذه الناحية وجعلوهم أئمتهم فيها وأولئك أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ بهاء الدين ، والشيخ معين الدين السجزي والشيخ شهاب الدين السهروردي رحمهم الله ومن قبلهم من أمثال الجنيد البغدادي والشيخ شبلي وغيرهما ،ولقد سمت مكانتهم وعلت منزلتهم في التصوف ونبغوا في ذلك نبوغا تاما ، وانما يجب ان تتبعهم في هذا الباب وأن نستنير بأعمالهم ونصائحهم وتتخذهم قدوة وأئمة فيالتصوف والتربية الباطنية ٠

ان الاتصال بمشيخة التصوف ليس شرطا للاستقامة في الدنيا والفلاح في الآخرة بيد أن الغاية المطلوبة والمنزلة التي تدعى بالكمال الديني لا تحصل بدون الملازمة والمصاحبة للبارعين في الفن ونبغائه من الذين يترسمون خطى أئمتهم من رجال هذا الفن ٠

وكما ان العلوم الاخرى التي فرعها العلماء من الكتاب والسنة عرفت بأسماء خاصة كعلم الفقه وعلم الحديث بحيث اذا درس الطالب كتاب الهداية أو غيره من كتب الفقه قيل له

أنه درس الفقه مع أنه اذا درس كتابا في الحديث لم يقولوا انه درس الفقه ولو أن الفقه بمعناه العام هو معرفة النفس بما لها وما عليها فمن هذه الناحية اشتمل الفقه على علوم كثيرة أمثال الحديث والتفسير والكلام فكذلك اذا سلك امرؤ ما في طريق دله عليه مشيخة المسلمين وهداه اليه المتخصصون في أعمال القلب والباطن وبذل في ذلك من وقته وسعيه ، قيل عنه انه تعلم التصوف وأخذه وأنه صوفي مع أن التصوف أعم من ذلك فانه يشتمل على الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات الاخرى أيضا لكنه لا يسمى تصوفا الا تلك الخطة الخاصة ولا يسمى متصوفا الا العامل بها والسالك عليها .

مهمة ((التصوف)) في الحياة

والغاية من هذا البحث هو شرح حقيقة التصوف المصطلح أما عمله ومهمته في الحياة فهو تطهير الباطن من رذائله وتحليته بالفضائل والسجايا الصالحة واما غايته فهي ايجاد الانابة الى الله سواء كان هذا الايجاد بطرق اخرى غير التصوف مما لا يخرج من الشريعة .

والحاصل من ذلك أن الدين انما هو محاولة للوصول الى الفلاح الأخروي واكتساب رضا الرب سبحانه وتعالى ، ولما كانت كل ذرة لهذا الكون الذي صنعه الله ــ وهو الظاهر والباطن ــ مظهرا لربه من كلتا الناحيتين ناحية الظهور وناحية البطونة أو

بلفظ آخر من الناحية الجسمية والناحية القلبية ، تعلقت العلوم الدينية الظاهرة بظواهر الاعمال واحكامهاالشكلية او بتصحيح الظاهر وتحليته ، وتعلقت العلوم الدينيةالباطنية او علم التصوف باصلاح الباطن وتحليته وحيث علمنا أن علاقةالكمال والاصالة هي بالكيفية اكثر مما هي بالظاهر علمنا انه لا يمكن الوصول الى الكمال ولا يمكن العثور على الحقيقة بدون العمل بطريقة التصوف وإيثار الحياة الصوفية واحتضانها .

أهمية اللباب

أقول ــ ولا أبالي بسخط أهــل الفسق والظواهر ــ ان اللباب هو اللباب أولا وأخيرا لا يتغير ولن يتغير عن حقيقتــه مهما يقال عنه ومهما يعارضه المعارضون وانه لا يوجد الا في جوف القشور وفي دواخل المظاهر ، فيجب أن يعلم المتصوف الذي لا يؤمن بغير اللباب ان القشر هو الذي يحمي اللبــاب والباطن ويصونه ولا يمكن ان يفصل احدهما عن الآخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » فأخبرنا بضرورة الاحسان في العبادة ، ومما لا شك فيه ان العمل لا يبلغ من الصحة والجودة مبلغا عاليا الا اذا خلا من كل نقيصة وقصور ، خذ الخبز مثلا انه لا يبلغ درجة الجودة بحيث يسيغه آكله ويستطيبه طالبه الا اذا خلصت مادته وأجيد طبخه كذلك العبادة لا تصــح ولا

تحسن الا اذا خلصت من النقيصة والقصور ، ومما يخطئون فهمه ولا يدركون كنهه هو صور العبادات واشكالها الظاهرة اذ يعدونها ويحسبونها هي العبادات نفسها وهي عندهم حركات سجود وقيام وركوع دون النفوذ الى داخل هذه الحركات ، ويكتفون بالظواهر التي رتبها وحددها الفقهاء ، لا شك أن ما رتبوه صحيح معقول وفي محله من الصدق والصحة لكن ليس معنى ذلك ان تقصر هذه العبادات في صورها ومظاهرها، دون ان تتعدى الى اكناهها والى معان مضمونة فيها .

الشريعة بين فقهين

« لو درسنا الشريعة الاسلامية دراسة دقيقة لوجدنا ان هناك فقها آخر مع هذا الفقه الظاهري المعروف ، وهو يدور حول لباب الشريعة ويبحث في صميمها ويقال له « التصوف » وهو لا يخرج عن ابواب الفقه الظاهري أيضا ، فلو بحثنا فيه من هذه الناحية لوجدناه محددا مثل ابواب الفقه الظاهري الاخرى من صلاة وزكاة وغيرهما ، وحيث اننا نقسم العبادات الظاهرة الى أبواب وأقسام من صلاة وصيام وزكاة ونسميها أبوابا للفقه لانها تتفرع منه فما الذي يدعو الى أن نرى مستحيلا جعل التصوف كذلك بابا منه كأبوابه الاخرى ،ولقد أفرد كثير من العلماء ابواب الفقه العامة من الصلاة وغيرها بالبحث والذكر وجردوها من الفقه ولم يستدع ذلك فصل تلك

الابواب عن الفقة ، فكذلك التوحيد والاخلاص أو الكبر والتواضع والعجب وغيرها من اخلاق محمودة او مرذولة أفردت بالبحث وذكرت مجردة عن الفقه فكيف أصبحت خارجة من علم الفقه وابوابه .

التوسع في الدراسات والاخلال بالعمل

دع الفقه الظاهري وانظر في القرآن والحديث ، أفلا تجد فيها أحكام الفقه الباطني وأوامره مع احكام الفقه الظاهري وأوامره جنبا بجنب بل ألا تجده أكثر منه وأقوى في كثير من مواضعها ، لكن المصيبة هي أن العلم هو نفسه قد أصبح غاية ومقصودا لذاته لدى كثير من العلماء وفي مدارسهم ولذلك لا تهمهم ولا تشغل بالهم الا الكتب وكل ما تحتوي عليه فيدور حولها شغفهم واهتمامهم ، يجرون فيها الامتحانات ويمنحون السابقين فيها الجوائز ويعطون الفائزين فيها الشهادات ويرغبون المتعلمين في تركيز دراساتهم عليها ، وقد انفتح للعلم الديني باب الجامعات أيضا فبدأ المتعلمون يتخصصون في نواحيه المختلفة واتخذوه بذلك ذريعة الى المنافع المادية فضاع العمل وضاع الاخلاص ولما تغير الشكل وتشوه المظهر فما بقاء المعنى واللب اذن ؟!

قال الشيخ « ان الناس يهتمون بتحصيل العلم ويعتنون به دون العمل به ويجتهدون في ان يكملوا دراسة الكتب ومايتعلق

بها من طرق تحصيل العلم ولا يتبعون ذلـك بالعمل على ان معرفة شيء والوصول الى مجرد علم لا يحمل فضلا وكرامة كبيرة فان الشيطان عالم كبير لكنـه يهدي بعلمـه الى طرق الضلال ويجر اكثر الناس الى معصية الله ، انه حوى علم التغيير وأحاط بعلوم الشريعة الاخرى ولكنه يستعين بهذه العلوم في إضلال الناس فلو لم يكن يعلمها لما عرف كيف يضل أولئـك الناس الذين يحيطون بهذه العلوم ولكن الشيطان اذ لم يعمل بعلمه ، ولن يأتمر بأوامر الله التي تستنبط من هذه العلوم لم ينفعه علمه ولم ينتفع بعلمه غيره كذلك وقد جاء في الحديث « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » ما معناه أن العلم الذي لا يتلوه عمل يكون سببا الى دخول النار .

فالحاصل ان العمل قد قلّ اليوم وندر وانه لا يوجد في أكثر الاحيان الا صورة لا حقيقة فيها أو جسمـا لا روح فيه وقد أصبح دأب الناس أن يرتجلوا العمل وبصورة غير مستقيمة رغم انه يجب عليهم أن يحسنوه ويزيّنوه .

من معاني الاحسان

« خذ الصلوات مثلا فانها لم تبق الا قياما وقعودا وركوعا وسجودا وهي حركات خاصة فرضت في الصلاة والناس يزعمون اذا أتوا بهذه الحركات انهم حققوا الواجب عليهم من صلاة حتى أن حملة العلم الديني أنفسهم قد وقعوا في هذا الخطأ ، وذلك

أمر جسيم يجب التفطن له ، فقد جاء في القرآن (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) تشتمل الآية على مدح الصلاة مع الخشوع فكيف يجوز للناس ان يجرّدوا الصلاة عن الخشوع ويروها حكما شرعيا ولا يروا الخشوع كذلك مع أنه يظهر من الآية أن الجانبين كليهما من صلاة صورية والخشوع فيها واجبان مهمان والخشوع يزين العبادة ويرفع درجتها وليست درجة « الاحسان » في التصوف إلا مستقاة من هذا الجانب العملي :

ونواحي الاحسان ثلاث ضرورته وحقيقته وطرق تحصيله

وقد علمنا سابقا ان الاحسان يحصل من الخشوع وترمز آية (قد أفلح المؤمنون) الى أنه مقصود وغاية واما ضرورته فتتجلى من قوله تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) تشير الآية الكريمة مع ذكر الله الى أهمية الخشوع فيه وضرورته ، وذكر الله يتضمن جميع العبادات ، والوعيد الذي يحصل من هذه الآية يترتب على انتفاء الخشوع وهو تشبيه أولئك الذين لا يوجد فيهم الخشوع باليهود والنصارى والتحذير من ذلك حتى لا تتفق أعمال المسلمين مع أعمال الكفار ، ونتيجة كل ذلك كما ظهر من الآية

هي قسوة القلب حيث قيل (فقست قلوبهم) وهذه القسوة القلبية من أبغض الاشياء الى الرجل المسلم .

اذ جاء في القرآن (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه إن القلب القاسي بعيد من الله قاص .

أحكام اصلاح الباطن

وقصدنا من هذا التفصيل والتدقيق هو ان نقرر أن أحكام اصلاح الباطن وتزكيته مرتبة منسقة كذلك دونها فقهاء الباطن وهم شبيهون في ذلك بفقهاء العلم الظاهري الذين استنبطوا من القرآن والحديث الاحكام الشرعية المختلفة والاعمال الظاهرة المتنوعة وجعلوها علوما مضبوطة مقررة انما نريد أن نقرر هنا ان علوم الباطن هي كذلك جزء من الشريعة الاسلامية مثل العلوم الظاهرة بعينها وهي تنبع من صميم الشريعة كما ان العلوم الظاهرة تنبع من صميمها ولذلك لن يكون الرجل الذي يجهل الفقه الباطني ويكرهه رجلا عاديا يبدي جهله لعلم ما ويكرهه بل انما يكون رجلا يحرم نفسه حقيقة الدين ولبابه ويمنع نفسه عن الكمال الديني ودرجة « الاحسان » .

الحاجة الى التربية واصلاح الباطن

« ولاجل ذلك يجب ان يدرس الناس كتب التصوف مثل

كتاب « قوت القلوب » لابي طالب المكي وكتاب « الاربعين » للامام الغزالي و « العوارف » لشهاب الدين عمر السهروردي كما يدرسون كتب الفقه الظاهري من « كنز الدقائق » و « الهداية » وغيرهما ، ومن الظلم والجور العظيمين ان تنفق في تحصيل العلم الظاهر سنوات عديدة ولا تبذل لاصلاح الباطن عدة اشهر لقد كان واجبا أن نبذل ولو مدة قصيرة في اصلاح الباطن ومعرفة طريقه بأن يلتمس الطالب رجلا صوفيا فاضلا نزيها في أخلاقه وعوائده فيصحبه ويشاهد حياته مفصلة ويدرس سيرته ، يراه في عبادته ويراه في غضبه ويراه في وداعته ويرى هل يؤثر فيه التملّق والخديعة ويدرس جميع صفاته واخلاقه حتى يتذكر هذه الاخلاق عندما تواجهه مناسباتها في حياته هو نفسه فيتمثلها ويتأسّى فيها » .

انك ترى كثيرا من الزعماء المسلمين سواء كانوا قوميين أو سياسيين لم يُحصّلوا علم الدين بتاتا وإن حصّله أحدهم فلم يترب على يد مربٍّ مصلح فاضل ولذلك تجد هؤلاء الزعماء أنهم مع تظاهرهم بالعناية بالاسلام وأهله تجار الدنيا وباعة المادة ، الدنيا لديهم كالسلعة يساوم قيها ويتاجر بها لكن بدون صراحة يكون ذلك مقنّعاً بغلاف الدين ويجري ذلك في مجالات مختلفة من علمية وغير علمية في الحياة .

لئن كان مجرد العلم يكفي لعلو مكانة الرجل وتقربه الى الله ولاصلاح الناس واكمال الدين لما كان للصحابة رضوان الله

عليهم أجمعين مكان سام ودرجة عالية في الاسلام ولما كانت لهم فضيلة بالنسبة الى من جاء وآمن بعدهم من كبار علماء الامة لكن شتان بينهما في علو الدرجات وسمو المكانة ، ان فضل الصحابة وجلالة أقدارهم على من أتوا من بعدهم حقيقة لا شبهة فيها وأمر لا جدال فيه مهما بلغ المتأخرون من الفضل وغزارة العلم ، والشهرة في الفقه والحديث ، وان كانوا أولياء الله وأقطاب الدين ليس الفرق بينهم الا لان أولئك الصحابة أفنوا نفوسهم في صحبة أعظم رجل وأكمل انسان في الوجود ، وهذا يظهر من تلقيهم واستهتارهم بالصحبة فقيل لهم صحابة الرسول عليه السلام وهذا سر عظمتهم وسموهم الذي لا يضاهى .

ثم ان هؤلاء الزعماء حملوا ألوية مختلفة في اللون متعددة في الوضع وشكلوا جماعات مختلفة ودعوا اليها المسلمين باسم الاسلام وكان يجب على هؤلاء الزعماء أن لا ينسوا ان نعيقهم ودعواتهم بهذا الطريق لا تكون الا كصدى في الجبال لا تجد لها أذنا صاغية ولا سمعا واعيا ولن تكون الا هراءا لا روح فيه ويجب أن يعرفوا أنهم في حاجة الى ترجيح جانب القلب والباطن واختيار طريق التصوف ولا غرو في ذلك اذ الآية التي يتلوها كل واحد منهم في بث حركته ودعوته (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ) ، لا توحي الا الى هذه الحقيقة ، يعني أن الرقي والتقدم المادي والسياسي والظاهري لا يتأتى حسب قانون الكون والطبيعة

أو سنة الله بدون تغيير الباطن واصلاح النفس حيث ان كلمة « حتى يغيروا ما بأنفسهم » لا معنى لهـا الا التحول الباطني والقلبي •

والماديون يؤمنون بهـذا كذلـك لكن بأسماء مختلفـة وبطرق مغايرة لطريقتنا ، اذ يعتقـدون بآن الجنود المسلحـة بأحدث طراز ، المدربة بأقوى طرق اذا فسدت أخلاقهـا فـلا تجديها أسلحتها ولا ينفعها تدريبها :

وليس بعامر بنيان قوم — اذ أخلاقهم كانت خرابا

الدنيا لا تحصل كذلك لغير المتصوف

يجب ان يعرف المسلمون اذا كانت قلوبهم مهيآة لفهم ذلك أنه لا حظ لهم من الدنيا كذلك اذا لم يتمكن في أعماق نفوسهم التصوف الذي معناه الايمان الخالص فضلا عـن الحظوة في الدين ، ويوجد تفصيل ذلك في كتب الشيخ •

وفي الزمن الذي كان المسلمون فيه حاملين حقيقة الايمان وكانوا أصحاب حظوة وفضيلة في الدين والدنيا معا لم يكن لديهم في ذلك الزمن من أسباب المادة ووسائل التقدم الظاهري كبير شيء وانما كان يكفيهم في الاحوال التي يحتاجون فيها الى القوة والنصر اجتماع قلوبهم وسلامتها وصمودها في وجه الاعداء في الوقت الذي كانت قلوب الاعداء شعاعا متفرقة حيث يقول القرآن (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ

بأتَهُمْ قَومٌ لا يَعقِلون) تشير الآية الى ان العقل يحمل أيضا على اجتماع القلوب واخلاص الباطن وهـذا هو الذي ينفع ويجدي لا مجرد الوحدة الظاهرة والوفاق الشكلي •

لا صلاح بغير التصوف

« فالتصوف لا يمكن أن يصلح بغيره الامر لان أول شيء في طريق التصوف هو تعليم التواضع وعنوانه في التصوف « الفناء » يرى الناس أن هذه المرحلة من آخر مراحل التصوف لكنها بالعكس من ذلك أول مراحله ، والفناء درجات ، ولا يقدر احد ان يسير في الطريق خطوة واحدة بدون اختيار « الفناء » مهما رتّل أورادا وأذكارا ومهما أطال ذلك ، « يقولون ان الجلوس في خلوات العبادة لا طائل تحته ولا فائدة منه وانما يجب الظهور والخروج الى العالم فأقول ان الخلوات هي التي يتدرب فيها الرجل ليستطيع ان يخرج الى الميدان، ومثل ذلك مثل المذياع يعمل في حجرة ينفث من فمه ما يثير به العالم كله ويزلزله ، وأذكر بهذه المناسبة أن سيدنا سعد بن أبي وقاص كان قائدا في حرب وكان يعاني من دمّل منعه من الحركة والعمل فاضطر الى الجلوس في خيمته التي نصبها لنفسه لكنه مع كل ذلك كان يرشد المحاربين ويشرف عليهم من خيمته وهم في حومة القتال •

وحينما نجد في حياة الانبياء عليهم السلام وبالاخص في

حياة رسولنا عليه الصلاة والسلام أن الخلوة أو التحنث في غار حراء يتقدم على معركة بدر وأحد فأي مبرر لأتباعهم لتخطي هذه المرحلة والإعراض عنها ، ذكر الشيخ في صدد حديثه حول المرحلة الفنائية من التصوف حادثة ميدانية كبرى وهي « حبس أبي محجن الثقفي أثناء معركة كانت تدور بين المسلمين والكفار عقابا على أبيات قرضها في الخمر ورأى أبو محجن أن رستم قائد جيوش الكفار قد استولى على عدة محاربين من المسلمين وقتلهم فهاجت غيرته الاسلامية وثارت ولكن السلاسل منعته من الحراك ولم يتمالك حتى تضرع الى زوج سعد قائد المسلمين طالبا اليها ان تفك أسره حتى يقضي لبانته ويشفي ما بنفسه من الغيرة الاسلامية وتعهد لها أنه حينما ينتهي من عمله يرجع الى السلاسل وان قتل في الحرب فلا بأس في ذلك لانه مجرم يعاقب وأي عقاب اكبر من القتل ، قبلت زوجة القائد طلبه وأطلقت أساره فبرز في الميدان وقاتل قتالا شديدا وهو مقنع الوجه خوفا من ان يراه القائد ثم رجع الى حبسه ولبس سلاسله وقيوده طائعا راضيا ، هذه القصة تدل على محافظة القائد الشديدة على تطبيق الاحكام الاسلامية حتى في الاحوال الخاصة من حرب وقتال كما أنها تدل على ايمان المسلمين وإيثارهم وحبهم لدينهم حتى ولو كانوا في العقاب والحبس ولا غرو في ذلك فان اولئك قد كانوا طالبين لرضا ربهم الى أقصى درجات الطلب ولم تكن تعوقهم في ذلك مصلحة ولا أثرة ما .

نكتة غريبة نادرة

يحدث الشيخ ردا على النظر الخاطىء في هذا الصدد فيقول :

« يرى الناس ان الموت في القتال مستشهدا هي غاية المسلم المقاتل مع أن هذه الفكرة خاطئة لان المطلوب من المسلم المقاتل ان يكون قاتلا لا غير وأما ان يكون مقتولا فهو لانه يبذل أقصى جهده في سبيل ان يكون قاتلا فما دام يجتهد لذلك فاذن إن نزل عليه الموت فلا بأس به » .

اني أطلت الكلام في هذا الصدد لكني كنت مضطرا الى ذلك لاهمية المبحث الذي شرعت فيه وهو ازالة شبهة كانت وقعت في أمر « تصوف الخلوة » بحيث كانوا يستهينون به ولم تكن استهانتهم هذه الا لسفاهتهم وجهلهم فحاولت ان أصرح لانصار فكرة الظهور في الميدان المتلاعبين في أمر الدين أصحاب الزعامة والسياسة أن البروز في الميدان وبذل المهجة في سبيل الله لا يصلح كذلك الا بالتصوف فكان كل ذلك شرحا لحقيقة كبيرة من التصوف الاسلامي .

سبب النفور من التصوف

وبعدما أوضحنا حقيقة التصوف وأثبتنا أهميته الشديدة بأنه لباب الدين وكمال الاسلام وأنه اذا انتفى من حياة رجل مسلم مع أنه مسلم فقد انتفت من حياته حسنة الدنيا وابتعدت عنها ابتعادا .

ولا ينفر من التصوف رجال الدنيا فحسب بل انما ينفر منه بعض كبار رجال الدين ايضا ، انهم يرون التصوف غير الدين، ويظنون طريقته مخالفة للشريعة الاسلامية ، ثم يستنكرونه ويتوحشون منه ، والسبب في ذلك هي صور خاصة ومظاهر مختلفة مما تظهر من حقائق الصوفية ومعارفهم وأفكارهم وأعمالهم ومجاهداتهم ومراقباتهم واحوالهم وكيفياتهم وتلقينهم وتصرفاتهم وكشوفهم وكراماتهم وزهدهم في ملاذ الحياة وفي العلائق وبيعتهم ونسبتهم وطقوسهم وعوائدهم الكثيرة مما لا يجدونها في نصوص الكتاب والسنة وفي معانيهما عامة ، فشاع بين الناس أن حقيقة التصوف وأصله ينبعثان من هذه « البدع » .

وأوضح الشيخ المجدد التهانوي حقيقة التصوف وأصله ورفع الستار عن هذه الحقيقة الكبرى بكلامه القوي بما تظهر به عبقريته في ذلك ، فقال ان التصوف عنوان للاحكام التي تعالج الباطن والقلب ، كما تعالج أحكام الفقه الحياة الدينية الظاهرة ، وأن احكام التصوف منصوصة في القرآن والحديث مثل أحكام الفقه وبذلك لم يكن التصوف الا « التعليم » . وثار الشيخ بعض الاحيان على هذا الاصلاح فقال « نحن لا نعرف الرهبانية ما هي ؟ لسنا الا طلبة علم « ومعلمين » لا غير ، انما نلقن العمل بالقرآن والحديث ويحصل منها الشيء الكثير لمن يحصل بل ويحصل منهما ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر من أمثالنا ، مع أنــه اذا رآه الرجل الذي هام بالمقامات والكرامات والاحوال والكيفيات لم يجد فيــه هتافا وصيحات .. ولا الجذب والواردات ولا السكر والكيفيات ولا الكشوف والكرامات ، انما هو اسلوب بسيط لا غير ، كسمك البحر يكون مالحا ولا يحتاج الى ان يضاف اليه الملح عند الطهي ، وحينما يطبخ ويؤكل تظهر ملاحته، فهكذا عندنا يوجد « الملح » لكنه ليس للنضج بل انه موجود في الداخل ولا يظهر الا حينما يكمل الشيء ويجري في العمل ..

★ ★ ★ ★

الأذكار والأشغال والمجاهدات

الغايات والوسائل

يرى الشيخ المجدد التهانوي أن اعمال التصوف من أذكار وأشغال ومجاهدات ومراقبات وغيرها التي تبدو كأنها لم تذكر في القرآن والحديث ولم تستنبط منهما ، يرى الشيخ أنه وقع أنصار التصوف ومعارضوه في صددها في خطـأ مشترك أن ظنوا هذه الاعمال من غايات التصوف وأهدافه مـع أنها في حقيقة الامر وسائل ومقدمات وآثـار وثمرات وليست مـن أهداف التصوف بتاتا فلا يصح أن تدعى أعمالا مبتدعة فـي الشريعة الاسلامية ، لان البدعة ليست الا إحداثا في الدين بحيث يضاف الى الدين ما ليس منه ويعد من غاياته ، اما ان يحدث أمر ما في سبيل الدين كوسيلة جديدة من وسائل الدين فتكون عونا في تحصيل غاياته والبلوغ الى أهدافه ويجرب ذلك كما تجرب أدوية جديدة يرى أنها قد تنفع في العلاج او كما تختار وسائل جديدة مبتكرة نافعة في الطب او في الدين نفسه حيث تفتح المدارس وتنشأ المكتبات وتطبع الكتب على الاحجـار والحروف الرصاصية وتقرر مناهج مختلفة للتدريس والتعليم

وتمنح الشهادات فلا يكون ابتداعا بل يكون إحداثا وتجديدا ينفع الدين ولا يضيف اليه ما ليس منه ولن يسمى ذلك بدعة ولن يلتمس في الكتاب والسنة ليكون وجوده في أي واحد منهما مبررا لكونه غير محظور .

ومثال ذلك الخشوع في الصلاة فقد ورد في القرآن الكريم «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» وحضور القلب في الصلاة فقد ورد في الاثر (لا صلاة إلا بحضور القلب) فانهما مقصودان ومأمور بهما ، كما يدل على ذلك النصّان من الكتاب والسنة ، وبعد ذلك اذا علمنا بالتجربة أن طريقة خاصة أو وسيلة من الوسائل من ذكر أو شغل أو مراقبة وغيرها تعين في الوصول الى هذين المقصودين ولم يرد في الشرع عن اختيار هذه الطريقة والوسيلة ولم تذكر كراهة فيها، فاذن لن يكون اختيارها والعمل بها ولو مقتبسة من غير المسلمين بل ومن أعداء الدين الا مثل استخدام البندقية والرشاشات وما اليها في الحرب ، على أن استعمالها مقتبس من غيرنا مكان السيوف والرماح التي كنا نستخدمها في القرون الماضية .

انه يوجد لدى الصوفية ذكر خاص ويسمى « ذكر النفس » وقد عم هذا الذكر فيهم وسئل الشيخ التهانوي عن هذا الذكر فرد بما يلي :

« انه من أشغال التصوف ويحصل به الانقطاع وتبعد به الوساوس وللذكر طرق متنوعة يجب أن يختار منها كل واحد

منا ما تناسبه وتطمئن اليها نفسه ، أما اجتماع القلب فليس هدفا ولا غاية بذاته لكنه من أسباب الوصول الى المطلوب ، والذي لا شك فيه أن الاسباب لها تأثير قوي في الغايات ولذلك وضع الشيوخ للغايات مقدمات وتمهيدات وأعظموا هذه المقدمات عمليا مثلما أعظموا الغايات » .

واكبر دليل على كون هذه الاعمال مقدمات وتمهيدات دون ان تكون غايات هو أنه لا يلزم ولا يجب اختيار رأي واحد منها والعمل بها دون غيرها ، قال الشيخ مشيرا الى ذلك « اما امر اختيار أي واحد منها فللطالب أن يختار منها ماتناسبه وتلائمه ويهدأ اليها باله ويجتمع بها خاطره وكون جمع الخاطر وانقطاعه الى جهة واحدة، انما هو من الاحوال المطلوبة والنافعة، اذ علمته تجريبيا وفنيا لم يكن قلبي في اول الامر يطمئن الى ذلك حتى وجدت فيه نصا ودليلا شرعيا ، فقد أفاد الحديث بأنه اذا حضرت الصلاة وحضر الطعام والانسان يشعر بالجوع فليقدم الرجل الطعام على الصلاة القائمة ، والسر في ذلك أنه اذا صلى قبل تناول الطعام فلا يؤدي صلاته الا بتشتت من خاطره ووسواس في قلبه وبدون اجتماع لباله أما انه اذا أتى بكل ذلك بالعكس فتكمل صلاته بطمأنينة وانقطاع وتجرد واخلاص وانه اذا تناول الطعام قبل الصلاة فلا يتناول الا مستعجلا مشتت البال متفرق الخاطر لان خاطره طيلة تناوله لطعامه يكون متجها الى الصلاة ، ذكر ذلك الامام ابو حنيفة

بطريقة طريفة حيث قال (لان يكون أكلي كله صلاة خير من أن تكون صلاتي كلها أكلا) وكانت طريقة الشيخ إمداد الله في هذا الصدد هي أنه اذا سمع أحدا يريد الهجرة الى مكة المكرمة ويتفرس الشيخ فيه أنه لن يكون خاطره مجتمعا في مكة المكرمة كما كان مجتمعا في الهند لم يكن يأذن له بالهجرة الى مكة المكرمة ، ويقول له « لان يكون قلبك في مكة وجسمك في الهند خير لك من ان يكون قلبك في الهند وجسمك في مكة ».

سبحان الله ما أعمق هؤلاء الصوفية المحققين نظرا ، واصدقهم بصيرة ان نظراتهم لتنفذ الى ما في لباب الكتاب والسنة والى أعماقهما .

« فجميع الاشغال التي يختارها الصوفية انما هي لجمع الخاطر واخلاص البال وليست مطلوبة ولا غاية ولذلك توسع في اقتباسها الصوفية وتوسعوا الى حد أنهم أخذوا بعضها من اليوك مثل حبس النفس اذ هو من أعمال اليوك ، لانهم وجدوا ذلك مؤثرا ونافعا لجمع القلب وهو ليس من شعار أهل اليوك فاقتبسوه منهم ولا ضير في ذلك وليس بمنهي عن ان يتشبه الرجل في مثل هذا مع هؤلاء الذين لا يعترفون بالدين الاسلامي، لان العمل الذي لا يعد شعارا لفرقة او ديانة ما لا بأس في اختياره واخذه كوسيلة من الوسائل لا كغاية من الغايات، والشريعة الاسلامية لا تنهى عن ذلك ولما كان حبس النفس وسيلة من الوسائل لنفي الوساوس والخطرات المشتتة كتدابير

طبية يعالج بها الطبيب ، صح اذن اختياره بحيث كان ذلك اختيارا لوسيلة دون شعيرة » .

« والحجة في ذلك ما وقع يوم الخندق اذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد ان يمنع المدينة المنورة ويحوطها بسياج من المناعة والحماية ،فأخبره سيدنا سلمان الفارسي بأن الفرس يحفرون الخنادق حول بلدانهم ليحموها من غارات العدو فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأي وامر بحفر الخندق حول المدينة وعاون بنفسه صحابته رضوان الله عليهم أجمعين في حفر الخندق فلما لم يكن حفر الخندق شعارا للفرس بل انما كان تدبيرا ووسيلة لحربهم أذن النبي صلى الله عليه وسلم باختياره ولم ينه عنه » .

اكثار الذكر

أما الذكر الذي يلح الصوفية في الحض على اكثاره وادمانه حتى الشيخ التهانوي هو نفسه كتب عن ذلك في كتابه «قصد السبيل » ان التصوف درجتان ، والدرجة العليا منهما هي التي يكون صاحبها مؤمنا بالذكر مستديما له ، مع العمل بالطاعات المستحبة التي تتعلق بالظاهر وقد وردت نصوص عديدة في القرآن والحديث تحض على ادامة الذكر وادمانه فقد ورد (أذكروا اللهَ ذكراًكثيراً) كماورد (الذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قياماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ) لا تدل الآية على اكثار الذكر فحسب بل على إدامته أيضا ولا يوجد للرجل الا ثلاث هيئات

إما أن يكون قائما وإما قاعدا واما يكون مضطجعا، فاذا لم يفته الذكر في هذه الهيئات الثلاث فكأنه ذكر الله في جميع الاحوال، نائما ومستيقظا ويستدل من اصطلاح ادامة الذكـر ان يقوم صاحب الذكر بالذكر واقفا وقاعدا ونائما ومستيقظا •

والذكر القلبي يمكن ان يستنبط من هذه الآيـة لان المرء يشتـغل في قيامه وقعوده واضطجاعه بشئون اخرى، مما لا يجتمع معها الا ذكر القلب وبالاخص حينما يكون المرء مضطجعا كما لا يخفى أن النوم كامن في كلمة «على جنوبهم» ، وقد نصت آية (لا تُلْهيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله) على اتصال ذكر القلب بالتجـارة والمعامـلات لانها لا يمكن ان يصحبها الا ذكر القلب •

واني أرى أن الذكر الذي ثبت في الكتاب والسنة ، ليس الا ذكر القلب لان كلمة الذكر انما يراد بها في معناهـا اللغوي وصول الفكر والذهن الى أمر قد انقضى في الزمان الغابـر واستعادته الى الذاكرة ، أما أن تذكر أمرا ما ، فمعناه ان ترسل فكرك وذهنك اليه وتتصل به اتصالا ذهنيا ، وحينما يريد المرء أن يذكر امرا منسيا فمعناه أنه يوجّه ذهنه او قلبه اليه ويلتفت بهما اليه ، وفي كل هذه الاحوال يجب عليه ان يعبر عن كل ذلك بلسانـه •

ويرمز ذلك الى ان الذكر ليس الا تذكر امر ما بالقلب او الالتفات بالقلب اليه بغير أن يظهر ذلك باللسان ، غير أن تأديته

والتعبير عنه باللسان وسيلة وعلامة للالتفات من القلب ولذلك اذا ذكرنا صديقا مات أو قريبا توفي بدأت تفد الينا ذكرياته الماضية من أواصره وعلاقاته ، ويلتفت قلبنا الى هذه الاحوال المغمورة ، فإن الاذكار المأثورة التي تذكّر بالنعم الالهية وبالمشيئة الربانية والتي وردت لاحوال القومة والقعدة والنوم واليقظة ولمناسبات التزاور والمقابلات ولاحوال الهم والارتياح والمرض والصحة ، وللعيادة والرثاء والمآدب ومناسبات الوداع، وللركوب والسفر وغير ذلك لم تؤثر ولم تعلّم بها الا لانها تجدد ذكر العلاقة الوثيقة التي نشأت بين العبد وربه ، مثل الذكر الذي ورد بعد الطعام (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين) وما يقال عند اللباس (الحمد لله الذي كساني ما أواري به سوأتي ، وأتجمل به في حياتي)فحقيقةهذه الاذكار هي ان تتعلم ونستحضر في نفوسنا أنه لا يطعمنا ولا يسقينا ولا يكسونا ولا يرزقنا الا الله ، أما الوسائل والذرائع التي نعالجها للوصول الى هذه الاغراض في ظاهر الامر فليست الا تدابير ظاهرة لا علاقة لها بصميم الامر ولبابه .

كتب طالب الى الشيخ التهانوي يشكو اليه فقد ميلهوأنسه بالذكر الذي تعود طلاب التصوف معالجته وكتب أن فضل الله مع ذلك لم يتركه بل انما يتسنى له في جميع شئون الحياة أن يتذكر قدرة الله من فعله وحكمته وارادته ،ويستحضر كل ذلك في ذهنة مهما كانت طريقة ذلك الاستحضار والتذكر ويزيد

انتفاعه قدر تذكره لمشاهدة الله ، فرد الشيخ التهانوي على هذا الطالب بما يلي « هل ترى ذلك نعمة ليست لها قيمة كبيرة ، ان الله قد رزقك ما يعد غاية وهدفا في هذا الصدد ، والذي ليست الاذكار والاشغال كلها التي تعودناها الا مقدمات وتمهيدات له فاذا حصلت لك الغاية فطلبك للمقدمات ليس الا كما يرزق رجل طعاما مطبوخا معدّاً فيقول إنه لن يرضى الا بعدمايطبخه ويعدّه بنفسه » .

وقد جعل الشيخ التهانوي شغل الباطن بإدامة الذكر واجبا للوصول الى الرتبة العليا في التصوف ، والمراد منه هو التفات القلب والذكر الباطني ، حيث يستقر ذكر الله في القلب ، فيكون رضا الله وعتابه ومحبته وجلاله وعقابه وثوابه نصب عينه في أحوال الحياة كلها ، من حركات وسكنات ، وبعد ذلك يجب على المرء أن لا يقع في المعاصي وان لا يتعمد ذنبا سواء كان صغيرا او كبيرا الا لغفلة بشرية او عند النسيان ، وأوضح الشيخ هذه الحقيقة في موعظة له تسمى بأكبر الاعمال ، عدّ الذكر فيها من أكبر الاعمال يقول فيها « إن الذكر حقّ الذكر ، هو ما يحمل على الاجتناب من جميع المعاصي ويحض على الإتيان بجميع الاعمال الحسنة » .

« يظن الناس بعد ترديدهم لكلمة « الله » مئة الف مرة أنهم أتوا بالذكر مع أنهم لم يأتوا بحقيقة الذكر بل انما أتوا بصورة الذكر وبأثر من آثاره ، لانهم لو كانوا أتوا بحقيقة الذكر لم

تخل حياتهم من الاعمال الحسنة الاخرى ، بل ونجد أن كثيراً من الذين يرددون كلمة « الله » مائة الف مرة لا توجد فيهم الاعمال الاخرى بتاتا » ٠

وعن ذلك وقع كثير من الناس حتى علامة الصوفية وبعض المحققين منهم في خطأ كبير ، اذ ظنوا ان الذكر باللسان لفظا أو الذكر القلبي المصطلح فيهم هو الذكر المأمور به حقيقة ، ويقولون في ذلك إنه عمل القلب ٠

لذلك يجب علينا أن نفهم حقيقة الذكر ونمعن النظر فيما يقول الشيخ فانه يتحدث عن ذلك في موعظته نفسها فيقول :

حقيقة الذكر

أضرب لكم مثلا فافهموا ،لعلكم سمعتم أن بعض الاشراف كذلك يميلون الى بعض الجرائم مثل السرقة وما اليها فانهم يسرقون لان نفسهم ترغب الى السرقة ولا يكون ذلك لان السرقة مهنتهم ، بل لانهم في حاجة اليها ، والحاجة شر حالة للانسان ، فهي قد تضطر الرجل الى أسوأ خلق وأقبح عمل وهذه طائفة من الناس فاعرفها ٠

أما طائفة اخرى فهي لا تقترف السرقة وان كانت في حاجة اليها بل ولو كانت في حالة عدم وإملاق ولا تقصّر في دفع ما عليها من الضرائب والاتاوات وان اضطرت الى بيع عقاراتها ومواشيها حتى ولو دهمتها مصيبة الفاقة والجوع » ٠

لِمَ هذا الاختلاف الهائل بين الطائفتين ؟ ! ولِمَ تأتي أولاهما بجريمة السرقة والنهب ، والاخرى لا تأتي بها بل وتدفع ما عليها من ضرائب وأتاوات كذلك ؟ ! مع أن كلتيهما في بلية واحدة من فاقة وحاجة وعدم ، وكلتاهما سواء ؟ !

ليس السبب في ذلك الا ان واحدة منهما تذكرت شيئاً والاخرى لم تتذكره ، يعني الخزي والعار الذي يلحق الرجل بعدما يعاقب ويحشر الى الحبس على جريمته ، فاعرفوا أن حقيقة الذكر هي هذا يعني تذكر شيء • أما مجرد معرفة شيء فلا يعد تذكرا ، لان المعرفة كانت حاصلة للطائفةالاولى،وكانت تعرف أن اقتراف الجريمة انما يتلوه العقاب ، لكنها لم تستحضر ذلك في ذهنها ولم تلق اليه بالا فلم تتمكن من الامتناع من الإثم بل انما امتنعت منه الطائفة الاخرى التي تذكرت وأوسعت الامر بالتفكير والاستحضار ، ولذلك لم تجرؤ على اقترافه الجريمة •

خطأ كبير

نفى الشيخ ودحض خطأً كبيرا وقع في فهم بعض الناس وهو انهم يحسبون ذكر الجنة والنار غير داخل في باب التصوف فضلا عن أن يروه في درجة الذكر الحقيقي، يقولون كيف يسعهم أن يصرفوا عنايتهم عن الذات الإلهية الى الجنة والنار ،يقولون ذلك لانه خفي عليهم أن ذكر الجنة والنار هو عين العبادة ولقد كان الانبياء عليهم السلام كذلك غير ساهين ولا غافلين عن

ذلك مع أنهم لانقطاعهم الى الدعوة والعمل ربما يكونون معذورين اذا سهوا عن هذا الذكر ، يتحدث الشيخ عن ذلك فيقول :

« وقد يقول رجل أن معنى ذلك ان ذكر الجنة والنار وذكر الله هما عمل واحد مع أن هذا ذكر الجنة والنار وذلك ذكر الله وهما في الحقيقة مختلفان فكيف يصح أن نجعلهما واحدا لكني أرد عليه أن ذكر ثواب الله هو ذكر الله ، كما ان الناس يعتقدون ويفهمون ان ذكر القانون هو ذكر ما يليه من الحبس والعقاب اذا خولف » .

ذكر الله درجات

ومما لا شك فيه ان لذكر الله درجات مثل ما يكون في الحياة الاجتماعية ، مع ان بعض الناس انما يمنعهم من اقتراف الجريمة أن يذكروا الحاكم فحسب وهم لا يحتاجون في ذلك الى أن يذكروا الحبس والعقاب اذا خالفوا أمر الحاكم ،ومنهم من لا يقترفون الجريمة ولو قيل لهم أنهم غير مأخوذين اذا أتوا بالجريمة لما بينهم وبين الحاكم من الاواصر والعلاقات التي تمنع من العقاب . فبعضهم يمتنع عن الجريمة لانه يخاف سخط الحاكم وبعضهم يمتنع لان الحياء والخجل يصده عن ذلك ، ومنهم من ليس أمره في هذا الصدد أمر الحياءوالخجل ، بل انما يمنعه عن الجريمة شيء آخر لا نستطيع أن نسميه باسم وهي صلة خاصة لطيفة عالية :

كذاك الودادالمحض لا يرتجى له   ثواب ولا يُخشى عليهعقاب

وإن سمَّيناها باسم لسمَّيناها بالعلاقة الذاتية ، على كل حال فان التدرج لا بد منه في درجات الذكر ،ويجب اذن أن نرى ما هي الدرجة التي حللناها من العلاقة حتى نختار ما يلائم هذه الدرجة ويتفق معها من الذكر فنعالجه » .

شهادة من القرآن على كون درجات الذكر مختلفة

وأستدل في ذلك بآيات من القرآن ، وبهذا الاستدلال سنحل أيضا عقدة وقعت عند المفسرين ، يقول عن اختلاف الدرجات أن الله تعالى خص الذكر في بعض المواضع بذاته حيث قال (ولذكر الله أكبر) ووصله في مواضع اخرى بأسمائه الحسنى حيث قال (واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وتَبَتَّلْ إلَيْه تَبْتِيلاً) يقول المفسرون عن هذه الآية إن كلمة الإسم مقسم، أما انا فأقول إنه لا داعي هناك الى ان يقال عنها أنها زائدة بل انما هو الاختلاف في العنوان وعلى قدر درجات الذاكرين .

ويقول الشيخ جلال الدين الرومي متحدثا عن أهمية الاختلاف في الدرجات (يا هذا إنك لم تسكر من مدامة معرفة الذات ومحبتها فقد اقتنعت من « هو » يعني الذات بكلمة « هو » يعني الاسم) .

« وفيه اشارة الى ان درجة من درجات الذكر هي أعظم من درجة الذكر اللفظي الاسمي ، ويخبر في موضع آخر بأن

الذكر الاسمي كذلك ذو قيمة ملحوظة فالرجل اذا حرم الاول فعليه ان يغتنم الثاني ويعظمه [1] .

« أما الذكر اللساني فليس مما لا قيمة له ولو كان بدون أن يتضامن معه القلب وانه من الخطأ ان يقال ان التسبيح لا تأثير له اذا كان باللسان فحسب ، لان القلب يدور فيه خواطر الحمار والبعير ، أقول كلا ان التسبيح يحمل تأثيرا لا ينكر وكيف لا يكون فيه تأثير وقوة أو لا يحمل اسم الله تأثيرا مع أن أسماء الحلاوى والحوامض يتحلّب لها فم الانسان وتجعل نفسه شحيحة توّاقة » .

الذكر القلبي اصطلح عليه الصوفية

ثم يتحدث الشيخ عن الذكر القلبي الذي اصطلح عليه الصوفية فيقول « أحب أن أقول في كلمتي الاخرى أن الذكر القلبي المحض الذي يقترح به الصوفية على تلامذتهم خير شيء مع أنه لا يستمر ولا يدوم لزمن طويل لان الذاكر يظن في نفسه انه مشتغل بالذكر مع ان قلبه يتلفّت هنا وهناك ولذلك أقترح أنا ان يشتغل الذاكر بالذكر اللساني مع توجه القلب واشتغاله وان يستخدم لسانه وقلبه في الذكر معا فانه اذا انقطع عنه الذكر القلبي ولو لمدة قصيرة لا ينقطع عنه ذكره باللسان وبذلك لا يذهب عمله سدى بل يبقى له الذكر ولو باللسان » .

---

(١) درجة الجمع الكاملة هي ان يجمع الرجل الدرجات كلها في مواضعها، كما أُثر عن الانبياء عليهم السلام ومن تبعهم من الكاملين الوكلاء .

وبالاخص حينما علمنا أن كل عمل بُدِيء بنيّة خالصة، تظهر بركاته وتستمر أنواره ولو لم تستمر النيـة ولو ذهبت العناية بالعمل، لما ما يفقده من النورانية في ذكرنا فسببه أننا لا نحاول لتحصيل النور ولا نعتني به لاننا لو كنا حاولنـاه لوجدناه، لذلك يصح ان يقال في جواب من قال هل ينفع هذا التسبيح؟! « نعم ينفع هذا التسبيح اذا قصد حصول الأثر ».

درجات الذكر

وملخص القول ان أولى درجات الذكر هي ان يذكر اسم الله جل وعلا، والثانية هي أن يذكر ذات الله من طريق اسم الله والثالثة هي ان ترفع واسطة الاسم ويصبح الذاكـر في قدرة يمكنه معها أن يذكر ذات الله مباشرة بدون واسطة ومثل ذلك تكون آصرة المودة الشديدة حيث اذا قيل للرجل معها إفعل ما شئت فانك لن تدخل النار لا يفعل الا الخير، حتى إنه اذا قيل له افعل ما شئت فانك لن تدخل إلا النار فلا يترك الخير اذن كذلك ولا يضعف عن ذلك ولا يلين في جده وعمله للخير فقد حدث لشيخ ذاكر أنه سمع نداءً يقول افعل ماشئت فانك ستموت كافرا، فقلق الشيخ واغتم غير أنه لم يترك ذكـره وصلاته بل ذهب الى أستاذه وأخبره بذلك فقال له أستـاذه استمر في عملك ولا تقلق فان ذلك من شتائم المحبة.

لون من المحبة

كان والدي رحمه الله لا يداعب الاطفال بل كلما كانـت

تغمره المحبة بهم كان يفتل آذانهم فيبكون بذلك وكانت النساء يقلن له ما أغرب محبتك بهم ، لا تلاعبهم ولا تداعبهم ، وإنما تبكيهم لكنه كان لا يجد المتعة الا في هذا ، وانا كذلك مغرم بممازحة الاطفال حتى أني قد أغضبهم ، لكني أتمتع بدلالهم ، فافهم ، ولا محل للتشبيه أن الله يقلق أحيانا بعض عباده ولا يفعل بهم ذلك إلا لانه يحبهم ، وبكاء عباده هؤلاء وعويلهم محبب لديه • انه يحب ان يستبشر بعضهم فيضحكهم ويحب أن يبكي بعضهم فيبكيهم •

لعلك قد علمت مما فصلناه وأوضحناه أن ذكر الجنة والنار والمثوبة والعذاب ليس الا كذكر الله نفسه وان ذكر الله درجات ومن هذه الدرجات درجة حقيقة الذكر ، ويتضح ذلك من المثال الذي ضربناه من أن بعض الناس لا يجرؤون على السرقة ولو كانوا شديدي الحاجة اليها شديدي الطلب لها ، ولا يتثاقلون في دفع الضرائب التي هي عليهم لانهم يذكرون شيئا وهو العقاب والحبس وما الى ذلك ، فهكذا الذكر الذي يمنع من معصية الله ويحمل على الاستسلام والخضوع ، فالذي يكون كهذا نسميه بذكر الله ، فكل من ذكر الجنة او النار فمنعه هذا الذكر من معصية الله فكأنما ذكر الله هو ذاته ، ومن ردد « الله الله » فمنعه هذا الذكر من المعصية كان له ذلك كذكر الله هو ذاته ، ومن قام بمراقبته لذات الله فمنعته مراقبته من المعاصي كان له ذلك كذكر الله هو ذاته ، اما الذكر الذي لا يمنعه كل

هذا من معصية الله فلن يكون عمله ذكر الله في حقيقة الامر بل يكون صورة له ومظهرا فحسب ، فيجب على الطالب أن يسأل شيخا فاضلا عما يناسبه من الاذكار ، ومن الناس من يمنعهم من المعصية غرام مالي فيكون لهم الغرام المالي ذكراً ، وهذا حقيقة لعمل الذكر وانه أساس طريق التصوف كله بل أساس الشريعة أيضا •

الذكر أساس الشريعة

واليكم آيات من القرآن هي حجة لكلامنا هـذا قال الله تعالى (أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) فدلت الآية على أن المقصود من الصلاة هو الذكر وقال (فاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ) (واذكروا اللهَ في أيَّامٍ مَعْدُودات) و (فاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عليها صَوافَّ) فجاءت هذه الآيات بمناسبة الحج ودلّت على أن الذكر مأمور به في جميع الاعمال ، وهذه أمثلة للاعمال الظاهرة ، أما اذا فكرنا في الاعمال الباطنة وجدنا فيها الذكر كذلك ، قال الله تعالى (إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُه زَادَتْهُمْ إيماناً) ترمز الآية الى أن مصدر الخوف والخشية هو ذكر الله •

كل ما سقناه في هذا الصدد الى الآن كان في باب المراتب والدرجات ، أما اذا تأملنا في باب الاحوال لوجدنا عمل الذكر وتأثيره كذلك ، قال الله سبحانه وتعالى (ألا بِذِكْرِ اللهِ

تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ)[1] والطمأنينة قسمان : أحدهما هي الدرجة التي تجمع التصديق والاسلام ، وثانيهما هي الحالة التي يمكن أن نعبر عنها بالسكينة والانس . ولما جعل الله في الآية ذكره سببا للطمأنينة على وجه الاطلاق دخل في ذلك كلا القسمين ، واذا لم تستدل بالعموم فتجد المشاهدة هي نفسها دليلا لذلك لان راحة القلب لا تحصل في حقيقة الامر الا بذكر الله .

وما أتينا بالتدقيق والتحقيق في هذا الصدد الا ليتضح الفرق بين حقيقة الذكر وصورته وذلك من فوائد الشيخ المجدد العلمية وكان ذلك من الواجب علينا لانه من أهم المسائل وربما كنا أطلنا الحديث حول هذا الموضوع ، لكنه لم يكن منه بد لان الشيوخ الجهلاء قد ألحوا على الذكر الإسمي والصوري حتى خفيت في ذلك الحقيقة ، فعلى كل قد تبين مما تكلمنا فيه ان الذكر الحقيقي هو ما يستحضر فيه الذاكر من يذكره إما مباشرة وإما بواسطة الجنة او النار او غيرهما فقد قلت فيما سبق ما معناه ان الذكر والتذكر هو أن يلتفت القلب والذهن الى من تحضر ذكرياته او من تذهب اليه الخواطر .

ورمز هذا الالتفات الى الله وعلامة ذكره الحقيقي واستحضار ذات الله ، هو ان يتجنب صاحبه من ان يتعمّد معصية ، ومن ان

---

(١) ذكرت في ملاحق هذه الموعظة آيات عديدة تتعلق بالذكر .

يقصّر عن طاعته ، ولا بد من ذلك ، لانه لا يمكن أن تكون ذات الله وصفاته ، رضاه وسخطه ، عذابه وثوابه بمرأى منا ومشهد ثم لا نكترث لها ، ولا نبالي بها ، ويسمى هذا الذكر الحقيقي في حديث الرسول عليه السلام باسم « الاحسان » وهو اسم منصوص عليه في التصوف الاسلامي لدى المحققين ، وهو (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) فمما لا خفاء فيه انه اذا حصل ذكر الله هذا بحيث لا يزال الرجل في حضرة الله سبحانه وتعالى وبين يديه فلا أقل من أن يكون عذاب الله وثوابه ورضاه وعقابه بمشهد ومرأى منه فكيف يمكن اذن ان تصدر من العبد معصية او يجترىء هو على اقتراف إثم الا ان تقع منه هفوات صغيرة وزلات يسيرة .

كيف يحصل ذكر الله

الآية التي استند اليها الشيخ في موعظته المسماة بأكبر الاعمال تتضمن جزأين أولهما (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) وثانيهما (واللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُون) اما الجزء الثاني فيرمز الى أنه يجب على الذاكر اذا حصل له الذكر الحقيقي ان يضع أمام بصره أن جميع أعماله وأفعاله لا تخرج ابدا من علم الله ، وأن الله يراها ويعلمها (فانه يراك) وأيسر طريق لتحصيل ذكر الله الحقيقي ان يراقب الذاكر ويعتقد في مراقبته ان الله خبير بصير بكل ما في الوجود سواء كان مكشوفا أم كان وراء سدود وستور وقال الشيخ في الجزء الاخير من موعظته :

« أكشف لكم في هذا الصدد عن طريقة تحصيل ذكر الله وهي أن يضع الرجل امام عينيه ان الله خبير بأعماله كلها وبذلك يسهل له تحصيل ذكر الله وتتم أعماله اذ ليس القصور الذي يساور أعمالنا الا لاننا نعمل بدون نية ولا ارادة ولا تفكير فاذا بدأنا العمل بحيث قدمنا قبله النية والتفكير والثقة بأن الله يعلم كل ما نعمل والطريقة التي بها نعمل فلا يكون اذن الا أن نأتي بأعمال حسنة جميلة ، واذا قويت وتركزت هذه المراقبة تيسر لصاحبها ان يتجنب المعاصي ، ومن المعلوم أن حقيقة ذكر الله ليست هي ان يكون الذكر باللسان فحسب ، بل انما هو شيء آخر وهو ما يحصل بالمراقبة العلمية على وجه المثال. وسواء كانت المراقبة بأن الله يعرف أعمالنا كلها فاذا قصرنا فيها لآخذنا على التقصير ، أم كانت بأن المحبوب خبير بعبادتنا فاذا قصرنا فيها سخط علينا وما الى ذلك من أمثاله » .

وخلاصة القول ان الذكر الحقيقي اذا حصل من التصوف الحقيقي فلا بد اذن ان تصبح حياة المسلم كلها بتفاصيلها ذكر الله واستحضارا للخواطر التي تدور حول ذاته الجليلة وحول قدرته وجلاله مهما كانت صورة ذلك أو مظهر ذلك ، ومهما كانت درجته وسواء كان هذا الذكر لطلب ثوابه أو التجنب عن عقابه أم كان لطلب رضاه والخوف من سخطه وعقابه أم كان يدور حول ذاته هو لا غير .

أما ما يهتم به الصوفية من الذكر باللسان فغايتهم فيه كذلك

أن يستقر ذكر الله في قلوبهم ، فان لم يحصل هذا فلا أقل من أن يتحرز اللسان عن فضول القول وهجر الكلام ويزاول ذكر الله ، ثم انه اذا لم يتضامن القلب مع اللسان في الذكر فمن المأمول أن المران الذي يحصل من طريق الصوفية في توجيه القلب وحمله على العناية ، انما يتكفل هذا المران بأن تحصيل نفحات من القلب توافق اللسان وتجاريه في الاوان الذي يشتغل فيه الانسان بشئونه الدنيوية ، وقد نشاهد هذه الحقيقة في حياتنا العامة أننا اذا رددنا اسم واحد منا في قيامنا وقعودنا باستمرار فلا بد من ان تحضر أطيافه وخواطره حينا الى حين حينما يجري اسمه على لساننا ولذلك كان الشيخ التهانوي رحمه الله يعتقد أهمية الذكر اللساني وفائدته وكان يفضله على الذكر القلبي المعروف لدى الصوفية الذي هو معرض في أكثر الاحيان لان يقع فيه الذهول والغفلة والغيبوبة الصامتة .

ذكر القلب أفضل أم ذكر اللسان

سئل أحد العلماء ما هو الافضل الذكر القلبي أم الذكر اللساني ؟ فقال : ان للذكر احكاما مختلفة ، بعضها خاص باللفظ ، وهي التي نجد فيها الذكر اللساني أفضل . وبعضها خاص بالقلب ، وهو الذكر الذي لا يؤدى باللسان وانما يكون الذكر بمجرد القلب يجري فيه دائما وهذا هو الذكر القلبي وفيه الاجر كذلك ، لكنه معرض للغيبوبة والذهول . اما اذا

كان الذكر باللسان فلا بد ان يحرك القلب ليساهم معه بجهد يسير وفي ذلك استمرار الحضور مع الله .

والمقصود من الذكر القلبي في هذا المحل ذكر الصوفية المعروف المصطلح عليه الذي يدعى بجريان[1] القلب وهو يحصل بالتمرين وطريقته أن يعتني الرجل بالقلب ويلتفت اليه ثم يتصور أن ضربات القلب وخفقانه يوافق نطق كلمة الله أو كلمة لا إله إلا الله ، فيتمرن بذلك لمدة يسيرة يلتفت فيها الى القلب التفاتا يسيرا لكنه لا يستمر في الاحوال التي ينصرف فيها الذهن الى نواح اخرى ، وسأل طالب عن ذلك في كتاب له الى الشيخ ضمنه بما يأتي :

« يجري لي الذكر القلبي في أكثر الاحيان حتى أنه يجري حين اشتغالي بشئوني ، لكنه ينقطع عني حين ينصرف ذهني وانا أحاول أن يجري لي في جميع الاحوال حتى في هذا الوقت » .

فأجاب عليه الشيخ بما يلي :

« لن يبقى هذا الذكر كما تريد ، لان القلب لا يلتفت في نفس الوقت الى جهتين ، أما امتناعه فليس يحمل ضررا كذلك ، ولا بأس بالاكتفاء بالذكر القلبي اذا لم يمكن الذكر اللساني ، وان لم يكن ذلك كذلك ، فلا بد من الذكر اللساني ، وليس لصاحب

---

(١) هو ما يحصل من أكثار الذكر والاشتغال به فيشعر الذاكر أن قلبه — وان توقف اللسان واشتغل الانسان — مشغول بالذكر يسمع له دوي خفيف وضربات مستمرة .

الذكر أن يقتصر على الذكر القلبي ولو جرّ ذلك الى قلة في الذكر القلبي » .

هذا هو الذكر القلبي المصطلح فان مداره هو التخيل بأن صوتا « كذا » يصدر من ضربة قلبية « كذا » وخفقة « كذا ». واذا اقتحمت فيه تخيلات اخرى فلا يبقي ذلك غير الذكر اللساني فانه يبقى في مثل هذه الحالة كذلك .

« جاء رجل الى الشيخ ولي الله الدهلوي وقال له يا سيدي ان قلبي جرى ، فقال له : ان خفقان القلب ليس بجريانه ، انه ليس الا ان يدوم ويستمر ذكر الله في القلب . وكثيرا ما يقول الناس ان فلانا من الشيوخ ترتعد فرائصه ويضطرب لحمه فهو شيخ كامل والذين لا يتصفون بهذه الاحوال فلا يقولون عنهم الا أنهم « صالحون » غير أنهم ليست عندهم الكمالات الباطنية مع أن الحقيقة هي أن الكمالات الباطنية أشياء خفية لا علاقة لها بارتعاد الفرائص ولا اضطراب لحم الرجل »[1] .

خطأ جسيم في باب الذكر

وقع كثير من الناس في خطأ جسيم في باب الذكر إذ حسبوا أن مجرد هذا الذكر يكفي لاصلاح جميع الاعمال والاخلاق وهم أشد خطأ حينما يحتجون لزعمهم هذا بأنه قيل (أنا جليس من ذكرني) فيظنون أن هذا يدل على أن العبد يتقرب الى الله

---

(١) الرفيق في سواء الطريق ص ٧٣ .

بالذكر فاذا تقرب الى ربه فكيف يمكنه أن يعصيه أو يأبى أوامر ربه ، فاذن لا حاجة له الى وسائل اخرى لاصلاحه .

« وهذا خطأ فاحش لان وسائل الاصلاح داخلة في كلمة « ذكرني » فلا يثبت ذكر الله بدون معالجة الامراض ومداواتها إقرأ (الحصن الحصين) تجد فيه (بل كل مطيع لله ذاكر) ، فمعنى الذكر التذكر ، والتذكر يأتي من طرق مختلفة ، لا أن ينطق اسم شيء ويردده فقط ! أفيعد ذكرا أن لا يكاتب ولا يراسل ولا يكلم ولا يزور ولا يمتثل الاوامر ؟ ! كلا ، انه ليس من الذكر في شيء . أما الذكر الذي لا يصحبه الاصلاح فليس الا مثل هذا » . ، وعمت هذه الفكرة الخاطئة حتى في المشايخ العظام ، فانهم اذا أخذوا البيعة ولقنوا عدة أذكار فكأنهم انتهوا من عملهم ، فلا صد لفساد الاعمال والاخلاق ، ولا عتاب ولا استجواب ، ولا مداواة ولا تدبير ، بل واذا عرض الطالب على شيخ من هؤلاء المشايخ مرضه وطلب منه علاجه يقترح عليه ذكرا أو وردا ، اما الشيخ المجدد فمختلف عن هؤلاء في هذه الناحية ، اذ يقترح بتغيير جليل في كيان التصوف السائد ، ولذا نعد ذلك مجهودا كبيرا ، له قيمة كبيرة ، فقد جعل المؤاخذة والمداواة في الاعمال والاخلاق في الدرجة الاولى بالنسبة الى الاذكار المعروفة والاعمال والاوراد السائدة . وجعل هذه الاذكار وما اليها في الدرجة الثانية ، بل والثالثة ،

فلم يكن الحديث عنها يأتي في مجلسه الا نادرا ، اما النقد على الاعمال والاخلاق فقد كان كثيرا في مجلسه .

« سأل طالب عن ورد يكون سهلا ، أو خطة يكون العمل بها ميسورا ، ويمكن معهما للطالب أن يتقدم في الطاعات ويتجنب المعاصي ، فرد عليه الشيخ بقوله : ان الطاعات والمعاصي انما هي أمور اختيارية تحتاج الى ارادة الطالب وعزمه وجهده ، ولا تحتاج هي الى ورد ما وليست الخطة فيها الا تلك التي تكون في الامور التي حصل للرجل فيها الاختيار وهي أن يستعمل الرجل في هذه الامور قدرته واختياره ولا شيء غير هذا » .

وقال في مناسبة من المناسبات :

« ان مجرد الورد لا يكفي أبدا ، أحلف بالله أن شيوخ الاوراد المجردة لا يوجد لديهم الاصلاح ، والاصلاح لا يأتي الا باختيار طرق الاصلاح » .

فخلاصة القول إن حقيقة الذكر يعني ذكر أحد بالقلب وانتفاء الغفلة عند ذلك هي الهدف الاصيل للشريعة ، بل إنها أعلى درجات العبادة والطاعة ، وهي درجة الاحسان ، ويؤدى هذا الذكر بتخيل المذكور واستحضار ذاته في المخيلة بحيث يصبح الحال كأن الذاكر بين يديه يرى هذا ذلك ، ويرى ذلك هذا ، ان حياة المسلم كلها عبودية ، ومعنى الاسلام هو الاستسلام والخضوع التام والطاعة المطلقة ، وهذان امران

تجدهما روح تجديد التصوف عند الشيخ المجدد ، وهما العناية بالطاعة وإدامة الذكر ، او التجنب الصارم من الغفلة والمعصية. ــأما التصوف يعني الذي دوّنه الشيخ كمنهاج لطريق كمــال العبودية الخالصة والذي سماه قصد السبيل الى المولى الجليل فقد ذكر فيه بعض التفصيل .

طريق الطاعة والذكر ملخصا

« وميزان كل هذا ، وخلاصة الطريق الى الله هما أمران : الطاعة والذكر ، أما الطاعة فتزول بالمعصية ، واما الذكر فيختل بالغفلة ، ولذلك يجب على المرء أن يرى من واجبه ادامة الذكر والطاعة وتجنب المعصية والغفلة » .

أربع طبقات للسالكين

اما الاشغال والمراقبات والاحوال والوجدانيات والكشوف والكرامات والبيعة والنسبة وغير ذلك فقد أوضح حقائقها في كتابه (قصد السبيل) ويمكن تقدير ذلك بأن جعل فيه أولئك الذين يقصدونه أربع طبقات ، الاولى للعامة المشتغلين ،والثانية للعامة المتفرغين ، والثالثة للعلماء المشتغلين ، والرابعــة للعلماء المتفرغين ، ثم نهى العامة المشتغلين عن ممارســة « الاشغال » برمتها وقال (فيها أخطار متنوعة لا يحتملها الرجل العامي) ، ولم يترك العالم المشتغل أيضا بل فرض عليه قيداً وهو :

« أنه اذا كان بعيدا عن الشيخ فعليه أن لا يمارس الاشغال

الا اذا كان يمارسها فيما قبل ، في حضرة الشيخ ، وكان الشيخ أذن له بممارستها في هذه الآونة » .

اما اختيار مذهب التصوف فلا يجوز الا للعالم المتفرغ كما يدل عليه منهاج الشيخ التجديدي . والعالم المتفرغ هو الرجل الذي درس الدين والشريعة وعرفها ، ثم ليس عليه عبء التفكير في معاشه واقتصاده والاجتهاد في ذلك ، وبذلك يمكن لمثله أن لا يغترّ ببدع الصوفية الجهلة وطقوسهم ، ولا يقع فريسة لهم فيتعدى الحدود المشروعة لعدم صلاحيته لاحتمال الاشغال والمراقبات وكيفياتها ونتائجها ، دلنا الشيخ رحمه الله على حدود مركز العالم المتفرغ وأذن له مع ذلك بممارسة تلك الاشغال عند الحاجة اليها ، وقال عن الجهر والغرب في الذكر :

« الجهر ليس مقصودا بذاته ولا قربة بنفسها ، والاعتقاد بذلك بدعة وضلالة ، أما الذي ورد في الحديث الشريف : (إربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا) فلا أراه الا نهيا لهذا الاعتقاد ، وقد ذهب بعض الصوفية الى الجهر المفرط الذي يؤذي الآخرين ويقلق به النائم ويتشوش ، والذي ورد عن أبي حنيفة من النهي في ذلك فهو لهذا السبب أيضا ، وان لم يكن ذلك كذلك فليس الجهر محظورا لذاته كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه من أن رفع الصوت دليل الانصراف عن الصلاة وقراءة (سبحان الملك القدوس) بعد الوتر في السنن كذلك .

« والذي يبدو من الحكمة في الجهر أن الوساوس والخطرات قلما تلم عند ذلك لان الصوت في الوقت الذي يتردد الى الآذان يسهل للقلب أن يلتفت اليه وهذا النفع انما يحصل عند الجهر الخفيف أيضا » .

« وليس الضرب قربة من القربات بل فيه حكمة طبية وهي أن الحركة العنيفة تنشىء الحرارة ، والحرارة تولد الرقة واللين ، واللين يفضي الى التأثر ، والتأثر يساعد في الطاعة والحب الذين هما من الغايات ، فالضرب لكونه سببا للغاية ، غاية بدون مباشرة ، والاكثار في الضرب قد يفضي الى خفقان القلب ، ولذلك يجب أن لا يتعدى صاحبه القصد في ذلك » .

« كان ذلك تحقيقا علميا فيه مايحتاج الى الشرح والايضاح. هو ان كثيرا من كتب هذا الفن تحوي مع هذا الذكر على الارشاد الى هز الرقبة يمينا وشمالا ، فعليهم أن يعرفوا ان طبائع القدماء وأذهانهم كانت قوية تستطيع أن تحتمل كل ذلك بل انها لم تكن تقبل التأثير والتغيير بدون ذلك لقوة طبائعهم ولجفوتها ، ولذلك كانوا يفتقرون الى ذلك ، أما الآن فقد طرأ الضعف ، وأصبح القلب يتأثر بأدنى جهد وأقل محاولة للاشغال، فلا يحسن للطالب أن يأتي به ، لانه إن أتى به فيكون من انحراف عقله وذهنه على خطر » .

والمراقبة التي اقترحها الشيخ رحمه الله للعالم المتفرغ في ذلك المنهاج هي مراقبة الموت ، وهي أن يتمثل الطالب الوقائع

التي تقع بعد الموت من حساب وكتاب وغيرهما ، ويتصورها كأنها تواجهه وتعرض له ، والحكمة في ذلك والغاية فيه ان ينشأ حب الله بإكثار الذكر ، وينشأ البغض للدنيا وما والاها من طريق هذه المراقبة ، اما هذان يعني البغض والحب فيساعدانه في الفلاح والنجاح .

« يكفي للرجل التزام التقوى ، وهذا الذكر وهذه المراقبة ، وإن واظب عليها لقي في الآخرة جزاءا كريما وليس الوعد بالثمرات الا في الآخرة و يلقي الله في قلب الرجل علوما غريبة ومعارف قلبية وواردات عجيبة ووجدانيات مختلفة من شوق وذوق وحب وأنس ومهابة ، ويبين له أسراره وأحكامه كيف يمكنه تقوية الصلة والرابطة وتحسينها بين الله وبينه وما الى ذلك مما يتضاءل امام متعتها ملك الدنيا وتسمى هذه الشئون أحوالا وتسمى كشفا إلهيا لا يشق غباره في اللذة والمتعة ولن تجد تأثيرا في التقرب مثله » .

انما يكفي اكثار الذكر وادامته الذي نص عليه مع الاعتناء بالتقوى والاهتمام بالطاعات ، غير ان بعض الناس لا يتمكنون من احراز حضور القلب والانصراف بالكلية الى الله ولو أدمنوا الذكر لمدة طويلة فيجوز لهؤلاء أن يعالجوا شغلا من الاشغال يسمى عند الصوفية المتأخرين بشغل « الخد » يوافقهم ويلائمهم وأذكر لكم على وجه المثال شغل الخد الذي يسمع فيه أصوات ممتعة مريحة .

« بل وتصدر في بعض الاحيان أصوات لذيذة مطربة تسبي القلوب وقد تفضي بالشاغل الى الغيبوبة والالتفات الى جهة واحدة ، تزول الخواطر الاخرى لاجل الالتفات الى الشيء المحسوس الممتع طبعا ، وبذلك يتعود الذهن على العناية بناحية واحدة وبشيء واحد » .

ولما لم يكن الشغل غاية ومقصودا بالذات ورأوا أن الطالب قد تعوّد ، يصرفون هذه الملكة الى المقصود الحقيقي الذي لم يكن له ميسورا من قبل أن ينصرف اليه لانه وراء ادراك حواسه كما نبه في صدد ذلك على مغالطة كبيرة يقع فيها الطالب وهو ظنه أن الصوت الذي يسمعه عند ذلك الشغل هو من صفة الله ، كلا انه ليس من صفته حيث أخطأ بعض الناس في فهم هذه الحقيقة ، بل انه ليس صفة من صفات أي خلق من خلائق عالم الغيب ، انه ليس الا ريحا ينفذ الى دماغ الرجل وينحبس فيه فيتقلقل فيه ، أما الآثار والنتائج والظواهر التي ليست الا وليد الاذهان ينظر اليها الصوفية الجهلة والإشراقية بعين الاكبار ويزعمون أنه قد تفتحت لهم أبواب الغيب فيُبجّلونها بل ويؤلهونها ! !

« وكما ان مصدر مثل هذا الصوت هو الدماغ ترى كذلك أن الانوار والاضواء المختلفة التي تظهر وتصدر من أذكار وأشغال مختلفة ليست في أعم الاحوال الا صورا تولدت في الذهن والدماغ ، ولذلك تجد الرجل الذي لا علاقة له بالشغل

أنه إن أغمض عينيه بهذه الطريقة أمكنه مشاهدة الالوان والأشكال فعلى السالك أن لا يغترّ بأمثال ذلك ولا يعيرها التفاتة ، بل وان انكشفت له بعض الاشياء من عالم الغيب كما قد يقع في بعض الاحيان عند الانقطاع والاستغراق ، فعليه أن لا يلتفت اليه ولا يستلذّ به ، سواء كانت تلك الكشوف من عالم الناسوت ، أم من عالم الملكوت فانها جميعا غير مقصودة ولا مطلوبة ، وقد قال الشيخ المرشد الحاج امداد الله رحمه الله ان الحجاب النوراني أشد من الحجاب الظلماني انه يجب على الطالب نفيه والقضاء عليه بقوة التوحيد .

ولما كانت الاشغال والمراقبات غير داخلة في غايات التصوف وكانت مجرد وسائل وأسباب وجب أنه اذا ظهر ضررها او فسادها أن يتخلى عنها الخاصة فضلا عن العامة . ومما لا يلائم اكثر الخاصة من الاشغال شغل الرابطة وتصور الشيخ ، ومن المراقبات مراقبة وحدة الوجود ، بل وهذه تضرهم، ولذلك أصبحت متروكة كما قال الله تعالى في الخمر والميسر لما كانا حلالين « وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » .

مبدآن أساسيان لتجديد التصوف

اما اساس تصوف شيخنا رحمه الله الذي يعد بحق تجديدا واصلاحا عظيما في التصوف هو مبدأ أنه يجب التجنب فيهما في جميع الاوقات عن أمرين أحدهما الغفلة وعلاجها هو الذكر كما سبق ، وثانيهما المعصية ويرى عامة أهل الدين واصحاب

العلم الظاهري أن المعاصي هي الكبائر من الذنوب وما تقترفه جوارح الرجل ، أما صغائر الذنوب وما يخص القلب والباطن منها فلا يكترثون لها كثيرا ، ومما لا ريب فيه ان مقام المتصوف هو درجة الاحسان والشهـود ، انـه يتصور الذات الالهي ويجده مشاهدا موجودا في كل مكان وكل زمان ولذلك يحاول تجنب المعاصي كلها سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، صدرت من القلب أو اقترفها اللسان أو جترحتها الرجل .

« الغفلة تجرف النورانية والاشراق من القلب ، والمعصية تضيف الى ذلك بأن تزيده في السقوط عن التقرب والقبول عند الله ، فلا شك ان هذه خسارة كبيرة » .

ولاجل ذلك ألح الشيخ على العناية الفائقة في ذلك .

« انه يجب على المرء أنه اذا بدرت منه هفوة أو معصيـة سواء كانت قولية ام فعلية بسبب من غفلته أو خبث من نفسه فعليه ان يستغفر ربه بكل ضراعة ويندم على فعله ويتوب الى الله ، بيد أن بعض المعاصي أعظم ضررا وأكبر خطرا ، فيجب على الطالب في صددها أن يكثر حذره واحتياطه فيها وتجد من هذه المعاصي الرياء والاستكبار ، ويتولد منها أحيانـا الفخر سواء كان هذا الفخر على فضيلة دنيوية أو فضيلة دينية ،وتجد من هذه المعاصي الغيبة والوشاية والنقد والطعن والاعتراض ، وكثيرا ما يرزأ الهجر من الكلام وفضوله صاحبه ويسلب شيئا كثيرا من نور قلبه ، ولذلك يحسن لطالب الحق ان يجتنب اكثار

مخالطة الناس ، والتآلف معهم ، الا اذا مست الحاجة الى ذلك» ومن هذه المعاصي التفات الرجل الى موضع لا يجوز له الالتفات اليه برغبة او شهوة ، سواء كان هذا الالتفات بالنظر أو بخاطر يخطر بالقلب ، ومن هذه المعاصي تجاوز الحد المشروع في الغضب أو إتيانه بالغضب في غير موضعه أو تعرضه لاحد بغلظة أو قسوة » .

واذا تصفحت أحوال الصوفية الذين يجعلون الاشغال والمراقبات الفارغة التي ليس وراءها شيءغايةوحقيقةللتصوف، واذا استعرضت أحوال العلماءالذين لا يرون الذنوبوالمعاصي الا الاعمال الكبيرة الظاهرة والمقلدين ، ثم اذا رجعت الى العبارات السابقة في هذا الكتاب اتضح لك اذن أن أنصار التصوف ومنكريه ، كلا الفريقين في جهل عن التصوف وفي ضلال عن الشريعة .

النسبة الباطنية

التي أسرها وأخفاها أهلها الى أن خفيت حتى من أنظارهم "أبيّن" لك حقيقتها وأماراتها أنها ليست سوى كمال الذكر والطاعة .

« أمران هما من علائم حصول النية الباطنية ، أحدهما أن يصبح الذكر والاستحضار ملكة راسخة لا تساورها غيبوبة ولا يحتاج صاحبه معها الى التكلف والجهد ، وثانيهما أن ترغبه

النفس الى أحكام الشرع من عبادة ومعاملة ، ومن قول وعمل وخلق ، رغبتها الى المرغوبات واللذائذ الطبعية المحسوسة وتعرض عن المناهي الشرعية كلها ، وتكرهها كراهة طبعية ، شأنها مع المكروهات الطبعية المحسوسة ، وان يخلو القلب عن حرص الدنيا والرغبة اليها ، الا ان يصبح القرآن خلق الرجل ، أما الوساوس العابرة او الكسل العارض الذين لا يتلوهما عمل أو فعل فلا يخالفان تلك الرغبة والاعراض » .

كما أن مجرد ملكة التذكر لا تعد جزءاً أصيلا للنسبة لان هذه الملكة قد تجتمع مع هذه المعصية فليس الامر الحقيقي اذن الا طاعة الله ورضاه ، ولا عبرة للرضا كذلك ، الا اذا كان حاصلا من الجانبين ، وهو أن لا نرضى عن الله نحن فحسب ، بل ويرضى الله عنا كذلك . ولا وسيلة لذلك كما يظهر الا ان يطاع أمر الله ويمتثل أحكامه ، يقول الشيخ : « يظن الناس اليوم أن ملكة التذكر هي النسبة وهي قد تأتي من الذاكر فحسب ، وقد تجتمع مع المعصية أيضا ؛ بيد أن النسبة المطلوبة ليست الا عنوانا للعلاقة التي تتبادل بين الجانبين فتكون علاقة العبد بالله طاعته وذكره وتكون علاقة الله بالعبد رضاه عنه وهذه هي النسبة المطلوبة » .

وكتب عن حقيقة النسبة في رده على استفسار أرسله اليه طالب :

« كلمة النسبة تتضمن معنى المناسبة والعلاقة ، مع أن

معناها المصطلح هو صلة خاصة بين العبد وبين الله في مظهر الطاعة والذكر ، وصلة خاصة بين الله والعبد في مظهر القبولية الحاصلة له منه ورضاه عنه ، مثلما يكون بين المحب المطيع والمحبوب الشاكر ، ولما ثبتت هذه الحقيقة ظهر أن الفاسق والكافر لن يكونا من أصحاب النسبة ، ويزعم بعض الناس أن النسبة كيفيات مخصوصة وهي تنتج من الرياضة والمجاهدة ، وليس هذا الا اصطلاح من لم يتعمق في العلم ولم يعرف حقيقة الامر .

وشاع بين الناس أن النسبة قد تسلب وتنتزع من صاحبها وان الشيخ الفلاني غضب على الشيخ الفلاني فانتزع نسبته ! ذكر الشيخ ذلك وقال :

« تذكرت أمرا مفيدا ، وهو انه شاع بين الناس أن الولي الفلاني انتزع نسبة فلان من الاولياء ، ذكر الشيخ الكبير مولانا رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله ذلك فقال : إن النسبة عنوان للتقرب الى الله ، وليس في مستطاع أحد أن ينتزعها ، وكيف يمكن هذا ، وكيف يستطيع رجل ان ينتزع ما منحه الله وأكرم عبده به ؟ وليست حقيقته الا أن يؤثر شيخ بتصرفه الباطني في باطن رجل آخر فتضمحل كيفيته الباطنة وتضعف ، وينتج من هذا العمل العناء والخمود مكان النشاط بيد أن صاحبه يقدر على مقاومة ذلك ، أما اذا لم يقاوم فقد يؤثر الاختلال في العمل في النسبة الباطنية .

لا يصح خدمة الخلق بدون تصحيح الرابطة بالرب

وفي الحديث عن هذه النسبة للشيخ نصيحة غالية تكبر على علماء الدين ومديري المدارس الدينية ، فضلا عن الزعماء والصحافيين الذين يخوضون في معركة السياسة والزعامة والاصلاح العام قبل أن يتهيأوا لها خلقا وباطنا ويعدوا لها عدتها الروحية ، وملخصها أنه لا يجوز أن يخرج الرجل في ميدان السياسة والاجتماع حتى يُحكِم النسبة ويقوي العلاقة بالله ، بل ولا يجوز له أن يمارس أعمال الدرس والتدريس ، والوعظ والارشاد ، والتأليف والتصنيف وأمثالها من أعمال دينية حتى يؤكد صلته مع الله تعالى ، ولو كان متفرغا وعالما معترفا به ، وهناك ناحية خاصة من نواحي هذا المنهاج ، وهي أن الرجل ما دام لم تحصل له قوة ورسوخ في نسبته الباطنية لا تجوز له ممارسة الافادة والتعليم الظاهرين ولا الاقبال على الافادة الباطنية ، فليس له أن يخطب في جماهير الناس ولا أن يعلم الطلاب ، ولا يجلس لمداواة الناس اذا كان طبيبا ، ولا أن يكتب تعويذات وأحجبة ، بل إن عليه أن يبقى في خموله ، الا ان يضطر الى شيء من ذلك ، اما اذا أكمل مراحل تحصيل النسبة وإحرازها ، فلا بأس له أن يقوم بالمواعظ والتأليفات ، ولا حرج في ذلك ، لان خدمة علم الدين هي من أفضل العبادات ، كما أنه يجوز له اذا حصل له السماح من شيخه بالتربية الباطنية والتلقين وأخذ البيعة ، ان يمارس كل ذلك أيضا ، فينفع بذلك

عباد الله ، غير أنه اذا لم يأذن له شيخـه بذلـك فلا يجترىء عليه أبدا .

أما ما يسميه الناس بالسياسات وخدمة الشعب والمجتمع فالى القارىء مثال عن ذلك : « انتخب الناس رجلا من مريدي الشيخ رحمه الله ممن حصل له السماح بأخذ البيعة والتربية لعضويـة البلديـة ، لكنه توحش منهـا وامتعض امتعاضـا شديدا ، ثم استقر رأيهم على أن يراجع شيخه في هذه القضية فقال الشيخ ما دامت الصلة لم تَقْوَ مع الخالق فالاتصـال بالخلق يضر ضررا شديدا اذا لم يكن عن ضرورة شديدة ، أما الفائدة المرجوة من خدمة الخلق وأداء حقهم عن هذا الطريق فانها لا تحصل كذلك حتى ترسخ النسبة مع الخالق وما دام لم ترسخ نسبته مع الخالق فلن يقوم بحق الخالق ، ولا بحـق الخلق ، وليست هذه تجربتي ولا تجربة رجل واحد ، بل هي تجربة ألوف من أهل البصائر . وقد ترك هذا التعلق بالخلق من يفوقنا في التمكن والرسوخ والهمة والعزيمة مثل ابراهيم بن أدهم البلخي ، والسلطان الشجاع الكرماني ، أما الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، فليس لنـا أن نقيس أنفسنـا بهـم » .

بيد أنه قد عم هذا البلاء في عصرنا هذا ، فشتان ما بـين اليزيدين في الوغى ، تقليدا لزعماء السياسة ورجال القيـادة وأصحاب السياسة اللادينية ، وشاع في الناس فأصبح الرجل

يفكر في اصلاح غيره من الخلق جميعا قبل اصلاح أصحابه وعشيرته ، وقد تولى بعض رجال الدين مؤسسات ومنظمات كبيرة تعود عليهم منها مسؤولية كبيرة كمسؤولية الراعي في رعيته ، وأخذوا على عاتقهم أمانة لا يمكنهم أن يوفروا من أوقاتهم ما يستطيعون فيه فهم تفاصيلها وحقيقتها فضلا عن أن يتمكنوا من احسان أدائها والقاء حقوقها ، ولم نسترسل في هذا الموضوع الشائك ، ولم نذكر تجاربنا إلا لاجل أن نصرح بأن كل ما نرى في أمورنا الاجتماعية من فساد وخلل وفوضى ليس سببها الا أن حقوق الخلق لا تؤدى بدقة وكمال ، والدقة والكمال لن يحصلا الا اذا سبقت هذه الاعمال كلها العلاقة الخالصة الصادقة الوثيقة بالخالق ، وصحبها الحذر من المحاسبة والاستجواب يوم القيامة ، والتفكير فيه أيضا ، ولم يقبل الرجل المسؤوليات والمناصب لطلب الجاه والمال كما عم في هذا العصر .

المجاهدة

كان البحث في أن الاشغال والمراقبات وغيرها ليست من غايات التصوف ، بل هي من وسائله ، وتشبهها في ذلك المجاهدات وقطع العلاقات أيضا ، فهي ليست الا طرقا للسعي والجهد في سبيل الاعمال المقصودة والطاعات الحقيقية ، أو في طلب قربات الله ورضاه ، وليست مقصودة بذاتها . أما حقيقة المجاهدة فهي التدريب على انكار الذات ومخالفة النفس ، ليمكن التغلب

على الشهوات وعلى ميل النفس الى الرغائب من نعمة الجسد ووفرة المال واكتساب الجاه ، وقد عبر عنه القرآن بالجهاد بالانفس والاموال ، ووعد بالهداية والرشد على هذه المجاهدة (الذينَ جَاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) ونجد عند الشيخ تقرير حقيقة هذه المجاهدة وتجديدها بقوله : « مطالب النفس اثنتان ، أحدهما الحقوق ، وآخرهما الحظوظ ، أما الحقوق فلا يقوى الجسم الا بها ، وليست الحياة بدونها ، وأما الحظوظ فهي فاضلة عليها وتأتي بعدها ، فغاية المجاهدة هي أن تبقى الحقوق وتفنى الحظوظ » .

وكما أفرط الناس في جانب ترفيه النفس حيث يَقْصِرون حياتهم كلها على هذا الجانب من امتاع النفس واقتناص الملذات فكذلك أفرط غيرهم ممن كانوا على عكسهم في التقصير في الاستجابة لمطالب النفس الحقيقية التي لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها ، فانهم يحرمون النفس حقوقها والكفاف من قوتها ، كاليوك والاشراقيين ، وحسبوا ان المجاهدة هي أن تُبخس حقوق النفس وتمحق مطالبها جمعاء ، ويحسبون ذلك طريقا الى نجاة الروح وفلاحها .

« فأصبح الصوفية يزعمون أيضا أن رضا الله لا يحصل الا بمخالفة النفس ، وكلما كانت هذه المخالفة أشد كان رضا الله أعظم وأقوى ، ولو كانت هذه المخالفة لا تتفق مع الشريعة الاسلامية ، حتى انه قد يبدو لبعضهم فيحرّمون على

أنفسهم اللحم فلا يأكلونه ، ويمتنعون عن البارد من الماء فلا يشربونه ، ومنهم من يجتنب الفراش الوثير فلا يضطجع فيه ، وغلت طائفة ممن حرمت نعمة الاسلام ، فتجاوزت الى حد أنهم قد يجففون جوارحهم ويميتونها ، وقد شاهدت كافرا كان أشعل النار حول نفسه وجلس في وسطها . فهذه كلها أعمال ما أحرى بها أن تنسب الى الجهالة العمياء ، ولا تجد الاعتدال والقصد الا في أولئك الذين جاهدوا مجاهدة في تقويم النفس واصلاحها محتفظين بالاوامر الشرعية ، فلا يتعدون حدود الاباحة ، ولا يباشرون هذه المجاهدة الا بصفتها علاجا ومداواة وأنها أسباب ووسائل لا يمكن أن تحل محل العبادات ، ولا يتخذونها ذريعة الى التقرب الى الله ، ولا يدع أحدهم طعاما الا اذا رأى فيه ضررا طبيا وما أشبه ذلك ، واذا تركوه فلا يعدون تركهم له شيئا من التحنث ، وأما اذا تركوه ظانين أن تركه عبادة ونسك ، ورجوا في هذا العمل جزاء ومثوبة ، فقد أذنبوا لانهم أضافوا بذلك الى الشريعة الاسلامية حكما لم يكن فيها من قبل ، وهذا هو السر في فساد البدعة وقبحها فهؤلاء اذا هجروا شيئا لا يهجرونه الا للوقاية من مرض أو للاحتراز من ضرر مادي ، أما أولئك الناس فلا يتركونه الا لانهم يحسبون هذا العمل عبادة وذريعة الى التقرب الى الله ووسيلة من وسائل المثوبة .

فعلى كل إن منح الجسد قسطه من الراحة وحظه من الترفيه ،

وبهجة النفس وتأديـة ما لها مـن حقوق لا يسـع أحـدا
انكاره ، ولذلك وضعت الشريعة الغراء لكل شيء حدا ينتهي
اليه ، فقد كان سيدنا أبو الدرداء يطيل السهر بالليل ، فنهـاه
سلمان الفارسي عن ذلك حتى بلغ ذلـك سيدنـا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال صدق سلمان ، وقال « إنَّ لِنَفْسِكَ
عَلَيْكَ حقاً » .

أسفا لهؤلاء المتصوفة المتعسفين الجهلة فقد زيّفوا التصوف
وأفسدوه وجعلوه مخيفا موحشا ، يقترحون الاعتكاف الصوفي
ويشيرون بتطليق الازواج ، وينصحون بالتبتل عنهن ، واقصاء
الاهل والاولاد ، وكان تؤخذ أربعون حبة حمص ، فلا يتناول
الا حبة منها كل يوم ، وقالوا إن الولايـة والوصول الى الله
لا يتأتى بغير هذا ، أما أنا فأقول بكل صراحـة ان الولايـة
والوصول يحصلان حتى على البسط الناعمة ، والوسائد اللينة،
وفي الامارة ومع لذائذ الاطمة ، لكن يشترط أن يكون الطالب
خارج البيت ، وفي خدمة شيخ كامل » .

« وقال ان السالك لا يحتاج الى كساء غليظ وثوب مرقع
بل تحصل له المشيخة اذا أراد في الخلع الفاخرة والملابس الناعمة،
وفي الملوكية كذلك ، لكن بشرط أن يكون طلبها بطريقها » .

صدق من قال ان طريقة الشيخ للتصوف طريقة ملكيـة
فانه لا يطلب رياضة ولا يفرض مجاهدة ولا يوجب قطع العلائق

ولا ينصح بحجر الملذات والمباحات ، بل يسمح بكل ذلك وبراحة شاملة لينشأ حب الله في القلب ، وتنشط النفس للعبادة ، ولكن ينهى عن الاقتراب الى الذنب وينصح بمراقبة النفس وتفقدها كل وقت ، ويفرض تقليل الطعام والمنام ، وقد ترك المحققون الحث على هذه المجاهدات الشاقة ، فان النفوس واهنة ضعيفة في هذا العصر ، وأما قلة الكلام وقلة المقابلات والزيارات فلا بد منهما ، لكن بالقدر الذي لا يشق على النفس ولا يرهقها ولا يسلب أنسها وانبساطها ، بل ان طريقة الشيخ هذه ليست تصوفا ملكيا فحسب ، بل انها شارع ملكي يمكن لكل واحد أن يسلكه اذا أراد بدون ضرر ولا خطر ، فهو لا يستعصي على أحد أيا من كان ، سواء كان عالما أم عاميا ، مشتغلا أم متفرغا حرا ، صحيحا أم سقيما ، قويا أم ضعيفا ، يملك ثروة فائضة أو لم يكن يملك كفاف يومه من الطعام . وهذا هو الذي يمكن لنا أن نقول عنه انه معنى القول المأثور « ان الدين يسر » لانه لا يدفع الانسان الى ما لا يسعه وما لا يستطيعه ، ولا يقتصر تحققه على استقلال بلد أو على حكومة إلهية .

معالجة الشدة والعناء بدون الحاجة اليها لن تسمى مجاهدة

وليس من المجاهدة أن تحرم النفس حقوقها الواجبة لها ، وأن تدفعها الى التكلف ومعالجة الشدة والعناء دون مبرر لذلك ، بل يجب أن تريحها اذا لم يكن هناك داع للقسوة عليها وإتعابها ، ويقول الشيخ في صدد ذلك :

« يوجد عند الصوفية وسيلتان للوصول الى الغاية ، احداهما قاسية شديدة ، وأخراهما ملائمة للنفس ، فما الذي يمنع من اختيار السهل الملائم ؟ ! ويصدر منه ، قال رجل وكيف يمكننا أن نستغني عن المجاهدة ولو اقدر يسير ؟ ! فرد عليه الشيخ قائلا ان المجاهدة ليس معناها تكلف الشدة ومعالجة العناء فانك ان وجدت بئرا بجوارك وأخرى على بعد مائة ميل أفتفضل أن تجلب الماء من تلك البئر البعيدة متخطيا هذه البئر القريبة حينما تحتاج الى الماء ، لا والله ، فعليك أن تعرف أن المجاهدات والرياضات ليست بغايات بذواتها ، بل هي وسائل للوصول الى الامر المطلوب والغرض المنشود ، وانها طرق اليه وليس المقصود الا الوصول الى الغاية ، فلا يجب هجر المتع والملذات فيها ، بل انما يجب تقليلها والزهد فيها » .

حقيقة الزهد

تحدث أحد العلماء في أمر الزهد ، وقال ان للزهد فضيلة كبيرة ، فقال الشيخ انه ليس من الزهد أن يترك واحد متعه وملذاته ، بل انما هو أن يقلل منها ، وان لا ينغمس فيها ، فليقصر فكره وهمه عليها ، ويفكر فيها ليل نهار ، وما يحسن أن يطبخه من الاطعمة وما يحسن أن يبتاعه من الحاجيات والكماليات ، ويتكلم في مثل هذه الاغراض دائما ويقول ان الارز من موضع كذا أطيب وألذ من الارز الذي يكون في موضع كذا ، فيجب أن يشتري هذا ولا يشتري ذلك ، وأنه

القشطة التي توجد في حانوت كذا أطيب وألذ من التي توجد في حانوت كذا . فلا يقطع نهاره وليله الا في الكلام في مثل هذا ، والمناقشات حوله وحول الاقمشة والثياب الفاخـرة ، والاطعمة الشهية من كل نوع ، فهذا هو الذي ينافي الزهـد ولا يجتمع معه أبدا ، غير ان هذه الملذات اذا حصلت بدون العناية والاهتمام بها ، فلن تكون اذن الا نعيما من الله الغفور الرحيم يجب الشكر عليها » .

أما المجاهدات الاربع المخصوصة فهي الاقلال من الاكل، والاقلال من النوم ، والاقلال من الكلام ، والزهد في مخالطة الناس ، وليست الاهمية في كل واحدة من ذلك الا للاقلال والزهد ، لكنه بقدر الحاجة والضرورة الى ذلك وإلا :

« فليس الاقلال من الاكل زهدا ، وليست غاية منشودة ، لاننا اذا زهدنا في شيء لم نستطع أن نزيد في خزائن الله شيئا، مع أنه يجب أن لا يأكل الرجل الى أن يتخم أو يتألم من بطنه ، أما الشيخ إمداد الله رحمه الله فكان من رأيه أن يمتع الرجـل نفسه ويلبي رغبته ، ثم يستخدمها في أعمال الخير ويجهدها . وحقا اذا عرف الرجل أنه قد أعد له طعام شهي فان نفسه تنشط لاكمال العمل واتقانه ، وتسرع لتدرك هذا الطعام الشهي ، فلا بد للنفس من حافز ، فقد قال الشيخ إمداد الله رحمه الله للشيخ أشرف علي رحمه الله « يا أشرف علي » اذا شربت الماء باردا فان كل شعرة من أشعار بدنك ستشاركك في أداء كلمات الحمد

والثناء على الله ، أما اذا شربت الماء ساخنا حميما فمن الاغلب أن تحمد الله بلسانك بدون أن يشاركك في ذلك قلبك » •

والمقصود عند حضرة الشيخ من الاقلال في هذه الشؤون الاربعة هو القصد فيها والاعتدال ، بحيث يجب على صاحبه ان لا يبالغ فيها لئلا تنشأ الغفلة والقسوة والكسل وأن لا يتهاون فيها فتنحرف الصحة وتختل القوة وتفسدان • ورأس مال هذا الطريق وجماع الامر ، هو اجتماع القلب وانقطاعه الى جهة واحدة ، ولذلك يجب صيانة القلب من القلق والاضطراب ومن أسباب ذلك هو الاخلال بالصحة بسبب الاسراف والافراط والتفريط والفوضى •

« لذلك تجد صيانة الصحة والمحافظة عليها من أوجب الامور ، وذلك بترفيه الدماغ والقلب وتقويتهما بمداومة تغذيتهما ومداواتهما ، فلا يحسن الزهد في الغذاء حتى يسري الوهن ويتولد اليبْس في الدماغ ، كما يجب ايضا أن لا يفرط الرجل في تناول الغذاء فتختل قوة الهضم ، فاذن من اللائق به أن لا يتناول طعاما إلا اذا كانت عنده شهية صادقة ، كما عليه ان ينصرف عنه وفي النفس رغبة الى لقمة أو لقمتين ، ويجب عليه أيضا ان يسلك مثل ذلك الاعتدال في النوم فلا يفرط فيه لئلا يكسل ولا يقصر فيه كذلك لئلا يطرأ على قواه الجفاف والتخدير » •

وكما أن مخالطة الناس والصداقة معهم على طريق المبالغة عدّت ضررا من الاضرار ، كذلك عدت المعاداة معهم بدون حاجة اليها ضررا ومفسدة من المفاسد ، والسبب في ذلك هو « ان الاصدقاء يهجمون على الرجل فيضيعون من وقته ويشغلونه فيما لا يعنيه وأما الاعداء فيؤذونه ويضطرونه الى العناء والمتاعب ، أما التشوش والاضطراب والقلق اذا حدث بدون هذا كله ، أو اذا كان يحدث من العمل بما أمرت به الشريعة الاسلامية ، ومثاله أنه يأبى أن يقبل هدية من رجل مراب ، فيعاديه هذا الرجل لهذا السبب ، فلن تكون معاداة هذا الرجل ضارة له ، ولذلك يجب عليه أن لا يكترث لذلك ، وأن يتوكل على الله ، ويديم اليه نظره ، فلا بد اذن من حصول نصره له ، وان أصابته شدة أو بلوى فلا يهن ولا يضعف ، بل يعدها صادرة في سبيل حكمة إلهية ويرضى بها ، فاذا فعل ذلك فلا بد من أن يحرز القرب الالهي ، لان ذلك من موجبات القرب الالهي ، ويجب في هذا الصدد ان لا ينسى الرجل أمرا هاما وهو :

« إن النهامة بالمال ، والاهتمام بجمعه وادخاره ، أو بذل المال المذخور على وجه الاسراف والتبذير ، لن تكون عاقبتهما الا تشوش البال وانزعاج الخاطر . أما الحريص فلن يزال في حرصه والهم في ذلك ، وأما المتبذّر فيقع في ضنك الحال والضائقة المالية بعدما ينفد ما لديه من المال أو يشرف ويتطلع الى مال غيره » .

المجاهدة بدون قصد

تحدث الشيخ رحمه الله عن المجاهدة حديثا مفيدا حيث قال : ان المجاهدة ليست مخالفة النفس ومعارضتها ، سواء كانت المخالفة بقصد أم بغير قصد ، وسواء كانت بطرق صوفية رائجة ، أم بغير ذلك ، بل ان جميع الحوادث والاحوال التي تقع خلاف ما نهوى ونريد في هذه الدنيا بدون أن نتعملها أو نريدها ، ثم يلحقنا عقب ذلك هم وألم على وجه طبعي هي نفسها مجاهدات ، بل أعظم المجاهدات .

« قال العارفون من رجال الطرق ان الحزن والالم هما من أعلى مراتب المجاهدة لانه يحصل منهما تواضع في النفس وانكسار فيها ، وذلكما من علائم العبدية » .

يقول ابو علي الدقاق عليه رحمة الله « ان صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى ما لا يقطعه من لا يلحقه الحزن طيلة سنوات » .

المجاهدة لا تستأصل الرذائل

وفي المجاهدة أمر غريب هام هو أنك لا يمكن لك أن تؤمل من مخالفة النفس أنك تستطيع فيها استئصال شأفة الرذائل ولن يسعك فيها الا ان تحول اتجاهها .

« ان الرياضة لا تستطيع أن تستأصل أصول الاخلاق الذميمة بل انما هي تهذبها وتقومها ، وذلك بأنه تتحول آثار

أصولها فتتغير اذن مظهر مكانة أخلاقها . ومثاله أن طبيعة رجل اذا كانت متركبة من الغضب والبخل لم يمكن لهذين الخلقين أن يزولا عنه زوالا لا يبقى معه لهما أثر فيه ، بل انما الذي يمكن هو ان يتهذبا ويستقيما ، وذلك بأنهما كانا في السابق يظهران ويعملان بصورة غير مستقيمة ، فكان البخل في مناسبات البر ، وكان الغضب على الصالحين . أما الآن فأصبح البخل يظهر في مناسبات الإنفاق المحظور ، ويحل الغضب على الذين سخط الله عليهم وأبغضهم ، وعلى النفس أيضا . وبهذا الطريق يمكن تحويل أسباب الابتعاد والشر الى أسباب الاقتراب والخير . فثبت اذن أن تغير الاخلاق ممكن ، كما أنه ثبت أيضا أن أصولها لا تزال راسخة لا تنفك ، كما جاء في الأثر الشريف « اذا سمعتم برجل زال عن جبلته فلا تصدقوه » .

غير أن المظاهر والآثار ممكنة التغير ، ولاجل ذلك أمروا بالمجاهدة والرياضة » .

ليست مطالبة كبت الميول والاشتهاء ، الا كما يطالب بكبت الجوع حتى يستطيع صاحبه أن يتقي الأكل المحرّم .

« سأل رجل أنه كيف يمكن التحرر من تأثير الهوى النفساني ، فرد عليه الشيخ وقال : « معنى ذلك أن تتوب غدا عن غذاء من الاغذية المحرمة ، وتدعو الله أن يعفيك من الجوع » .

تنبيـه هـام

ونبه على أنه ليس معناه أن الله تعالى ملزم بأن يعطي بعد المجاهدة والرياضة ، بل ليس هذا اللزوم والتقييد الا خاصا بناحية العبد دون ناحية الرب .

« ان الحياة الروحية تحصل بالرياضة والمجاهـدة بدون ريب ، وهما مما يجب على العبد أن يجتهد فيه ، والله سبحانه وتعالى ليس بمقيد بذلك ، وهو قادر ان يمنح النعمة الباطنية ، ويرزق الحياة الروحية كيف يشاء ، فضلا منه ونعمة ، متعال جليل ، يفعل ما يريد وما يشاء ، فمن الذي يستطيع أن يخطر بباله تحديد كيفية عمله وطريقه ، وتعينهما أنهما كذا أو كذا ؟ !

« ويجب أن تفهم بهذه المناسبة ان الرياضـة قـد تسبق ويعقبها الوصول الى الله ، ويسمى سلوكا ، وقد يقع بالعكس حيث يحصل الوصول الى الله أولا ، ثم يتكون الشغف بالعبادة والرياضة ، ويسمى هذا جذبا ، وذلك بأن يأنس قلب الرجل بادىء ذي بدء بالله تعالى عن طريق مصاحبة شيخ كامل ، او لاستماع رواية لولي من الاولياء، أو لغير سبب ظاهر مكشوف، ويوجد عنده جنان ، ثم يقبل الى السلوك فيجتاز مراحله الى الإكمال » .

السلوك والرياضة المفصلان

والمراد منه أن تحصل درجات التوبـة والصبر والشكر

والخوف والرجاء والزهد والتوكل والتوحيد والحب والشوق والاخلاص والصدق ، وما الى ذلك واحدة تلو الاخرى برياضات ومجاهدات متفرقة متنوعة ، وأن تكبح وتصد الرذائل المختلفة من شهوة وغضب ، وحقد وحسد ، وبخل وحرص ، واعجاب بالنفس ، ورياء واستكبار ، ومحبة للدنيا ، وغرام بالجاه ، وزلة من اللسان ، وانتقادات به ، وغيرها بمساعدة المجاهدات وانواع المعالجات ، كما لا يخفى ان هذا الطريق طويل شديد الطول ، وبالاخص في هذا العصر ، الذي تقاصرت فيه الهمم وازدحمت الشواغل ، وأنه من أجلّ أعمال الشيخ عليه الرحمة التجديدية .

« ان الرجل ليواجه في هذا العلاج المفصل ثلاث محن باستمرار ، وهي الحسرة التي تكون على الماضي والشبهات التي تقلق وتزعج في الحاضر ، والخوف الذي يساور في أمر المستقبل ، ولما رأى المحققون المجدون (ومرشد الشيخ وهو أكملهم في هذا الصدد) بل من الاصح أن الله تعالى لما بصّرهم بإلهام منه اليهم ، ان المرء يستطيع في كثير من الاحيان أن يصل الى ربه قبل أن يصل الى شيخه في هذه الطريق ، ورأوا أنه قد وهنت قوى الناس في هذا العصر ، وتقاصرت هممهم أيضا، فلما رأوا ذلك بدأوا طريقا أخرى وهي أن الماضي والمستقبل وما الى ذلك ، ليس كله الا حجابا عن الحق ، وأن الله قد خلق الانسان لمشاهدته لا للتفكير في الماضي والمستقبل ، ولنعم

ما قال الشيخ الرومي : انما الماضي والمستقبل كلاهما حجاب عن الله ، والتوبة تطالب بالنظر الى الماضي ، والعزيمة تطالب بالنظر الى المستقبل ، والضرورة ليست الا في حد الضرورة فيجب على المرء اذا احتاج الى التوبة أن يستعرض الماضي ، ويتوب حق التوبة ، ولا يستعيد ذكريات الماضي وشئونه في القلب ، ويعتمد على الله ، ويحتم على نفسه أن لن يأتي بمثل هذه الذنوب فيما يأتيه من الزمن ، ثم يدعها ولا يتمادى فيها .

« وعمل آخر فوق كل هذا ، وهو ذكر في الحديث الشريف بكلمة (راقب الله تجده تجاهك) فوجب أن يداوم المرء على هذا العمل ، يعني الذكر والتفكير والعمل في أوانه ، فهذا هو الذكر أيضا ، فعلى كل يجب أن تعلم أن القرب منشود ، وأنه يجب على المرء أن يلتزم طريقه التي اختيرت له ، ويشتغل بالاعمال الاختيارية في أوانه ووقته ، بعد تصحيح العقائد سواء كانت تلك الاعمال الاختيارية ظاهرية مثل الصلاة والزكاة ، أم كانت باطنية كالخوف والرجاء والشكر والصبر وغير ذلك ، فيشتغل بها ، واما ما كان من أسباب الإبعاد والاقصاء مثل المعاصي الظاهرة والباطنة فيتجنبها ، وأنه في غير حاجة الى العناية ، بأن تنشأ فيه ملكة في أسباب التقرب ، ولا يحتاج كذلك الى قطع مادة أسباب الاقصاء والفصل .

« فالشئون التي كان حصل له الخيار وقصر فيها ، يجب عليه في صددها أن يراها ضررا عظيما ويحاول إصلاحها ولا

يلقي بالا على ما لا يقدر عليه ولا يستطيعه ، ولا يلتفت الى وجوده أو عدمه ، وليس له أن يتعب نفسه كثيرا في الاصلاح، مثلا اذا وقع منه خلل في أمر هام ، فعليه أن يقصيه أو يتلافاه أو اذا أتى بمنكر ، فعليه أن يستغفر الله منه ، ثم ينصرف الى شأنه ، ولا يتمادى في ذلك الامر الوحيد ، متأسفا بأنه أتى بهذا العمل ، فلماذا أتى به وكيف ؟ أو أنه لِمَ لم يأت بذلك العمل ؟ فهذه كلها مغالاة وتعسف ، ورد عنه النهي في الكتاب والسنة اذ قيل (لا تَغلوا فيدينكم)[1] وقيل « من شاق شاق اللهعليهوسددوا وقاربوا واستقيموا »، ويقول العارف الشيرازي في بيت من شعره « أن العالم يستعصي على المشددين على أنفسهم » .

وهذه المغالاة والتعسف يؤثران ، وبالاخص على القوي والنهم لانه قد يعمل في نفس صاحبه اليأس ، ويقصي السالك من عمله ، وقد يبلغ التأثير منه الى النفس ، أو الايمان ، أما النفس فيصل اليها عن طريق الصحة ، فهيتختل ، واما بالايمان فذلك بأن الرجل كان طالبا له متوخيا ، لكنه لم يبلغ بعد جهود كثيرة الى النجاح الذي يحسبه نجاحا والى الظفر فيه ، او كان على الاقل تأخر وأبطأ وصوله اليه ، فبذلك تنشأ في نفسه الشكاوى من الله ، وتفضي الى أحوال الكراهة والسخط بأنه قد أتعب نفسه وشدد عليها في المجاهدة أياما طويلة ، لكن

(١) سورة النساء / ١٧٠

الوعود التي كانت في آية (والذين جاهدوا فينـــا)[1] لـــم تتحقق له .

« وهنا علة ثانية يجدها الرجل ، وهي أنـــه يحسب عملـــه وسعيه بليغا وعظيما ، ويترقب عليه الثمرات وينتظرها ، ويظن كفة عمله راجحة على كفة عطايا الله سبحانه ، فيكون من نتيجة ذلك أنه يرى نفسه فائزة أبدا ، ولذلك لا ينفـــك واقعـــا في الكفران ، ولو نجح في ظنه ، ثم زال عنه النجاح ، إذ كان من دأب هذه الدنيا أن لا تزال تختلف التغيرات الـــى الناس في حياتهم ، فلو حدث هذا بدأ صاحبـــه اذن يتضايق ويتعنّى ! فعلى كل حال انما يطّرد هذا وأمثاله في حياة الناس ولا ينقطع واذ ذاك تتذمر نفسه وتقول ويقول الآخرون : لا خير في هذا الطريق ، طريق الله ، فلا راحة فيها ولا سعادة ، انما هي كلهـــا شقاء وعذاب » .

لوجود هذه المفاسد والاخطار ، كان الشيخ رحمـــه الله يؤكد حينا الى حين ، على أنه يجب أن يبتعد الرجل من المغالاة والمبالغة والتدقيق والتقعير .

« فلو ألم به أمر محمود فلا يرينّه كمالا ، ولا يتمنى بقاءه ولا يتحسر على فواته ، وهكذا اذا مسته وسوسة ، فلا يتعب نفسه في طردها . وأنه يجب عليه أن يعكف على الذكر ببساطة

---

(١) سورة العنكبوت / ٦٩

ولا يقلق ولا يضجر اذا لم تنكبت ، ولم تزل عنه ، والمراد منه أن يعمل ويشتغل بالذكر للتقرب الى الله ، لا لطرد الوساوس فيتوخى رضا الله ، ويتجنب سخطه ، وأن هذا الرضا وهـذا السخط ، انما يقتصران على الامتثال للاوامر والامتناع عـن النواهي ، اذا فاته العمل أدّاه قضاءاً ، وإن ارتكب إثما أنـاب الى ربه ، واستغفر الله ، ولا يعد نفسه من الخواص ، حتـى ينكمش ويتوحش من حالته التي تخص عامة الناس ، ولا ينتظر في الدنيا نتائج سارة ولا في الآخرة مراتب رفيعة ، وأن عليه أن يكثر دعاء الله تعالى أن يوفقه في الدنيا للحسنات ويدخله في الآخرة الجنات ، وينقذه من النار ويحفظه منها ، وهـذا هو السلوك » .

شبهـــة

قد يلتبس الامر على رجل ما أنه اذا لم يكن الميل الى الوسوسة والى العصيان شرا وضررا ــ الا اذا تجاوز ذلك الى الاقتراف والعمل ــ فما هي الحاجة الى المجاهدة اذن ؟ !

« فالجواب عليه أن المجاهدة ليست بواجبة بدون شك ، لكن فائدتها هي أنها تفرج من الشدة والعسر في جهد الرجل لصرف نفسه عـن العصيان ، وتيسّر التغلب علـى النفس ، ويمكن ذلك بغيرها أيضا ، لكن بعسر وشدة . هذا موضع النفع في المجاهدة ، لا لتموت الرغبة وتزول عنه ، ومثاله أن الفرس ينفر مع وداعته وهدوء طباعه ، ويسكن ويهدأ اذا راضه صاحبه

فالفرس مجبول على الوداعة اذا كان هجينا ، اما غيره فان تسكينه يحتاج الى صعوبة » .

فاتضحت على وجه التفصيل حقيقة المجاهدات والرياضات وضرورتهما، وتبينت مفاسدهما واخطارهما التي اتخذها الصوفية المسلمون الجهلة غايات أصيلة مضاهاة للاشراقيين واليوك واتخذوا التصوف الاسلامي غايات بعينها خاضعين لاولئك القوم .

نتيجة المجاهدة الحقيقية ليست أحوالا

وماهي حقيقة ودرجة الواردات والاحوال والإلقاء والتصرفات والكشوف والكرامات والوجد واللذات التي زعم الناس أنها نتيجة حقيقية لهذه المجاهدات والرياضات ؟ انما الحقيقة في ذلك هي أن المجاهدات كما عرفت ، ليست مقصودة في ذاتها ، فكذلك نتائجها ليست مقصودة بذاتها ، وليس من اللازم أن يحصل ذلك بعد المجاهدات ، ويكون نتيجة لها . وحقيقة المجاهدة والرياضة هي أنها تدبير أو علاج ، أما ثمراتها فهي مثل « الصحة » والغاية من الصحة هي أن تصل الى أهدافك من الحياة أو أن تحققها بنشاط ويسر ، ومثاله هو الفلفل اذ ليس طعاما ، لكنه يوفر في الطعام لذة « قال ان الناس في هذه الايام يتتبعون الاحوال والكيفيات التي هي في حقيقة الامر مقصودة بذاتها ، مع أنها ممتعة لذيذة ، وهي كالفلفل الذي ليس بمقصود في الطعام ، لكنه لذيذ . وقد أصبح الناس اليوم

يطلبون الاحوال ويحلونها محل الغايات ، وليس مثالهم في ذلك الا كالذي يأكل أداما اتخذه من الفلفل فحسب . إني أضرب لذلك مثلا بروبية فانها تحوي مائة فلس ، ولم تكن جميلة لامعة وتروج في السوق ، أما قطعة التصدير فمهما كانت لامعة أو متوقدة فلن تروج في السوق ، فالاحوال واللذات ليس مثلها الا كمثل الرصاص والقصدير امام الفضة ، وما أشبهها ، فهي لن تروج في سوق الآخرة .

« ان واردات الغيب أو الذوق والشوق ليست بثمرة حقيقية ، بل انما هي من وسائل التربية ،وهي لبعض الناس على صورة الغيب ، والطريقة الاخرى للتربية من دون المواجيد هي المضي بالعزيمة والهمة » .

حقيقة التصوف في جملتين

هذه الواردات والكيفيات في الحقيقة انفعالات ، اما الغاية في « الطريقة » فهي الافعال لا الانفعالات ، وقد ذكر حضرة الشيخ هذه الحقيقة لعالم من العلماء ، لكنه لم يقدرها حق قدرها « ان الذين جبلوا على التأثر والانفعال كثيرا ما تحصل لهم الاحوال طبيعيا حتى ينتهي بالبعض من هذا التأثر والانفعال الى الاغفاءات والاستغراق ، ويرى الناس عامة « ان الاستغراق شيء عظيم ، ويظنون أن ليس من الكمال الا أن يستتر العقل ويغفى الرجل « يا ناس » أيتذكر الله للانتباه والصحو أم للاغفاءة والذهول ؟ ! يقول سيّدي عبيد الله الاحرار رحمه الله

إن التقرب لا يحصل كثيرا في الاستغراق لانه قلما يمكن معه العمل ، والعمل هو مدار القرب ، وان الرجل ينخدع بهذه الاحوال فيراها روحانية وان لم تكن هذه الاحوال في أكثر الاحيان الا نفسانية فحسب ، ولا يقدر على معرفتها والوقوف على حقيقتها الا الكاملون .

« واما الكاملون الذين هم أصحاب استعداد وصلاحية حقا ، انما لا تعاورهم الكيوف النفسانية السافلة ، غير الكيوف الروحانية التي تطرأ على الروح ، فانها تعاور الكاملين ولا يعرفها العامة ، والفرق بينهما كالفرق بين حلاوة السكر المصفى وبين السكر الصاقي ، رووا أن بعض الفقراء المنبوذين ذهبوا الى رجل في مسخرة ، فلما حضرهم الغداء وكان مشتملا على لبنية ، فأكلوها ، ولكن دون رغبة اليها ، وقال كبيرهم ما هذا الذي هو مثل البصاق ، لم تؤثر في نفسه حلاوتها ، ولم يكن قد شم رائحتها ، والسبب في ذلك أنه لم يجد حلاوة الا في السكر غير المصفى ، فمن الحقيقة أن السالكين الذين يرتجون الكيوف والاحوال هم كالقرويين المغرمين بالسكر قبل تصفيته، وأقول إلزموا العمل واتركوا الرغبةفي الكيوف ، واذنستجدون من الكيوف التي ستحصل لكم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ، فالاصل أن الكيفيات الروحانية انما تعرض للرجل من غير شك دون الكيفيات النفسانية ، فانها تعرض لبعض وتغيب عن بعض » .

أما هذه الاحوال فهي من لذائذ الطريق ، وفائدتها أنها تقطع الرحلة بمتعة ولذة ، لكنها لا تخلو من الاخطار أيضا ، لان كثيرا من قاصري الهمم ينقطعون عن المضي في طريقهم وينصرفون الى هذه الاهواء ، والسبب في ذلك أن الناس كثيرا ما يحلون الكيفيات محل الغايات والاهداف ، ويحسبون أنهم من المتقربين والمقبولين ، لانهم ان لم يكونوا كذلك ، لم تعرض لهم هذه الاحوال ، والحقيقة أنها تعرض لهم وللكفار على السواء .

« كان المجدد المجتهد في هذا العلم الشيخ إمداد الله رحمة الله عليه يقول : إن الانوار والكيفيات حجب نورانية ، والحجب النورانية أشد من الحجب الظلامية ، ويجب فيها على السالك أن يتجنبها ويبتعد عنها ، ولا يلتفت اليها ، لان الذي يريد زيارة الملك لا يعرِّج على بيوت الكناسين وعلى دور التجار بل يتوجه رأسا الى مجلس الملك ، فان الحجب الظلامية كبيوت الكناسين ، والحجب النورانية كمنازل أصحاب المهنة العامة فعلى السالك أن لا يعرِّج عليها ، وأن يمضي في طريقه دون وقوف . فالمقصود وراء وراء ذلك كله » .

حقيقة الكشوف والكرامات

وبعد أن علمت حقيقة الاحوال والكيفيات والاصل فيها ، فعليك أن تعلم حقيقة الكشوف والكرامات والتصرفات والإلقاء .

« قال إن الناس يعدُّون الكشف من أجلّ الكمالات مع

أنه لا قيمة له في التقرب الى الله ، وتتفق طبائع بعض الناس مع الكشف دون غيرهم ، كما أن عيون بعض الناس نافذةبعيدة النظر ، في الوقت الذي لا يبصر الآخرون الا الشيء القريب ، وقال مشيرا بيده الى فسقية المسجد ، هبوا أن أمرءا لا يجاوز بصره هذه الفسقية ، مع أن بصر رجل آخر غيره يجاوزها الى الشارع في الخارج ! أبهذا يعد الرجل الذي يبلغ نظره الى الشارع من المتقربين الى الله ؟ كلا بل انما هذا نوع من البصر لا علاقة له بالتقربات ، فان بعض الناس لا تتفق طبائعهم مع الكشوف ، فانهم مهما مارسوا المجاهدات وباشروا الرياضات فلن يحصلوا على الكشف فيعمرهم ولو مرة واحدة ، والاصل في ذلك كله هو العبدية ، فأحلف بالله أنه مهما حصل لامرىءما ألوف الكشوف ، أو أكثر من ذلك ، فانه اذا رجع الى وجدانه لشعر أنه لم يكسب في التقدم حتى قدرا يسيرا ، غير أنه اذا سبح الله ثلاث مرات ثم رجع الى وجدانه لاحس أنه قد تقدم في التقرب الى الله ، فليختبر هذا من شاء من أهل الذوق وأصحاب الوجدان » .

كيف يكون الكشف من علائم التقرب والولاية اذا لم يشترط فيه كون المرء مؤمنا فانه يحصل للمؤمن والكافر والملحد ولغيرهم على السواء ، وكما أن قوة خاصة من الجسم تتضاعف بالتدريب والرياضة ، فكذلك تتولد في النفس قوة مخصوصة بالمجاهدة والرياضة ، وتتضاعف ويعرف ذلك علماء النفس أو أساتذة التنويم في هذا العصر .

فالحقيقة ان الكشف ليس بشيء عظيم لان الكافر أيضا اذا جاهد أو تروّض لحصل له ويحصل للمجانين أيضا ، وكتب صاحب شرح الاسباب أن الكشف يحصل للمجنون ورأيت أنا مجنونة كان يحصل لها الكشف ، وقد لا يحصل للاولياءأيضا، وهذه المجنونة حينما استعملت المسهل زال كشفها مع المادة ، لذلك لا تعد العلوم الكشفيةحجة ، فالكشوف اذا كانت بنفسها موافقة للقواعد الشرعية صح العمل بها ، والا وجب تركها ، وهكذا الامر الآخر الذي هو من خوارق العادة وخلافها ، اذا وجد لاحد فلن يعد علامة أو دليلا على ولايته أو تقربه .

« الولاية لا تفتقر الى خوارق ، ولم تظهر الخوارق من بعض الصحابة ، ولو مرة واحدة في حياتهم ، والخوارق تظهر في اكثر الاحيان من (اليوك) ، وهي من نتائج الرياضة ، ودرجة خَرق العادة أقل من الذكر القلبي ، وقد كتب صاحب العوارف عن الذين لا تصدر منهم الخوارق أنهم أفضل من أهل الخوارق ، ان من أكبر كرامات العارفين أن يستقيموا على جادة الشريعة ومن أعظم كشوفهم أن يتبينوا استعداد الطالبين ثم يربّونهم وفق ذلك ، وقد كتب الشيخ الاكبر ان بعض أهل الكرامات قالوا عند وفاتهم ، ليتهم لم يرزقوا كرامات » .

وقال بعض صرحاء القول من الناس (الكرامات حيض الرجال) ، فكما أن المرأة تستحي من حيضها وتحاول اخفاءه ،

وستره ، فكذلك يستحي أهل الله من كراماتهم ، وقد تمنى كثير من الشيوخ أصحاب الكرامات ، ليتهم تجردوا عما يظهر منهم من كرامات ، والسبب في ذلك أنهم رأوا أو شعروا بمنقصة في درجاتهم بقدر حصول كراماتهم ، لان غير أهل الكرامات ستحصل لهم هذه الكرامة في الآخرة دون المأذونين ، فانهم مستثنون من ذلك .

تكلم الشيخ عن الكرامات في كتابه «الكرامات الإمدادية» فقال :

« الكرامة هي التي تظهر من متبع كامل ، ولا تطرد اطرادا، لانها إن اطردت لم تعد كرامة ، وإن لم تخضع الكرامة التي ظهرت منه لشريعة نبي من الانبياء لم تعد كرامة ، مثل اليوك والسحرة الذين تصدر عنهم مثل هذه الاحوال ، ولو كان يدّعي ويقول انه متبع نبي ، لان عمله يخالف شريعة الانبياء وسواء كان الاختلاف في الاصول كأهل البدع ، أو كان في الفروع ، كالفاسقين والفجار ، والكرامة من هؤلاء لن تسمى الا استدراجا ، « ويسمى بالكرامة ما يصدر من متبع كامل في التقوى ، وأصبح الحال في عصرنا أن الناس يلقبون كل رجل تظهر منه كرامة قطبا وغوثا أيّا مّا كانت عقيدته وأعماله، قد صرح السلف بأنك اذا رأيت أحدا يحلق في الفضاء أو يجري على الماء ولا يحافظ على الشريعة فلا تحسب له حسابا .

وقال الصلحاء إن ستر الكرامة واجب على المرء ، الا اذا

كان محتاجا الى اظهاره ، أو مسموحا له فيه عن شيخـه ، أو غلبت عليه الحال ، حتى أذهلته عن أن يريد شيئا أو يختاره ، أو كان مما يجب اختياره لتثبيت اعتقاد طالب صوفي ويقينـه أو مريد من مريديه فيجوز اذن » •

الالقاء والتصرف

كذلك ليسا من الامور المقصودة أو المأمور بها ولم يكونا في ذاتيتهما دليلا على الكمال ، أو التقرب والولاية أو القبول، بل هما من قوة النفس والخيال التي تيسر لكل واحد مقبولا كان أو مطرودا بالتمرن على التوفيق بين الخيال والالقـاء ، لقد كان هو أعظم مـدار للسحر قديما ، وهـو اكبر أساس « لمسحر يزم » أو عمل التنويم اليوم ، أما الذي يعالجه الصوفية من التأثير والفعـل بقوة النفس والباطن فيسمى في مصطلح الصوفية إلقاءا وتصرفا أو همـة ، وقد ألف حضرة الشيـخ رحمه الله رسالة صغيرة على هذا الموضوع أسماها « رسالـة التعرف في تحقيق التصرف » واستدل بآيـة (أيدناه بروح القدس) شرحا لها بحيث تؤيد حكمه وتقويه •

« حقيقة هذا التأييد ، أن كيفيات خاصة محمودة تفشى وتعم على أحد لتنشأ منها آثار مخصوصة ، وهي تكون أنواعا، وألوانا باختلاف الاغراض ، ويدعى هذا التأييد في اصطلاح المتصوفة التصرف والالقاء ، والهمة وجمع الخاطر •

« وكثيرا ما تتولد قوة التصرف هذه في المشايخ بالمجاهدات

والرياضات النفسية ، كما تنشأ قوة المصارعة بالرياضة والتدريب، وبعض الرجال يجبلون على هذه القوة ، وقلما يكون ذلك،

فان كان استعمال هذه الطاقة لغرض سام حميد كعادة المشايخ ، يحمد اذن التصرف تبعا للغرض ، وان كان القصد من ذلك خبيثا ذميما ، يقبح تصرفه كذلك .

لكن تلك الطاقة على كل حال لن تعد من المعالي الدينية ، ولن تكون دليلا ولا سمة للقبول والتقرب ، لان كل امرىء سواء كان فاسقا أو فاجرا ، يقدر على انشائها بالتمرين،فالحكم فيها مثل الحكم في القوى الجسمية واستعمالها ، وفي استعمالها مضرات دينية ودنيوية كذلك ، وقد نصح الشيخ المجدد على الاخص في هذا العصر بتركها .

« فمن مضارها الدنيوية أن قوى صاحبها القلبية والعقلية كثيرا ما تضعف وتضمحل باكثار استعمالها ، وهنا خطر عظيم من أن تنشأ أمراض كثيرة ، ومن مضارها الدينية أن العامة يعدونها من سمات الولاية والقداسة ، وهذا من أضرار العقيدة، أما الطالبون والمريدون ، فهم يقتنعون بها وينقطعون عن العناية باصلاح النفس والحال ، وهذا من الخسائر العملية .

ونظرا الى هذه المضار هجر السلف الصالح استخدامها ، ولم تكن هذه المضار في عصرهم موجودة ، لان قواهم كانت شديدة لسلامة الطباع وجودة الفهم ، أو كانت هذه المضار تافهة على الاقل ، وبعد كل ذلك ، فان الناس يقتنعون بالقاء

الشيخ وتصرفه مهما يبدو لهم من الاحوال والكيفيات فلن يجدي ولن يدوم ، انما الجدوى والبقاء في الامور التي يأتيها الرجل من نفسه ويجتهد فيها بذاته :

« تذكّروا أن الشيخ ليس الا دليلا وهاديا ، وليس عاملا ولا فاعلا ، فيجب عليكم أن تعملوا أنتم بأنفسكم ، فان ذهب رجل الى طبيب وشرح له أمراضه وعلله ، فوصف الطبيب له دواء ، فماذا يصنع المريض اذن ؟ هل يطلب من الطبيب أنه يستعمل هو بنفسه الدواء أم ماذا ؟ انه ان فعل ذلك ، فلن يكون الا أحمق ، فلذلك ترى الذين يطلبون من شيوخهم الالقاء ، أنهم كالمرضى الذين يطلبون من الاطباء العمل ، لا وصفه العلاج ».

ذكر حضرة الشيخ رحمه الله رواية عجيبة عن الشيخ إمداد الله رحمه الله ، فيما يسأل الناس من الدعاء والتصرفات فحسب :

لما قدم حضرة الحاج إمداد الله طيب الله ثراه الى بومباي ، سأله تاجر أن يدعو الله أن يرزقه حج بيته ، فقال بلى ، ولكن بشرط أن تملكني على نفسك يوم تقوم الباخرة ، فأقبض على يدك وأرفعك على متنها ، فتذهب بك ، اذ لا جدوى في دعائي بدون أن يقع ذلك ! .

إن أبا طالب عم النبي عليه أفضل التحية والسلام ، كان من أعظم محبيه والمشفقين عليه ، لما جاهده جميع الكفار وعادوه

لم يتركه أبو طالب ، بل ناصره ، وكان الرسول عليه السلام يبادله الحب كذلك ، فحاول محاولة عظيمة في أن يحمله على الاسلام ، لكن ذلك لما لم يؤثر فيه ، ولم ينفعه حب الرسول ومحاولاته أيضا صلى الله عليه وسلم » (١) .

وهنا كلمة نافعة قيمة وهي أن كثيرا من الناس يقولون إننا قد أردنا ، لكنهم في قولهم هذا كاذبون ، لان التمني غير الارادة ، ومثاله أن رجلين كانا يتحادثان في التوجه الى الحج، فقال أحدهما : إنه يريد كل مسلم ، قلت هذا كذب ، لانه اذا كان أراد ذلك ، لحجَّ ، بل يجب أن تقول انه من أماني كل واحد ، فمجرد التمني لا يغني من التحقق شيئا ، والارادة يعبر عنها بالتأهب ، فان كان رجل يهوى الزراعة ، لكنه لا يهيء لها عدة وأدوات . اما الآخر فيجمع لها الادوات اللازمة ، فيقال للاول متمن ٍ وللآخر مريد ، وكذلك رجلان يبغي كل واحد منهما البلوغ الى المسجد الجامع ، غير أن الواحد يتمناه لا غير، وآخرهما ينطلق يمشي ، فيدعى الثاني مريدا ، والاول متمنيا، والارادة كلما حصلت انتهت الى تحقق ، واذا فقدت القدرة على تحقيقها ، لوجد دليل يساعد البلوغ الى الغاية ، ولذلك قيل « السعي مني والاتمام من الله » .

---

(١) ان الارادة التي بحث فيها حضرة الشيخ هنا ، أو فيما يأتي . وقد كتب في موضوعها وليم جيمس العالم النفسي الكبير في العصر الحاضر سماه « ارادة الايمان » .

نقول وقد ترجم الكتاب الى العربية باسم « ارادة الاعتقاد » ترجمه الدكتور محمود حب الله ونشر في القاهرة عام ١٩٤٦ .

« وأحيانا تتولد في قلب الطالب حالة وكيفية ، تكون نتيجة للتوجيه المرشد الشيخ ، وهي لا تتولد من محاولة نفسه ، لكنها لا تنفع بمفردها ، واذا لم يرافقها من الطالب عمل زالت عنه ، ومثال ذلك التدفؤ بالنار التي تدفىء جالسـا عندهـا ، لكن الحرارة لا تبقى كلما ابتعد عنها ، وكلما هبت عليه الريـاح الباردة أصبح الجسم باردا ، فهكذا كلما فارق الرجل شيخه، أو نقص تأثير التوجيه ، بقي الرجل عاريا صفر اليدين كأنه لم يكن له عهد بهذا التأثير .

وكذلك كلما يكسبه الرجل بنفسه يختلف عما يحصل له مجانا ، بحيث يقدر الاول تقديرا ويتغافل عن الثاني ، ومثال ذلك أن رجلا كان ينظف حذاءه الخسيس ببردة صوفية ثمينة، فسأله الناس عن هذا فأجاب : إن الحذاء من كسبي ، أما البردة فهي من كسب أبي ، وقد أجاد الشاعر الفارسي اذ قال : ان من يشتري رخيصا يبيع رخيصا ، والطفل يعطي اللؤلؤة الثمينة في قرص أو كسرة خبز » .

« والذين يعملون بطاقتهم تتعادل أحوالهم طول حياتهم ، غير أنهم لا يتشدقون ولا يتفيهقـون ولا يتطاولون ، وليس ذلك مطلوبا ولا منشودا » .

فان الناس اتخذوا التصرفات محك الولاية، بأن الذي يذهل ويغمى كلما أصابته نظرة ، ثم يصرع ويقع على الارض ، فهو

الولي ، مع أن هذا الاعتقاد لغو" وباطل ، لانه اذا كانت من دلائل الولاية والقداسة ، لكان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعالجها ، فلماذا حدث ما حدث يوم همّ الكفار بقتله ان انتظر منهم أن يغفلوا فيفلت منهم ، ولما لم يذهلهم بنظرة منه واحدة » .

بل ان كل ما فعله في مثل هذه الاوقات ، فعله وهو متذلل لله ، ضارع له ، يدعوه كعبد ، وما كان تأثيرا ولا تصرفا ، أما الذي نراه في حادث سراقة بن جعشم المعروف الذي كان يتبع أثره وينطلق في التماسه عليه الصلاة والسلام ، لم يكن الا أن دعا في ذلك الوقت : اللهم اكفنا شره ، حتى انخسف فرس سراقة الى بطنه ، قال سراقة لعلك دعوت عليّ ، فأسألك أن تدعو الله أن ينجيني من هذا البلاء ، وأعاهدك أن لا أخبر قريشا عنك ، فدعا الله حتى خرج فرسه من بطن الارض .

« فيا أصحاب ، إنما محك الولاية ، هو ان الانسان كلما تقدم في الزهد والعبادة والتجرد ، ازداد مشابهة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لان الولاية مستقاة من النبوة ، ومما يؤسف له أن الناس لا يقبلون على العلماء ، ولذلك يتورطون في أخطاء كثيرة » .

البيعة

لقد وقعوا في افراط وتفريط في فهم حقيقة العلاقة بين

الشيخ ومريده نجد في جانب أن الناس عدوها حدثا في الدين، وفي الجانب الآخر اتخذهـا الناس كطقس من الطقـوس أن اكتفوا بأن يقبلوا اليد والرجل ولا يرغبوا في عمل أو فهم ، ولا يحتاجوا اليه وان كانت العلاقة بين الشيخ ومريده لاتجدي نفعا ، ولا ينفع الانسان الا عمـله ، وأن يمسك الانسـان بأهداف شيخ بصير يتخذه أستاذا له وموجها ، وان لم تتحقق البيعـة المعتـادة بينهما • ولا تفهم من هذا أن الدخول في السلسلة لا يأتي ببركات من الله سبحانه ، لا ، بل الامر أن اتخاذ البيعة أصلا من الاصول خطأ جسيم ، وقد فشـا في هـذه الايام الحاضـرة في النـاس جهل لحقيقة البيعة يقضي منه العجب •

وتتضح حقيقة البيعة ذاتها من كلمة البيعـة والارادة ومن اصطلاح المريد ، بـل ومن المعنى اللفظي كما أوضـح الشيخ فيما تقدم في موضوع حقيقة الارادة أنها ليست الترجي والتمني بل انما هي العكوف على تهيئة الاسباب والوسائـل اللازمة بها ، أو هو بدأ الرحلة الى الهدف فانمـا المريد هو الذي يتخذ تقويم نفسه واصطلاح باطنه مرامه وهدفه ، ويُعدُّ لهذا الهدف الوسائل والاسباب اللازمة ثم يبدأ رحلته اليه ، وليست حقيقة البيعـة سوى اختيـار رفيـق أو دليل عارف للوصول الى هذه الغاية ، ومرافقته واتباع أثره ليجتاز المراحل بكل سهولة وراحة ، فضلا عن أن يكون في مأمن من أخطـار

الضلال والتيه ، وفي لفظ آخر يمكن أن يقال انها تفويض النفس وتسليمها ليد رجل أعلم منه وأمهر ، ومربّ مرشد ، كما يسلم البائع ماله لمشتريه ، أو كما يفوض مريض نفسه الى طبيب ولا يعمل الا بما يوصيه الطبيب به أو يقترح به عليه عملا كاملا .

غير أنه اذا اعتز بأنه عالم عارف بدقائق العلوم يحسن فهم كتب الطب ، أو يكون قد قرأه على بعض الاساتذة ، مع أنه لم يجلس في عيادة ولم يمارس الطب عمليا ، فانّه اذا اغتر بذلك ورأى نفسه أهلا لمعالجة نفسه بما يقرأه من وصفات مدونة في الكتب فلن يزيد على اهلاك نفسه ، انه لا يتمكن من المعالجة ووصف الدواء بالصفة الدائمة الجدّية الا اذا جلس عند طبيب في مستوصفه وتمرّن على وصف الادوية واختيارها سنوات عدة وأعواما عديدة ، ان مؤلف كتب الطب الشهير الحكيم كبير الدين ليس بطبيب فحسب ، بل هو من المؤلفين الكبار في الطبّ ، مع أنه يشهد على نفسه بأنه لا يمكنه أن يداوي حتى الامراض العادية اليومية كالسعال والزكام ، وقد كان قبله علماء الطب البارعون (كالحكيم نور كريم الدريابادي) الذي قضى عمره كله في تعليم الطب ، وقد بلغ من البراعة في الفن وعلو الكعب في الطب أنه كان يتناول الطعام ويمشي في الطريق ، وهو يدرس ويعلم تلاميذه،

ومع أنه كان من الاطباء المعروفين واستاذا من أعظم الاطباء لم يكن يقدر على المداواة ولا يباشرها .

ولا يقتصر هذا على الطب فقط ، بل انما كل فن من فنون الحياة يشابهه ، فلا يستطيع الرجل أن يصنع منضدة أو يستخدم الحديد ويصنع منه الأشياء بمجرد المطالعة في الكتب والتعلم منها ، ولا يقدر أن يطبخ الطعام بمجرد القراءة في كتاب غير أنه يطبخه غير ناضج ، غير مكتمل ، وباضاعة وقت طويل ، واتلاف أشياء كثيرة في سبيل ذلك ، ولا يخلو عمله اذن من النقيصة ، وهي الفوضى وعدم الانسجام ، ولا يمكن لمريض أن يداوي نفسه بالقراءة في كتب الطب ، وان كانت تلك الكتب تضم كل شيء ، ومنها يستفيد الاطباء في مداواتهم، غير أنك لا تقدر عليها ، وان أمكن لك أن تداوي مرضا تافها فلا يمكنك بتاتا أن تعالج الامراض الهامة ، انه كان تعاودني الحمّى كل عام في آخر أيام المطر وكان من عادة الطبيب أن يكتب نفس الوصفة الوحيدة ، فقلت في نفسي ألا أنسخ هذه الوصفة حتى انتفع بها حين أحتاج اليها دون أن اضطر الى الطبيب ؟ ! ففعلت ذلكعاما ولم تنفعني ، فاضطررت الى استدعاء الطبيب فداواني فشفيت ، ثم تبيّن لي أن البلغم كان مرافقا للصفراء في ذلك العام ، فلو فعلت أن أنسخ هذه الوصفة أيضا بأنها مكتملة تضم رعاية البلغم مع الصفراء، فمن يدريني مقدار البلغم من الصفراء كل عام ، ولا يقدر زيادة

البلغم وقلته الا الطبيب الذي يعرف حالة النبض ، فلا يستطيع العلاج بالقراءة في الكتب الا الطبيب » (أشرف الجوامع).

« فغاية القول انه اذا لم يسر بارشاد الشيخ ولم يسكن اليه ، فلن يجديه شيء ، مهما ضاعف الجهود والمشقات وقضى عمره فيها ، وانما تقتضي هذه الطريقة الانقياد التام ، غير أن الامر يختلف اذا لم يعتبره شيخا له ، أما اذا اعتبره شيخا له فان تردد أو حكّم رأيه فلا يكسب الا الحرمان ، وان هذه العلاقة لمن أخطر العلاقات وأدقها وان لها لآدابا وقيودا » .

قد كان ذلك أمرا واضحا بينا وعاديا ولم يكن في حاجة الى هذا الافهام والتمثيل الضافيين ، الا أن السلفية الجافة والصوفية التقليدية كانتا على طرفي نقيض في التصوف في ماضي من الزمن ، فالطائفة الاولى رأت البيعة من المحرمات والمبتدعات المحضة ، والفريق الآخر أوجب البيعة وبالاخص طقوسه وتقاليده بعينها ، أما هذا العصر فلقد بلغ الامر بأهله الى أنهم أصبحوا لا يفكرون في اصلاح نفوسهم الديني ومداواة الباطن فضلا عن القيام به ، ولا يرون تعلّم الدين على منهاج صحيح ، وتعلّم المسائل الدينية ضرورة حتى ولا الاطلاع على مصادر الدين (الكتاب والسنة) مباشرة ، بل يكتفون بمطالعة تراجم الحديث والقرآن بالانجليزية ، وقراءة مقالات عن الدين منشورة في بعض الصحف والمجلات،

ويزعمون الاقتداء والاجتهاد والتجديد ، ويرون نفوسهم أهلا لذلك .

ومن الجهل المركب أن الانسان بالعكس من ذلك لايرى كفايته في دراسته كتب الحقوق والمحاماة قابعا في بيته ليخرج بعدها محاميا ، بل يرى من الضرورة المحتمة عليه أن يستمع الى المحاضرات الجامعية ويمتحن فيها ، ، ثم لا يكفيه ذلك ، بل انه يحتاج الى مصاحبة محام مجرب محنك والعمل معه بعد كل ما قدم من الدراسة والامتحان حتى يحصل تجربة ومرانا ، ولن يعد الناس الا محمقا ذلك الذي فوض قضيته الى رجل لم يزر محكمة، ولم يدخل في مجلس قاض ، وان كان من أشهر الاساتذة في الحقوق ، ولا يصير أحد عالما عارفا بالعلوم الطبيعية بمحض دراسته لكتب العلوم أو استماعه الى محاضرات الاستاذ الى أن يختبر الاشياء ويعرف حقائقها بتجربة وعمل في معمل كيماوي .

هذا وليست علاقة هذه الامور والمقدمات والتجارب الا لهذه الدنيا وبعالم الشهادة هذا ، أما المسائل الدينية التي تتعلق بمسائل ما بعد الطبيعة بعالم الغيب والآخرة ، فان كل زعيم وصاحب صحيفة ومحام يرى من اختصاصه أن يلعب بها ويأتي بآرائه الاجتهادية والتجديدية في هذا الموضوع .

وغاية ذلك أن مثل هؤلاء الناس بدأوا ينقدون التصوف ، ويبحثون فيه ، ويقدمون شهاداتهم الحاصلة من

وراء البحار لبحوثهم هذه، خطب عالم من هؤلاء العلماء على التصوف خطبة علمية جليلة معتمدا على علومه التي حصلت له من مطالعة الكتب ، فعلق عليه خليفة من خلفاء الشيوخ ، وقد كان من الذكاء على قسط ، فقال لو كان التصوف يحصل بمجرد المطالعة والدرس في الكتب لما رأيت غيرك أعلى كعبا منك في التصوف والطريقة ، فحقيقة « الارادة » و « البيعة » انما هو الخروج لنشدان كمال الدين ، أو مرتبة الاحسان في الدين، واقتفاء رجل أعلم من هذا المقتفي وأعرف من هذا المتبع ، وبلفظ أخر اذا كانت علاقة مرتبة الدين هذه باصلاح القلب والباطن ، أو ابادة أمراضه ، وجب اذن أن يسلم نفسه الى طبيب نطاسي مثقف ليداوي تلك الاسقام .

وقد عبّر حضرة الشيخ عن هذا بعقد عهد بين الشيخ والتلميذ ، أو المرشد والمريد ، يتعهد فيه الشيخ بالارشاد والاصلاح ، والطالب بالاتباع والتقليد . ولما عرفنا حقيقة البيعة هذه ، بان لنا أن البيعة التقليدية ليست من الواجبات في شيء ، ولا فائدة فيها الا تحصيل بركات السلالة (السند) . أو أن فيه فائدة نفسية كما كان يقول شيخ يجمع بين المعرفة والذوق من حيدر آباد اسمه (الشيخ محمد حسين رحمه الله) أن المريد يهب شيخه أذنه ويعيره سمعه ، يعني انه يستمع الى كلام المرشد أكثر من غيره بالطبع ، ثم يمتثل له .

الا أن درجة هذه البيعة التلقيدية لدى حضرة الشيخ، يمكن أن تقدر بأن الشيخ أراد مرة أن يمنح رجلا من مريديه خلافه واجازة ، فقال انه لم يبايعه حتى الآن ، فقال اذن أقبل وبايع ، وكان الشيخ يقول مرارا اني لا أعرف من دخل في بيعتي ، واني لا أحفل ولا أرى الا الذي له صلة بالعمل والجهد ، وكان يطرح على المبايع مثل تلك الاسئلة الشديدة التي تكشف حقيقة البيعة وغايتها ، لانه ليس في أذهان الناس عن أهداف البيعة الا ملخصها : « بعضهم يبغون أن يصبحوا من أصحاب الكشوف والكرامات ، فانها لا تلزم حتى للمرشد ، فكيف يحسن للمريد أن يحرص عليها ، وبعضهم يظنون أن الشيوخ سيكفلون ويشفعون ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه قال لفاطمة رضي الله عنها : « يا فاطمة انقذي نفسك من النار فاني لا أغني عنك من الله شيئا » فكيف يمكن أن ينقذ شيخ مريده اذا لم يرض المريد بذلك » .

« ويظن بعض الناس أن الشيخ سينقل مريده في نظرة واحدة الى الكمال ، فلو كان الامر هكذا لما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم الى أي جهد ، اذ لم يكن في الناس أكمل نظرا وأعظم تأثيرا من الرسول عليه الصلاة والسلام . ولو وقع ذلك حينا ما ، خرقا للعادة ، فلا يقع مرارا ، فان الخوارق ليست دائمة لازمة ، ومن الخطأ العظيم أن يتكل عليه الانسان » .

« ويحب بعض النـــاس الثورة والزمجرة والاضطراب والغيبوبة ، وان تنعدم الذنوب دون أن يحاول محوها ، أو إزالتها ، وأن تزول الشهوات ولا يفتقر الى ارادة الخير، بل أن تصدر الحسنات من غير ارادة بنفسها ، وأن تفنى الوساوس والخواطر ، وأن يدوم له عالم الغيبوبة والامّحاء،ويرون هذا الاخير أعلى من الخواطر السابقة ، مع أن منشأه كذلك هــو الجهل ، فأن هذه الامور من الكيفيات والاحوال التي هـــي خارجة من الاختيـــار ، وان كانت محمودة فليست مقصودة، بل ويوجد في مثل هــذه الاماني كيـــد خفي من النفس ، اذ المطـــلوب هي الراحة والمتعـــة والسمعة ، وتوجد هذه كلها في هــذه الاحــوال ، والا فمـــا لطـــالب الرضـــا المقصود ولهذه الاماني ، يقول الشاعر الفارسي العارف :

« دع النأي والوصل وانشـــد رضا الحبيب ، لانه من العار أن تطلب منه غيره » •

ثم مثل هذا الرجل يقع في نوعين من الفساد ، أولهما أن هذه الاحوال لو حصلت له فلا بد من أن يرى نفســـه كاملا ، لانه كان يحسبها من غاياته ، وأن ينصرف عن تقواه وطاعاتـــه التي كان يعالجها ، اذ يقتنع بتلك الصفات التي حصلت لـــه ، ولا أقل من أن يبدأ الاستخفاف بالطاعات ، وإن لم تكن حصلت له تلك الصفات فيكاد يموت جزعا ، فانه لا يزال طالبا لما ليس في اختياره ، ولن يزال واقعا في الجزع والقلق على الدوام •

« وبعضهم يحسبون ان « حجب » الشيخ ناجعة جـدا ، وسنحصل منه تلك « الحجب » والطلاسم اذا احتجنا الى ذلك، أو أن الشيخ مستجاب في دعواته دون شك ، سنسأله الدعاء في شئوننا وقضايانا وتقضى بذلك أمورنا كلها ، كأنما العوالم كلها في يد الشيخ ، أو نحن سنتعلم منه هذا ، بل مثل هؤلاء الناس لا يرون أصل الكرامة كلها الا هذه الاعمال وآثارها ، مع أنها طلب للدنيا فليست الا فسادا في فساد » .

كان يقول لي يوما موظف كبير من حيدر آباد مثقف محافظ على الصلاة والصيام ، أنه لم يبق من أولياء الله أحـد ، لِمَ ؟ لاني حاولت في دكن وفي الهند كلها أن أنقل من موضع فلاني الى العاصمة فلم أجد في الشيوخ من يحقق أمنيتي ! . . .

« وبعض الناس يظنون أنهم سيرون أنوارا وسطعات اذا ما ذكروا واشتغلوا ، أو أنهم سيسمعون أصواتا ، فليس هذا كله الا تهوسا وبلاهة ، انه لا يجب أولا أن تحصل تلك الآثار على الذكر والشغل ولا يحتاجان الى ذلـك ، وثانيا لا تكون تلك الانوار والاصوات في بعض الاحيان الا وليـدة ذهنه ، وليست شيئا آتيا من عالم الغيب ، وثالثا لو انكشفت أشيـاء ذلك العالم فأية فائدة من ذلك ، اذ لا يزداد التقرب بتكشف عالم ، انما خلق الله للقرب اليه الطاعات ، قد يرى الشياطين الملائكة في بعض الاحيان ، ولا يزال هؤلاء الشياطين شياطين ، ثم ستنكشف حقائق ذلك العالم بعد الموت ، للمؤمن والكافر

على السواء ، أفيحصل بذلك القرب المقصود لكل أحد ؟ ! » .

فالغاية أن هذه الاشياء ليست من أغراض البيعة الحقيقية، ولذا يجب عليه أن يخلّي نفسه منها كلها ، ويعلم الغاية الاصيلة والمقصود الحق من السلوك ، هو رضا الله سبحانه ، وطريق ذلك امتثال الاوامر المشروعة والمواظبة على الذكر « وهي إزالة الغفلة » ، وحقيقة العلاقة بين الشيخ والمريد هو أن الشيخ يعلّم والمريد يعمل به ، ولو لم يجد كيفيته وحالته ، ولو لم يحرز كمالا ، كما يظن هو فانه سيرى ثمرة ذلك ، وهي رضا الله سبحانه ، ومن هذا الرضا سيحصل الدخول في الجنة ولقيا الرب سبحانه ، والنجاة من النار ، وذلك بأن يعد الشيخ بتلقين ذلك ، وأن يتعهد المريد باتباعه في ذلك ، وتلك هي حقيقة الارادة والارشاد .

« وإن كان يمكن هذا التعليم بدون البيعة المتعارفة ، غير أن البيعة من طبيعتها أن الشيخ المرشد يعظم إقباله وعنايته بالرجل الذي يبايعه ، والمريد يرغب في كمال اطاعته ، وذلك حكمة تحديد شيخ مرشد وتعيينه ، اذ تكثر بذلك العناية ، أما وضع اليد في اليد ، أو أن تمسك امرأة بطرف ثوب وتبايع الشيخ فليسا هما الا من العوائد المستحسنة لتوكيد هذا العهد، لا أنه من عناصر المعاهدة أو البيعة ، ولذلك لا ترى في أمر الغائب الذي ليس بموجود تلك العادة، وقد ورد هذا الاستحسان

في السنة ، فقد أثر في الرجال وضع اليد في اليد ، وأما اعطاء الثوب في اليد فانه يقوم مقام أخذ اليد » .

أما أخذ اليد حسب العادة والتقليد أو تناول يد مرشد وبالاخص يد شيخ بالاسم ، فهو أقرب الى الهزل منه الى الجد، وقد تحدث الشيخ عن ذلك في حماسة وقوة .

« لا طائل تحت هذا التعلق الفارغ ، ولا تحت هذه البيعة الاسمية الرسمية ، ولا لزوم لصورة البيعة ، الاصل هو روح البيعة ، أي الاتباع ، ولا حاجة أن يدخل الانسان في «ارادة» شيخ ، إبدأ عملك بتوجيه المرشد وقد تحققت العلاقة بينك وبينه ، وستجد حتما ذلك النفع الذي نعتقده في البيعة و « الارادة » ، واني لاعجب للناس أنهم لا يعملون اذا أمروا بالعمل ، ولا يريدون الا اسم البيعة ، لذلك ترى ان المرشدين الذين يأخذون البيعة ، ولا ينصحون بعمل ، تجد مريديهم أعظم سرورا بذلك ، لان العمل شاق على النفوس ، والبيعة التي لا تكلف شيئا ترغب فيها الطباع ، أما أنا فلا أبايع بل أنصح بالعمل فيسخطهم ذلك » .

وزعموا أن الاسرار الخاصة بالصوفية ، ورموز الحب لا تباح الا للمريدين ، فلا يبايع أحد الا ويلقّنه الشيخ رمز المحبة وسر الطريق ، فيصبح المريد من العارفين الواصلين ، عليك بذكر الله واتباع رسوله ، وذلك هو الوصول ، وهو رمز الشريعة والطريقة ، وراجع الشيخ في طرق اصلاح النفوس ،

وهذه هي الاسرار ، ان كانت هنالك أسرار ، ولو سأل أحد هل هذا هو الطريق الباطني ، تقول له بأعلى صوتنا ، وملء أفواهنا ، هذا هو الطريق ، وانه ستعرض أحوال عظيمة ،وتطرأ حالات جليلة بيد أنها ليست مقصودة •

انما الاحوال أشجار زاهرة في جانبي الشارع سواء رأيتها أم لم ترها ، وستقطع الطريق على كل حال ، وتصل الى المنزل، ولا يشترط فيه الا مداومة السر ، ولا يرى بعض الناس هذه الاشجار والرياحين طول العمر ، ولا ريب في أن التي تراها أحوالا وكيفيات ، انما شأنها شأن الورد ، الورود والرياحين المنسقة المرصوصة على جانبي الشارع ، واذا غضضنا طرفنا في سيرنا ولم ننظر الى تلك الاشجار والازهار ، أفلا ينقطع الطريق اذن؟! لا بد أن نقطع الطريق ونطويه ، سواء أبصرنا الشجرات ، أم أطرقنا رؤوسنا ، ومررنا لا نعرج على شيء ، ولا تحين منا التفاتة الى شيء •

« والغاية أنه لا بد من السير ، ولا بد من الرفيق، للوصول الى المرام ، ولاستقامة الاتجاه في السير ، فلو ابتغى ضرير الوصول الى موضع يتحتم عليه أولا أن يمشي ، فانه اذا لم يمش فلا يجذبه ألف رفيق وألف دليل ، وانه اذا ما مشى فسيحتاج الى رفيق، لانه بدونه لا يسلم من العثار والزلل ، ولا يعرف الطريق المستقيم ، والمفروض عليه اذا توخى السلامة في المشي والوصول ، أن يمشي بقدميه ، ويستصحب رفيقا

دليلا ، فالطريق والتصوف لا يجاوز هذا المثال ، فالارادة وبدء العمل كالمشي على القدمين ، والتشبث بأذيال شيخ كامل ، كوضع اليد في دليل خِرِّيت » .

الصحبة والاواصر

ان ضرورة البيعة العظيمة هي هذه الرفقة ، أو صحبة الشيخ وإحكام الرابطة به ، ليسلم الطالب من أخطار الطريق وعثاره ، وهو أمر بديهي لا يحتاج الى دليل ، فالرجل لا يستطيع أن يستغني حتى في الامور التافهة الواضحة من أمور الدنيا عن صحبة ماهر فيه عارف بحقيقته وكنهه واعانته للبراعة والتبصر فيه ، وشتان بين معلومات فن والتبصر في ذلك الفن ، ونستطيع أن نكتب معلومات وحقائق من كتب فن تنسيق الحدائق وغرس الاشجار والفلاحة ، بيد أننا اذا شرعنا في الفلاحة وغرس الاشجار معتمدين على معلومات كتابية ، ودراسات نظرية ، أفلا نعثر ونخطىء في كل خطوة من خطوات ذلك العمل ؟ ! وبالعكس من ذلك ، لو قضينا مدة من الزمان في صحبة زارع فلاح ، نعمل تحت اشرافه ، اكتسبنا بصيرة ومعرفة في خفيّها وجليّها ، حيث لو فوضت الينا قطعة جديدة من الارض لما وجدنا في العمل فيها صعوبة وتعثرا .

أما في هذه الايام فقد أصاب الناس عدوى هذا المرض كالوباء ، وبالاخص في أمور دينهم ، بحيث ينهضون للتجديد والاجتهاد في الدين ــ فضلا عن الاتباع ــ معتمدين في ذلك

على مجرد القراءة والمطالعة ، فمن نتيجة ذلك أن كثيرين من أصحاب المعلومات الدينية والدراسات الواسعة ، الذين لم يصحبوا شيخا يَضلون ويُضلون ؛ واني لا أعد حالة أمثال هؤلاء ، الا كحالة مسلم حديث الاسلام ، تلقى اسلامه كله من مطالعة الكتب، ويقوم بكل أعماله من صلاةوصيام وزكاة وحج، وجميع فرائضه وسننه وأركانه وشروطه ، باستعانة الكتب ، ومن المطالعة فيها ، انه ليستطيع أميّ" تربّى في بيئة المسلمين المتدينين ، وفي وسط ديني ، أن يصلي ويصوم بطريق أحسن، بمجرد مشاهدة آبائه ومن حوله يصلون ويصومون ، وكذلك لا تجد فنا من الفنون ولا شعبة من شعب الحياة الا ولا بد للبراعة فيها من صحبة رجل ماهر فيها .

« أترى وصل أحد الى الكمال والجودة بمجرد مطالعة الكتب ؟ ! وانه لامر ملموس واضح أن الرجل لا يقدر على عمل النجارة الا اذا جلس مع النجار زمانا ، ولا يقدر أن يتناول آلة من آلات النجارة البسيطة ويرفعها كما يرفع النجارون ، الا اذا جلس مع نجار حاذق يتعلم عليه ، وكذلك شأنه مع آلات الخياطة وصناعات أخرى ، ولا يقدر على اجادة الخط الا اذا جلس عند الخطاط وأبصر كيف يتناول القلم ، وكيف يُمرّه على الورق ، فغاية الامر أن أحدا لا يستطيع أن يصبح كاملا الا اذا جلس عند شيخ كامل ، وأن صحبته لازمة » .

ومن أقوى الادلة على أهمية الصحبة وضرورتها لدينا ، هي الصحابية ، ان أدنى رجل من الصحابة أفضل من غير شك من أكبر محدث او فقيه وأعظم ولي أو غيره ، والذي لا شك فيه ، أن سبب هذا الفضل والسمو ، ليس الكتب ، اذ الصحابة أكثرهم أميون ، ولا كثرة المعارف والمعلومات ، اذ أصاغر العلماء من بعدهم كانوا يعلمون تفاصيل الدين أكثر منهم ، فلا يعدو سبب فضيلتهم هذه صفة صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التي لا يمكن أن يحصل عديلها لاكابر العلماء من بعدهم ، فضلا عن أن يحصلوا أقلها وأدناها، ويعرف الذين لهم أدنى تجربة ، أن ما يحصل في صحبة يوم واحد ، لا يحصل من مطالعة الكتب سنين طوالا ، ولا مغالاة في هذا !

حيث يقول الشاعر ما معناه :

ساعة تقضيها في صحبة الاولياء
خير من تعبد قرن كامل بدون رياء

فلضرورة الصحبة المحتمة هذه ، ألح عليها خصوصا في جميع المناسبات التي جاءت في كتاب « قصد السبيل » وكتاب « تعليم الدين » ، وصرّح أن الطالب اذا وجد وقتا وفرصة بعد البيعة ، يجب عليه أن يكون في صحبة الشيخ ، أو يداوم المجالسة في حضرة شيخه ، أو في حضرة رجل صالح صحيح العقيدة .

وانه اذا تسنت له الصحبة لامد أطول ، استنارت بصيرته ، حتى يصبح يعتقد حالته السابقة شيئا من الحماقات والسفاهات ، وقد كان هذا شأن محرر هذه السطور وقصته ، فقد كنت درست كتبا وعشت في وسط أصحاب العلم المجرد ، ونلت شهادة الفراغ ، وكنت أعد نفسي من الكتّاب والمؤلفين، ولم أكن دون أترابي وزملائي في الفطانة والذكاء ، بيد أني بعدما حضرت مجالس حضرة الشيخ عدة مرات ، استبان لي أني لم أكن الا رجلا من الاغبياء الاجلاف من ناحية الفهم الديني والبصيرة الدينية ، يقول الشيخ :

خذ رجلا غير عالم ــ مهما كان عاقلا ــ ولم يكن صحب عالما محققا ، فابعثه في صحبة محقق لستة أشهر ، اني أحلف بالله أن ذلك المحقق سيثبت ، ويجعل هذا العاقل مقراً بلسانه بأنه سفيه ، وليس عندي طريق أقوى للاقناع من أن أحلف بالله ، وليس وراء الله للمرء مذهب ، فلو احتجت الى حجة أكبر من هذه ، فعليك بالامتحان والتجربة العملية ، وذلك بأن تطلب اجازة لمدة ستة أشهر ، واسألني عن اسم محقق ، ثم ترى أنك ستقدم وأنت تقول «اني عاقل» ، وتنصرف وأنت تقول « اني كنت سفيها » لانك كسبت العقل ببركة صحبة ذلك المحقق .

دع البصيرة العلمية والدينية ، أو الباطنية ، فمقامها عال ، وخذ الحياة اليومية ، فالذي نسميه فيها الادب

والحضارة والاناقة ، لقــد شعرنا ــ بعــد ما حضرنا مجالس الشيخ وصحبنــاه أيامــا ــ بأننا كنــا مخدوعــين وآخذين بالقشور والمظاهر ، حضر شاعر من جونبور ، وقد كان متحليا بالمدنية وأخلاقها ومظاهرها .

« لمــا رجع بعد قضاء عدة أيام ، كتب رسالة فحواها : ان الذي كنا نسميه ثقافة وأدبا ، عرفنــا عنها ، بعد ما حضرنا هناك «في تهانة بهون» أنها لم تكن من الثقافــة والآداب في شيء . قال طبيب ، بعدما قضى عدة أيام ههنــا ، ان الامور التي كنا نعــدها من الكمالات ظهرت نقائص ، والتي كنــا نعدها فضائل ظهرت معايب » .

إفراد الشيخ

وتحدث الشيخ في هذا الموضوع عن نقطة مهمة ، يجب أن لا ننسى أنه أشار الى ضرورة تفريد الشيخ ، وتوحيــد الصحبة ، وبالاخص في الحالة البدائيــة ، وفي حالة النقص ، اذ لو كانت صلتنــا بشيوخ عدة ، أو اذا حضرنا في مجالس رجال الله المختلفين في صيغتهم وذوقهــم لوقعنــا في القــلق النفسي والتشتت الفكري ، بدل الجمعيــة والطمأنينة ، لاجل تلك الحرية والانطلاق .

« كتب الامام الغزالي أن سلامة الانسان متوقفة عــلى التقيــد ، وأن الاطلاق مضر له ، اذ لا تحصل الطمأنينــة

والراحة دون التقييد » مثلا أردنا أننا حينما نمرض، نراجع فلانا الطبيب فبذلك حصلت طمأنينة ، وهي أن الطبيب موجود، اذن فلا مخافة من المرض ، ولن نحتاج كذلك الى التفكير عندما يطرأ المرض فيمن نرجع اليه في المرض ونستشيره .واذا كنا غير مقيدين مثلا ، ولم نكن ملتزمين بطبيب خاص لنا ، فاذا طرأ أمر فرجعنا الى طبيب ، وطرأ آخر فاستشرنا طبيبا آخر ، وطرأ ثالث فراجعنا ثالثا ، فلن نجد بذلك طمأنينة وسكينة لقلوبنا ، بل لن نزال في الهم والتفكير الى من نرجع في هذه الطارئة أو في تلك ؟ ! » .

وضرب حضرة الشيخ هذا المثال ، وهو أحسن مثال ، اذ نجرب ذلك ونراه كثيرا كل يوم صباح مساء ، في مداواتنا للامراض الظاهرية البدنية ، وبالاخص في هذه الايام ، فقد أصبحت الحال لكثرة الاطباء وتنوع طرق العلاج وحرية الطبائع أن المريض يصير بذلك موضع التمرين والتجربة للاطباء وطرق العلاج القديمة والحديثة ،كل يجرب عليه طبه وطريقة علاجه ، فلا تزول طمأنينة المريض والممرضين في ذلك، ولا يضيّع في ذلك الاموال الطائلة فحسب ، بل ويتعرض المريض للهلاك بسبب وقوع المعالجات الكثيرة المتنوعة عليه ، فانه يجب عليه أن يختار طبيبا بتدقيق وتحرّ ، وان كان من المتوسطين ، غير أنه لا يكون همه في كيس المريض ، بل في صحته وشفائه ، وازالة ما يعانيه من سقم وألم ، ثم اذا لم

يشف المريض من مرض هام ، بعد طول ممارسة الطبيب العلاج ، فاذن يستشيره في مراجعة طبيب آخر ، ويشركه معه في المعالجة .

هذه تجربتي الشخصية ، وهو الذي اخترته لنفسي ولاهلي جميعا ، وكان فضل الله عليّ أن رزقت طبيبا مخلصا[1] لايجاوز بصره مرض المريض ، ولا يعدو رضا الله سبحانه الى شيء آخر ، فمن مرض سلمته اليه ، والحمد لله ، على أني لم أضطر في هذه المدة الطويلة التي تقارب خمسا وعشرين سنة ، (مدة اقامتي في لكهنؤ) الى معالج آخر مباشرة واقتراحا من نفسي ، وان احتجت سألته في ذلك وأشركت معه طبيبا آخر في المعالجة باقتراحه ورأيه ، وقد رزق الله الشفاء للجميع ، غير البعض الذين جاءهم الاجل المحتوم ، ولم يكتب لهم الشفاء ، سواء كان ذلك الشفاء بطيئا أو عاجلا ، وان الطمأنينة التي تحصل للقلب بهذا المنهاج ، والطمأنينة والارتياح الذي يغمرني قبل المرض وخلاله وبعده فلا يعرفه غيري ، جزى الله عني هذا الطبيب المخلص الشقيق خير الجزاء .

ومن سعادتي التي تفوق هذه السعادة ، أن الله سبحانه وتعالى قد قيض لي طبيبا ومرشدا ، وهو الشيخ التهانوي ،

---

(١) هو صديقي الدكتور السيد عبد العلي الحسني مدير ندوة العلماء أطال الله حياته . (المؤلف)

توفي الى رحمة الله تعالى في ٧ مايس سنة ١٩٦١م (المترجم) (المؤلف)

الذي لم أحتج بعد اتصالي به الى فوضى واضطراب في تربية النفس ومعالجة الامـراض الباطنيـة ، حيث لم أحتـج الى حرية ، وقد كنت تعلمت في معهد علمي ، ميزته الكبيرة الحرية والانطلاق ، وكنت في الدرجة الاخيرة من السـل الباطني ، فكل ما بقي فيّ من رمق الحياة ، وكل ما بقي للنفس مـن الطمأنينـة والسكينة ــ رغم أمراض الجسم المتنوعة والمتاعب المختلفة ــ انما يرجع الفضل في ذلك كله ، الى علاقتي بالشيخ وكتاباته ، ولولا هذه القوة الباطنة لمـا استطعت أن أقـاوم العلل العسيرة والصدمات العنيفة التي أصبت بها ٠

وأقو لــ على أساس من تجربتي وتجربة كثير غيري ــ للذين لم يقدر لهم أن يكون لهم اتصال بالشيخ ، بأن كتابات حضرة الشيخ في المنزلة الثانيـة من الشيخ ، فمن لم يستفد بذاته فليستفد من كتاباته ، وليبدأوا من مواعظـه وأقواله ، وليقدموا ملفوظاته ، فانها تقوم مقام صحبة الشيخ ، وقـد أوصى الشيخ من فاتته صحبة الشيوخ أن يطالع «ملفوظات» المشايخ ، على أن تكون النية هي الاصلاح الديني والباطني ، والاستفادة دون التحقيق والبحث والنقد كما ترى في هـذه الايام ، يقول في موعظة له كان موضوعها « التقوى » وقـد ذكر كيف ينشىء الله المحبة بالله وطريق ادامتها :

« طريقة ادامة هذه المحبة هي أن لا تدع صحبة أولياء الله ، اذا لم تقدر على الكثير منها فمرة في الاسبوع أو مـرة

في الشهر ، والخاصية في ذلك أن الصفات التي توجد عندهم ستنتقل حينا فحينا اليك ، واني لا أحملكم على هجر أعمالكم في الدنيا ، بل أصحبوهم في اوقات فراغكم ، واذا لم تتمكن من ذلك فاقرأ أقوالهم ، لكن ليس كما تقرأ كتب الاخبار ، أو كما تطالع فنا من الفنون » •

يجب قراءة ملفوظات الشيخ التهانوي بالاخص ، لانها تلائم الاحوال السائدة والتجديدات الحالية ، بل وأخاف من قراءة أقوال الاولياء القدماء أن تنشأ بها أخطاء في الفهم، وسوء ظن بهم ، وبهذا الطريق ، وعلى وجه الخصوص على المبتدئين وقليلي العلم من الناس ، لم يزل اتصالي طيلة عمري برجال تعلموا العلوم الحديثة وتأثروا بأفكار العصر ، فناولتهم أولا « ملفوظات » الشيخ دائما ، فلم يكن أن زالت عنهم الاخطاء المنوعة ، التي كانت وقعت لهم ، ووقعت في فهمهم ، ومُحِيَت ، بل وزال ما وقعوا فيه من سوء الظن بالدين ـ فضلا عن التصوف ـ ونشأ عندهم ذوق ديني ورغبة في الدين •

الصحبة تشرب القلب الدين

وليس من ثمرات صحبة أولياء الله حصول البصيرة الدينية وفقهه، بل ان من خاصة الصحبة الطبيعية والنفسية أنه ينتقل كل ما في صاحبك الى نفسك شيئا فشيئا ، وبتأثير ذلك يختار الرجل الاعمال كذلك ، ولو متكلفا اياها ، ولتعويد نفسه بها،

غير أن الدين بغير الصحبة قلما يسري في القلب وقلما يستقر فيه ، وصورة مثـل هذا العمل تشبه عمل أجير أو خـادم موظف ، لا علاقة قلبيـة بينـه وبين المستأجر المستخدم ، فهذا هو الذي تحدث عنـه الشيخ في موعظته المذكورة المعنونـة بالتقوى اذ قال : « العمل شيء آخر ، ولكن أصل الدين هو الذي يدخل في قرارة القلب وسويدائه ، وهذا يقتصر عـلى الصحبـة » .

فالغاية هي صحبة المحققين من أولياء الله ، واذا لم تقدر ذلك ، فقراءة أقوالهم على الاقل بالتوالي والدوام ، ومطالعتها لاصلاح النفس ، والافادة منها لازمة ضرورية ، لالفهم الدين الصحيح وحصول بصيرته التي هي عبارة عن نور الباطـن ، كما أن البصر عبارة عن نور الظاهر ، بل ينتقل بذلك ايمـان أوليـاء الله وعملهم الى باطننـا ولا يقف ، بـل ويجـاوز القالب والجسم الى القلب والروح ويرسخ فيهما .

لكن عجبا للناس ، اذ لا يعبأ بهذه الحقيقة المكشوفـة الظاهرة العقلية رجال مثقفون عقلاء ، لانهم رأوا في براعتهم في العلم والتأليف ، وفي سعة معلوماتهم ، كفايـة لاصـلاح انفسهم ، بل واعتمادا على ذلك يتزعمون حركات الاصـلاح المستقلة ، ويصبحون قادتها ، فيصبحون بذلك ، مع ذكائهم المفرط وبراعتهم ، كطبيب ، ومعالج لم يجلس عند طبيب أو مرب وبدأ معالجته نفسه ومداواة غيره ، معتمدا على علومه الكتابية

وذكائه المطبوع، وبعد ذلك يستبعد منهم أن يقلدوا أحدا، وأن يتبعوا غير أنفسهم ، غير أن الطريق ليس بمسدود . والماء ليس بمفقود ، اذا كان القلب موجودا والظمأ باقيا ، فلا تتعب نفسك كثيرا في طلب الماء ، واهتم بوجود الظمأ ، فانه اذا وجد عندك الظمأ الصادق ، نبع الماء وفار من كل مكان.

* * * *

الحبّ والعشق

لا يعتبر الحب والعشق من خصائص التصوف عند الصوفية المسلمين في جميع طبقاتهم المثقفة، وغير المثقفة، العامة، والخاصة، على السواء. ومن صميم التصوف فحسب (حتى أنه سمي التصوف بطريق العشق) بل انك تجد هذه الفكرة في جميع الاديان والفلسفات التي تتبنى فكرة ومنهاجا، كفكرة التصوف و منهاجه، أو ذلك الذي يدعى في الادب الغربي بالسرية، بل وتجد الحب والعشق من أعاظم عناصرها، و قد بالغ المحققون الغربيون وزعموا أنه جاء الحب والعشق في متصوفي المسلمين من التأثيرات الخارجية، وغلوا في ذلك غلوا، فقالوا عن نفس التصوف انه نشأ أخيرا في الاسلام، وهو من نتائج التأثيرات الخارجية، وان كان التصوف الاسلامي عند الصوفية المحققين عنوانا لعين الاسلام و شريعته بل ولكمال الاسلام وشريعته، حتى ان صوفيتنا يعدون الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه مُقدَّمَ هذه الطبقة وقائدها، وها هو مفهوم تجديد شيخنا المجدد عليه الرحمة كما علمت فيما ذكرناه.

وقد استنبط حضرة الشيخ ألفي مسألة للتصوف من القرآن والسنة بدلالات ظاهرة غير خفية ، وقال اني لو أطلت التفكير لاستخرجت بقدرها مسائل أخرى ، وستجد شيئا من أمثلة ذلك في مواضعها فيما يأتي ، وما أردت من هذا البيان الا أن أقول انه لما أمكن للتصوف الاسلامي أن تستخرج مسائله الاساسية والفرعية من الكتاب والسنة بهذا المقدار الكبير ، فما هي الحاجة الى الاقتباس من غير الاسلام ؟! أما الاصطلاحات والتعابير السائرة في التصوف اليوم ، فهي ليست الا وسيلة لتوضيح المسائل ، ولو أنها مسائل خارجية كشغل (باس أنفاس) وغيره ، ومثاله كما قال حضرة المجدد كمثال التدبير الذي اقترحه سيدنا سلمان الفارسي في غزوة الخندق وأخذ به الرسول عليه السلام ، فيمكن بصدد ذلك أن يقول قائل ان الجهاد الاسلامي كان مقتبسا من التأثيرات الفارسية أو الرومية ، فهل يصح له أن يقول هكذا ؟ ...

ووقع المحققون بسبب الاصطلاحات غير الاسلامية في أخطاء جسيمة . والحقيقة في ذلك أن الاصطلاحات نوعان ، أولهما يتعلق بالغايات (مثل الرضا والتقرب وغيرهما) ، على أنهما ليسا خارجين عن الشريعة ، بل ان حقيقة اصطلاحات التصوف في الغايات هي ما ذكرت في الشريعة ، والثاني من الاصطلاحات ، هو ما يتعلق بالامور الزائدة ، وهي التي يمكن لها أن تستقل عن الشريعة ، مثل تجدد الامثال والتوحيد الوجودي وشغل الرابطة وغير ذلك .

أما تعليم الحب والغرام فليس الا أنهم لو استقرأوا القرآن لعلموا أن كون الرجل مؤمنا ، هو نفسه يستلزم الحب والغرام فضلا عن أن التصوف يحتاج اليهما ، فقد قيل (والذين آمنوا أشد حبا لله [1]) ، وهل الحب الشديد سوى العشق كما ورد في الاثر الشريف عن المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » .

العشق من لوازم الايمان :

فحينما قلت آمنّا فكأنما قلت عشقنا ، وكما أن واحدا اذا أبى اعطاء نفقة الزوج بعدما تزوج ، وقال انني لم ألتزم باعطاء النفقة ، بل انما قبلتها زوجا لي فحسب ، فلا بد اذن أن يقال له انك حينما قبلت الزواج فقد فرضت على نفسك نفقتها وحقوقها ، فهكذا حينما يشهد الرجل بكلمة « لا إله الا الله » أصبح عاشقا ، فان هذه الكلمة تجعل قائلها مؤمنا ، أما المؤمن فقد قيل عنه (والّذين آمَنُوا أشَدُّ حُبّاً لله) ولذلك أصبح الناس جميعا مع التصديق والشهادة عشاقا ، فلا تنكروا ، وأدوا حقوق العشق عليكم ، وائتمروا بأوامر المحبوب طائعين منقادين .

الحب العقلي

غير أن الاوامر الاسلامية ، كما أنها تأبى الشذوذ

---

(1) سورة البقرة الآية /١٦٥/ .

والافراط والتفريط في كل ناحية من النواحي كذلك التلهّب، والثورة والولهان ، وخرق الثوب في الحب، ولا يجوز أن يعد ذلك كله من الغايات المأمور بها ، أو ترجو فيها أجرا ومثوبة ، مع أن رجلا ضعيف القلب أو مغلوبا على أمره اذا تلبّس بهذا يعد مغرورا ، وليس الاصل في هذا الحب الايماني الذي ثبت في قوله (أشَدُّ حُبًّا لله) ويدعى هذا الحب حبا عقليا لا حبّا طبيعيا ولا حبا نفسيا ، يقال له في العرف عشقا ، وقد سأل رجل عن الفرق بينهما وأيهما أفضل قائلا : في كتاب الصراط المستقيم[1] .

لقد آثر الشيخ اسماعيل الشهيد الحب الايماني او العقلي على الحب النفساني أو العشق ، وأثبت أن طريق العشق لا يخلو من الذم والنقيصة ، مع أن الصوفية الاجلاء كالشيخ الرومي والجامي مدحوه مع أن الصوفية الاجلاء كالشيخ الرومي والجامي مدحوه وأثنوا عليه ، فليخبرني حضرة الشيخ برأيه في هذا الصدد بالتفصيل » .

فرد الشيخ على هذا السؤال ردا يشتمل على علم كبير ومعرفة دقيقة :

الفضيلة أولا نوعان أحدهما باعتبار ذات الشيء ، وثانيهما ما يختص بحالته الخاصة ، يجدر بنا أن نسمّي النوع

---

(١) كتاب عظيم في التصوف والاصلاح أصله افادات السيد الامام المصلح الكبير السيد أحمد الشهيد (١٣٤٦ هـ) ، قيدها العلامة الكبير الشيخ اسماعيل الشهيد ومولانا عبد الحي البرهانوي .

الاول الفضيلة الذاتية ، والثانية الفضيلة الاضافية ، والامر الثاني هو أن كمالات الولاية مستفادة من كمالات النبوة ، فلذلك كل كمال للولاية يكون أشبه بالكمال النبوي ، يعد من الكمال الذي هو أقل منه شبها به ، وثانيا أن العشق درجة خاصة للحب تحوي التهيج والتحرق » .

« واعلم بعد ذلك أن صفة الحب الإلهي التي تلازم الانبياء عليهم السلام لا تهيج فيها ولا تحرق ، ولذلك تجد هذا النوع من الحب أعلى انواع الحب من غير شك ، ولكن يمكن نظرا الى طبع خاص وميل خاص ، ان يكون النوع الآخر أجدى وأنسب ، حيث ان اللحم من أعلى الاغذية في ذاته ، ولو أن الشعير ربما يرى أصلح الاغذية لرجل ما ، لطبيعته الخاصة .

فالشيخ الشهيد رحمه الله ، كان يؤثر الحب الايماني في مرتبة الفضيلة الذاتية ، ويعد الحب النفساني مضرا ، لانه قد يولد في أصحابه الذهول والمغلوبية ، والآخرون من الصوفية انما يمدحون العشق للفضيلة الاضافية التي توجد فيه ، لان مثل هذه الاقوال توجد في كلام أهل الاحوال الذين يرمون الى التحقيقات العامة ، أو يكون المراد من العشق في مصطلحهم هو كمال الحب مطلقا ، ومن أنواعه ، الحب الايماني أيضا ، والمقصود ذم من لم يحصل على هذا الكمال ، لانه جاء في الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه »

فعلى كلا التفسيرين لا تتعارض وجهات نظر الشيخ والصوفية والله أعلم » .

الحب العقلي اختياري

وبين الحب الطبيعي والحب العقلي الايماني فرق آخر عظيم ، وهو أن الحب الطبيعي ليس من الامور الاختيارية ، والاسلام لا يأمر الا بامور اختيارية ، أما الحب العقلي والايماني ، فهو في مستطاعنا ، وقوامه العمل ، ومثال ذلك ، أننا اذا اخترنا عقليا أحد الاعمال ومارسناه مرارا ، فلا بد من أن نألفه ونجد فيه أنسنا ونحبه ، واذا اخذنا ذلك العمل اتباعا لاحد ، أو بأمر منه ، فلا بد من أن ينشأ في أنفسنا حب هذا الامر أو المتبوع ، ولذلك هدانا الله الى طريق ميسور لهذا الحب المختار ، وهو أن ننسج الحياة على غرار حياة رجل ، هو أعظم محب لله ، وأعظم من يحبه الله من عباده صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يبلغون الى كمال الحب لله تعالى ، بل يكرمكم الله بحبه لكم « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) [1] .

« نشوء الحب من خواص العمل ، ويمكن لك أن تختبر ذلك ، فانك اذا كنت تحضر الى رجل كل يوم بالمداومة فيحصل لديك حبه ، يبدو ذلك الحب قليلا ، ثم اذا استمررت على

---

(١) سورة آل عمران الآية /٣١/ .

عادتك يستوثق كمحبة الرجل لمن في حجره ، فعلى كل ان من بركات العمل الصالح أن ينشأ حُب الله » .

« وهنا أمر هام ، وهو أننا لا نزال نعمل من مدة طويلة أعمالا صالحة ، ولكن حب الله لا ينشأ في قلوبنا ، فجواب ذلك أن مفهوم العمل لا يحوي شيئا واحدا بسيطا فحسب ، بأن يتأتى منه العمل في أي شكل كان بل ان مفهوم العمل متركب من أجزاء كثيرة ، منها أن يؤدي العمل بالطرق التي تناسبه ، ومثال ذلك أن مجرد حركات القومة والقعدة ليست هي الصلاة فحسب، فالطرق التي وضعت لاداء عمل يجب أن تباشر أيضا ، وإذن يجب أن ينشأ حب الله ، والعلة الثالثة هي أنك لا تعمل الا اعتيادا ، لا بنيّة زيادة الحب مع الله تعالى ، أما انك اذا نويت هذا فلا شك في تأثيره .

« على كل حال ، فان جزءا من أجزاء هذه الوصفة هي أن تعمل عمل الخير بنية توفير حب الله ، وثانيا أن تذكر الله بحضور القلب ، وان كان قليلا ، ولكنه باجتماع القلب (حتى لا يكون صورة للذكر فحسب) ، وثالثا أن تختار صحبة المحبين لله ، والناس يتحاشون عن ذلك ، ولا يفكرون أولا في أن يقضوا من أوقاتهم قدرا في صحبة تقي صالح ، وأنهم بعدما يقرأون كتبا قليلة يزعمون أنهم أصبحوا كاملين فضلاء ، هيهات أفيكون أحدنا من الفضلاء والكاملين بمجرد قراءة الكتب » .

ووصف هذه الصفة باضافة بعض الاجزاء فقال :

« ان الصفات التي تجعل الرجل محبوبا ، وهي الانعام والمنحة والجمال والفضيلة والكمال هي ثابتة لله وحده على وجه الكمال ، من غير انتقاص عقلا ونقلا ، فليس يستحق المحبة غيره ، وطريقتها أن تلزم نفسك أمورا ، وهي أن تذكر الله خاليا ولو لخمس عشرة دقيقة أو لعشرين ، ولكن بنية أن ينشأ فيك حب الله ، وثانيا أن تفكر في نعم الله اذا خلوت بنفسك ، وأن تفكر في تصرفاتك في تلك النعم ، وفيما يأتي من الله على تصرفاتك هذه ، وثالثا أن تقوي روابطك مع من يحبون الله ، فان لم تكن تستطيع أن تقابلهم وتلاقيهم فيمكن بالمراسلة والكتابة ، ورابعا أن تتمثل أوامر الله جميعا لان الذي يطاع ويتبع أمره ينشأ حبه ، وخامسا أن تدعو الله أن يرزقك حبه » .

فانما الحب الذي يؤمر به ويطلب ليس بالحب الطبعي ولا بالنفساني ، بل هو عقلي وايماني ، وهو غير خارج من قدرة الرجل ، والوصفة التي وصفت تدخل أجزاؤها الثلاثة في قدرة الرجل في : (١) الاعمال الحسنة بنية الحب (٢) وذكر الله مع الحقيقة (٣) والارتباط بالاتقياء ، وأسلفنا بيان أهميته بالتفصيل وطرق اتباع السنة ، وهذا الحب العقلي والايماني ليس بأقرب طريق للوصول الى الله وأوجبه على الرجل فحسب ، بل هو أسهل الطرق ، حيث لا حاجة

معه الى المجاهـدات وغيرها ، ويقولون لها في المصطلح طريق الجذب ، لان فيه اقتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أعظم محب ومحبوب لله تعالى ، ويجذب الله هذا المتبع والمقتدي لمحبـه الكامل والمحبوب اليه ، ذكر في موضع :

« والذي نجده في طريقة الشيخ امداد الله رحمه الله ، انه يحصّل الوصول الى الله في وقت عاجل ، وأنه لا يلزم ولا يوجب الرياضات والمجاهدة الا قليلا ، والسبب في ذلك أن الوصول في هذا الطريق ، هو بالجذب ، لا بطريق السلوك ، وهذا الجذب من بركة اتباع السنة المحمدية ، لان اتباع السنة يوصل الى المحبوبيـة عند الله للمشابهة بالمحبوب ، ولا بد للمحبوبيـة من الجذب » .

فاذا حصلت المشابهة بالمحبوب ، ولو مشابهـة ظاهرة ، فلا بد لصاحبها من الانجذاب ، ورحمة الله مرجوة اذا وفقنا الله لاتبـاع السنة جميعا .

الحب قاصـــر على المناسبة

وتكلم حضرة الشيخ المجدد حول هذا العشق والحب بكلام لطيف ، يفيـد العلمـاء والمتصلبـين الجافين سماعـه وتفهمه ، أكثر من الصوفيـة ورجال الحب ، وهو أن منـاط الحب هو المناسبة ، وهذه المناسبة تكون بالله أكثر ممـا تكون بالخلق ، والذي يقول له الصوفيـة « المظهر الأتم » وأرى أن

الله قد جعله محل الخلافة ، اذ قال « وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُوحي[1] » ولا يمكن أن يكون خليفة إلا من كان بينه وبين مستخلفه مناسبة ومشابهة قوية ، ظاهرة وباطنة ، فاذا كانت المناسبة الظاهرة تتجلى من التصرفات التي تتعلق بالخلافة ، فان المناسبة الباطنة تتجلى من كلمة « من رُوحي » فان العبد اذا لم يخرج نفسه عن « أحسن تقويم » ولم يقذف بها طريق « أسفل السافلين » لما كان محبوبا له ومطلوبا غير الله .

معنى ((خلق الله آدم على صورته))

المماثلة والمشابهة من دواعي المحبة ، فمن الذي يناسبه اللقب يكون محبوبا ، وقد سمعت من رجل أنه كان يؤثر ابنه الاكبر لانه كان يشبهه أكثر ، وتبين بالحجة والوجدان أن مناسبة القلب الكاملة انما تكون بالله عز وجل ، وعن هذه المناسبة حدَّث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (ان الله خلق آدم على صورته) .

« وليس معنى الصورة ههنا الشكل ، بل هي المناسبة التي تحدث عنها الصوفية بنوع خاص ، ولم يقبلها العلماء « الجافون » إنهم يَجفلون من تعبير أن الانسان مظهر الله عز وجل ، وان كان هذا معنى الحديث المذكور ، والمعنى لا يسلم الا بهذا التأويل وترك بعض الناس هذا المعنى حيث أرجعوا الضمير الى آدم ، لكن بعض الآثار تقول كلمة

(١) سورة الحجر آية /٢٩/ . وسورة ص الآية /٧٢/ .

«(صورة الرحمن) مكان صورته ، فلم يسع هؤلاء الا أن قالوا ان الراوي روى الحديث بالمعنى اجتهادا منه،لا باللفظ، وأقول أنا لِمَ كل هذا التشدد والتقعّر ؟! ألا تنتفعون بتأويل الصوفية في هذا الصدد ؟ ! وهو أسهل واسوغ الاقوال .

لان الصورة تقال لما يبدو بها الشيء ، فلما ظهرت أوسع صفات الله عن طريق صفات الانسان ، كان أن خلقة الله على صورته دون خلائقه الآخرين !

أنظر أي شيء يدعى بالصورة ؟ قد تقول انها شكل شيء ، ولكن لماذا كذلك ، انما الحقيقة هي أن الصورة هي الظهور ، وذلك من كلام الناس ، ان صورة المسألة كذا ، ويقولون ما صورة صلاح هذا العمل ، فمعنى الصورة هنا هي الظهور ، وانما يقال للشيء الواحد صورة ، بمعنى الظهور، اذ تبدو حقيقته بها » .

وأبان عن هذه الحقيقة الباطنة فيما يأتي بأنها هي الروح التي عبر عنها بقوله (من روحي) أو هي (أ نا) فلذا قال : يعبر عن هذه الحقيقة باسم أنا ، وهي الروح ، وهي شيء خفي، فلما كانت الروح شيئا خفيا أظهرها من الجسد ، لذلك لما قال للجسد انه صورته ، فصار معنى الصورة الحقيقي هو الظهور .

« فظهر أن معنى (خلق آدم على صورته) على ظهوره ،

يعني خلق الله آدم على ظهوره أي أظهر صفاته بخلق آدم ، واذا كانت تظهر من المخلوقات الاخرى أيضا صفات الله ، فان الانسان ، لكونه أجمع للفضائل ، أكثرُ وأعظمُ في هذا الاظهار ، ولذلك يقال عنه انه المظهر التام •

« ماذا قال الصوفية غير الذي قال الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانهم غيّروا المصطلحات فحسب ، وهذا من حكمتهم أنهم حفظوا أسرارهم من العامة بأن وضعوا لها مصطلحات خاصة ، وهؤلاء العلماء الجافون الذين لا يفهمون مصطلحاتهم ينتقدونهم ، ولا يتوجه هذا الانتقاد الا الى عقولهم القاصرة التي لا تسع هذه العلوم الدقيقة ، ومن عادة المحققين أنهم يظهرون المعارف لطالبيها ، مع انهم يسكتون للمجالين اذا سمعوا منهم النقد ، بل وينهون تابعيهم عن اعلان هذه الدقائق » •

تأويل حمل الامانة

فلما تشبه الانسان بالله أكثر من خلائقه الاخرى ، وجب عليه أن يعظم حبه وهيامه به تعالى ، كان يقول حضرة الشيخ في زمن التعليم ان من حقيقة الانسان أنه حيوان عاشق ، « فصله المنطقي » العاشق ، لان « الناطق » يدخل فيه الجان والملائكة جميعا ، بل وكان من قول حضرة الشيخ ان جميع المخلوقات من الحيوانات والنباتات حتى والجماد عاقلون ،

غير أن هذه لا تملك من العقل ما يسعفها لان يؤهلها لحمل العبء ، وأوّل حضرة الشيخ لحمل الامانة تأويلا جميلا ، وهو غلبة العشق على الانسان ، وهو أن الانسان لما كان عاشقا لاجل المشابهة بالله ، نظرا الى أن العشق ليس أن يتردد صاحبه في امتثال أوامر المعشوق ، فقد تقدم بنفسه الى ربه من دون احتشام ولا رويّة .

« على كل حال ، فان هدف حمل الامانة للانسان هو العشق ، وقد فهمته من شعر الحافظ الشيرازي اذ يقول : (ان السماء لا تتمكن من حمل عبء الامانة ، وانما وقعت القرعة علينا نحن المجانين) وتشير كلمة المجنون في هذا الشعر الى هدف حمل الامانة ، وقد تبين في هذا البيت نفسه أن العشق هو الجنون ، الذي هو درجة أخرى غير المحبة .

« لكن مسحة العقل تغلب في حب البدو ، أما في حب مجانسه فتغلب مسحة الطبيعة ، ويبدو الحب العقلي في ظاهر النظر ضئيلا بازاء الحب الطبعي ، وان كانت الحقيقة على عكس ذلك ، ولا يمكن لهذا المحبوب الذي أحبه الرجل طبيعيا اذا أبدى في الله تعالى كلمة تمجها الاذن او فعلا تكرهه النفس ، الا أن يصير لدى عاشقه بغيضا » .

كان هذا الكلام في رد أرسله الى طالب ذكر لحضرة الشيخ أن حبه للشيخ قد تغلب على حبه لله » .

دواعي الحب موجودة في الله بصورة كاملة

ثم ان جميع الدواعي التي يمكن وجودها في ذات واحد، انما توجد في الله على درجة الكمال وبصورة تامة .

« ولن تجد محبة رجل بأحد الا وجدت من أسبابها ، اما كمالا أو جمالا أو نوالا ، فظهر من ذلك أن الحب لايختص بالذات ، انما يكون بالصفة ، فالتمس هذه الصفات ، فمن الذي يحملها بدرجة كاملة ، فهو الذي يملك مادة كبيرة من دواعي الحب ، أما المسلم فلا يستطيع أن يأبى أن هذه الصفات توجد بصورة كاملة في الله » .

فالحب بالله من لوازم الايمان للمؤمن ، وليس هذا فحسب ، بل كل حب ينشأ في المؤمن انما يكون من ظلال المحبة بالله ، اذ كل جمال وكمال يوجد في أحد ليس الا ظلا من كمال الرب ، « انما كل كمال ظل كمال الله سبحانه ، فلا جرم أن كل من يصبو ويتيّم يعد محبا لله ، ومثال ذلك ، أن رجلا أبصر الشمس على حائط فأحب الحائط ، ولم تكن الحقيقة سوى أنه عشق الشمس المنيرة في السماء ، لا الشمس المنعكسة على الجدار ، لان غرامه نشأ لكمالٍ بدا على الحائط ، وهو النور الذي مصدره الشمس ، وليس من مظاهر الحائط ، ولذلك ترى أن الشمس اذا اختفت ، والضوء اذا غاب ، غاب معه غرامه وحبه .

ولا بد من أن يكون هذا الحب العقلي مع الله بجميع الاخلاق التي توجد في أية محبة ، فعلى المرء أن يوجد مع الله علاقة الحب ، التي تكون شبيهة بعلاقة الحب المعروف في الدنيا بجميع آدابه وأخلاقه .

وانظر الى العاشق ماذا يتحمله في سبيل معشوقه ، وكم يوقره ويهابه ، فاذا دعاه محبوبه الى أن يأتي اليه ، وان كان الوقت وقت الهاجرة من النهار ، لم تمنعه الرمضاء من ذلك ، وأنه لن يماطل ولن يستفسره عن العلل والاسباب ، ولن يكون منه الا أن يهرول اليه ، اذا كان يُكِنُ له في قلبه حبا صادقا ، بل ولو صده رجل فلن يخضع لقوله ، ولن يطمئن اليه ، ولن يتكاسل في أداء ما يطلب منه ، مهما كان قول الناس في ذلك عنه ، سواء قالوا له « محب متيّم ، عاشق هائم » أو غيره ، لكنه لن يرى في هذا عيبا ولن يجد فيه غضاضة .

ولا يختلف رجلان في أن من أحب أحدا لم يفرغ قلبه عن ذكره ابدا ، وأنه يستمع الى كلمته طاعة وامتثالا ، ولن تراه يغفل ويتهاون في شأن ما عن أمر محبوبه ، ولا يتمثل لامره لما يطرأ عليه من النسيان ، لان النسيان يطرأ فيما يعتني به الرجل الا قليلا ، فالذي يغشى قلبه ذكر محبوبه دائما ، انما يستحيل معه النسيان أو التهاون » .

فان العشق الذي يصر عليه الصوفية ، الى درجة أن قيل عنهم انهم يعتقدون أن الدين ليس الا الحب ، لا يراه الشيخ التهانوي تهيجا للطبع والنفس ، بل هو عنده غلبة الحب العقلي ، الذي لا يصاحبه في الذهن الا الميل الى المحبوب وذكره وطاعته ، ولا ينفذ معه شيء غيره . ويقول عن ذلك رأس الصوفية الشيخ الرومي :

(العشق هو جذوة كلما تضرمت وعلا أوارها احترق كل شيء سوى المحبوب المعشوق) .

العشق والتفويض

ويسمى هذا العشق الايماني على ما عرف بالتفويض ، وقد كتب الشيخ في موعظته المسماة بارضاء الحق :

« حقيقة العشق هي التفويض لاغير ، وذلك بأن تفوض أنفسنا الى الله فيفعل بنا ما يشاء و يرضى بذلك تشريعيا وتكوينيا ، وبكل صورة ، وهذه هي حقيقة التفويض » وقد دلنا على أمر عجيب اذ قال :

« ان الشيطان كان سالكا ، لكنه لم يكن متصفا بالجذب والحب ، والا ما كان له أن يتساءل بمثل هذه القحة ولن نجد السالك المجرد من العواطف (العامل الجاف) بعيدا عن الخطر ، ولذلك يجب أن ينشأ الجذب ، وهو ينشأ بكثرة الذكر وصحبة أهل الحب » .

وهذا العشق الايماني تنيجة محتومة للايمان « بلا إله الا الله » لان جميع الاواصر والعلائق بما سوى الله ليست الا ناتجة عن الفكرة الخاطئــة ، التي تدعي وتفرض لغير الله نفعاً أو ضــررا ، وهي التــي رفضهــا ولغى عليهــا القــرآن ، (أفَتَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئَـةً وَلاَ يَضُرُّكُمْ) سورة الانبيــاء الآية ٦٦ ، وتــرى من نتائج الحب الدنيوي وغلبة المحبة أن العين لا تلتفت الى غــير المحبوب ، وقد حكى الشيخ الرومي في هذا الصدد وهيأنه :

« اتبع رجل امرأة ، فسألته لم تتبعني ؟ قال قد شغفت بك حبا فقالت : « ان أختي تأتي خلفي وهي أجمل مني » (ولما كان هذا عبدا للهوى والشهوات ، تراجع وراءه) ، فلما ولى مدبرا ، صفعته صفعــة ، وقالت يا قليــل الحياء اذا كنت لي عاشقا فَلِمَ تلتفت نحو غيري ، فكيف يصح أن يدعي الرجل محبة الله ، مع أن علاقته ليست وثيقة الا بغيرة » .

حقيقــة العشــق المجــازي

ويجب أن تفهم حقيقة العشق المجازي ، مستندا الــى هذه الحكاية ، لان كثيرا من أهل الهوى الذين يسيئون الى سمعة التصــوف جعلوه قناعا لدعارتهم وفجورهم ، فقد جاء في الحديث (مَنْ عَشِقَ فعفَّ وَكَتَمَ فَماتَ ، مــات شهيدا) . نجدفيهذا الحديثأمرين : أولاأنالعشقالاضطراري

ليس ذميما على درجة الاطلاق ، بعكس ما تراه من بعض الناس ، ينظرون اليه بنظرة الازدراء ، ويعدونه من المعايب ، ويحتقرون صاحبه ، وكيف يقبح اذا كان مما يبلغ به الرجل الى الشهادة ، ولذلك يحمده بعض أهل الطريقة ، ويعدونه من أسباب الوصول الى الغاية ، يقول العارف (الجامي) (لا تتب عن عشقه ولو كان مجازيا ، لانه طريق للوصول الى الحقيقة) ويقول العارف (الرومي) :

« ان العشق سواء كان طريقة هذا أو ذاك انما يهدي الى الله العزيز المقتدر » .

والامر الثاني ، ان من الشروط التي تهدي الرجل الى الغاية ، أن لا يلتفت باله الى المحبوب المجازي قطعا ، فلا يعطف اليه نظره ، ولا يستمع الى كلامه ، ولا يقبل عليه قلبه ، بحيث لا يلم بقلبه طيف من أطيافه ، وهو المراد من قول (جامي) وهو (ولكن يجب أن لا يقتصر نظرك على هذه الصورة ، وعليك أن تمضي وأن تمر من هذه القنطرة مسرعا) ويشاكله قول العارف :

« ان العشق الذي يقوم على اللون والوسامة عاقبته وخيمة ويتبعه عار » .

والسر في هذا أن الشرط العظيم في الوصول الى المطلوب الحقيقي هو الانقطاع عن غيره ، والعشق يقطع العلائق كلها قطعا صارما غير العلاقة التي تتوثق فيما بين المحب والحبيب، فانقطع

بذلك ما كان سوى الحبيب المجازي نتيجة لهذا العشق المجازي ، ثم لما عطف نفسه ، مساعدا اياها ، عن هذا الحبيب المجازي الى المحبوب الحقيقي بكل جسمه ، بطريق المراقبات والذكر والتقريب اليه ، انصرمت اذن جميع العلائق ، ولم يبق غير المحبوب الحقيقي وحده ، كما يقول الشيخ الرومي فيما بعد (سُلَّ سيفُ (لا) لقتل غير الحق ، وفكر هل يبقى شيء بعد (لا) ـ انما يبقى إلا الله) وتبخَّر كل شيء ـ فمرحباً بك أيها العشق الذي يحرق كل ما سوى المحبوب ويقضي عليه) .

والشروط الواجبة عند ارادة الرجل لتحويل العشق المجازي الى العشق الحقيقي ، أو عندما يريد اتخاذه ذريعة الى العشق الحقيقي ، فهي كما ذكرها الشيخ في كتابه (التكشف) مفصلا ، فاذا وقع الرجل في العشق المجازي وهو يقصد اليه أو من غير أن يقصده فعليه :

« أن يعف أولا ، ولا يتعدى التقوى ولا يأتي أمرا خلاف ما أمر به الشرع ، فلا ينظر اليه بارادةمنه ، ولا يحادثه ، ولا يتحدث فيه ، ولا يدعو الى قلبه أطيافه ، لان مخالفة الشريعة لا تجتمع مع العشق الحقيقي ، وكيف يمكن معها أن يتأتى له العشق الحقيقي ؟ وثانيا أن يبعد عنه حتى لا يقع عليه نظره ، ولا يتسنى له سماع كلمة ليرق القلب ويحن ، وثالثا أن يفكر دائما ، سواء خلا الى نفسه أم لم يخل ،

في مصدر كمال هذا وجماله ، وفي من أعطاهما اياه ، واذا كان المحبوب المجازي يسحر القلب الى هذا الحد ، فماذا يمكن أن يوجد في المحبوب الحقيقي من كمال وجمال ؟ !

« وبهذا سينتقل عشقه المجازي من المخلوق الى الخالق، والى هذا يشير القول ، بأن الشيخ الكامل لا يزيل العشق المجازي بل انما يميله الى المحبوب الحقيقي .

كما أن القاطرة المحماة اذا كانت تجري وراء ً،فليس من الحسن لمجتاز المسافات أن يطفىء نارها ، بل يجب عليه أن يحولها بآلتها ويوجهها في الطريق المستقيم ، وان ما أشار به بعض الشيوخ على طالبيه ، من أن يولدوا في نفوسهم حبا مجازيا، فهو مشروط بالحب الحلال ، (ومثاله أن يتعشق بعقليته) لا العشق الحرام ، لان المعصية لن تُفضي الى الله بتاتا ، والذي أريد بهذه الاشارة هو حاصل بالعشق الحلال أيضا ، لان العشق ، ولو كان مجازيا ، يقدر أن ينشىء في القلب رقة ولوعة ، وتَبرَح ُ القلب أواصرُ الناس الآخرين ، ويصفو الخيال والعاطفة من العلائق ، فلا يبقى اذاً الا عمل واحد وهو أن تعطف هذه العلاقة الى الله ، فالقلب يخلو بكل سهولة ويسر » .

« كما أن القمامة حينما تكنس تجمع في مكان واحد لتشال مرة واحدة ، وتطرح الى الخارج ، فان حمل كل عود وحشيشة ، وطرح كل حبة منها مرة مرة ، لا ستنفذ ذلك

يدون شك كثيرا من الوقت ، ولا تنظف الدار ، فليس الهدف الا أن تتولد في القلب الرقة والالتياع ، واذا نفعت فيه طريقة أخرى وأفلحت ، فان المقصود حصل بها كذلك وكفى به » .

وعلى الاخص في هـذه الايام ، فالافضل أن يتعـاون بطرق أخرى تلائم الحال .

« لمـا كان الخطر شديدا في هـذه الطريقة (العشـق المجازي) ، لان النفوس ميالة الى الشهوة والمتعة ، فلا يجوز تعليم هذه الطريقة عامدا اياها ، غير أنه اذا ابتلي بها . فيجب أن يعطف الى العشق الحقيقي بالخطة المذكورة » .

ويجب أن نكون على ذكر ، أن هذ الحب الاستيلائي ، أو اللوعة التي تحرق الاغيار وتأبى الا الاخلاص :

« انما تحصل ، بأن يرافق الرجل صاحب حرارة ولوعة، وأن يعمل بارشاده ، وهي تنتقل من قلب الى قلب ، ولا تحصل لمجرد أن يكون الرجل أستاذا كبيرا وأديبا بارعا أو مؤرخـا بحاثة ، ولا عجب اذا كان كثير من الخلال والاخلاق كذلك ، ينتقل من قلب الى قلب ولا يحصل لمجرد المطالعـة والحفظ ، كما أن واحدا اذا حفظ قائمة الاطعمة كلها ، فلن يقدر عـلى الطبخ والطهي الا اذا صحب استاذا كاملا ، ويتخرج عليـه ، وكذلك اذا قرأ واحـد فن التفصيـل والخياطـة في الكتب وتعلمـه تعلمـا صحيحا ، فلن يقـدر على التفصيل بهـذا

فحسب ، فانما حقيقة انتقال التصوف في الصدور ليس معناها غير هذا ، وليس كذلك أن مسائله وأحكامه تنتقل من الصدور الى الصدور ، اذ المسائل والاحكام مدونة في الكتب ، بيد أن النسبة هي التي يعبر عنها أنها « الحرارة » وهي التي تنتقل من صدر الى صدر .

★ ★ ★ ★

باطنية التصوف

ان ما اشتهر عن التصوف أنه علم باطني ، وشيء ينتقل من صدر الى صدر ، ظل فتنة لاصدقائه وخصومه زمنا طويلا ، وتمهدت بسببها سبل الالحاد والاباحية للصوفية الجهلة المنتحلين ، لان من عادتهم أنهم حينما لا يجدون في ظاهر الكتاب والسنة ما يبل غليلهم من الهوى والشهوات ، يردون الامر الى الباطن وينوطونه بالقلب ، بقولهم انه من الاسرار التي تتعلق بالقلوب ، وتجد بضدهم علماء الدين الظاهر ، فهم كلما يرون ذلك ، يتوحشون منه وينكرونه ويناصبونه العداوة فالواجب في هذا الصدد أن لا يسمى هذا العلم علما باطنيا ، الا بالمعنى الذي أوضحناه سابقا ، فانه هو المعنى الحقيقي، ولكنه الواقعي لذلك ، وفحواه أن هذا العلم يدور حول القلب والباطن ، ويبحث فيما يعرض للباطن ويتعلق به من أحكام وأوامر ، وأنه علاج لما ينشأ فيه من علل وأسقام ، دون ما يختص بأشكال الشريعة وقالبها ، وأن ذلك العلم باب كبير من أبواب الشريعة ، مثل الفقه لمسائل الظاهر والجوارح ، وكما أن جميع مسائل الفقه الظاهر استقيت واستنبطت من نصوص الكتاب والسنة ،

كذلك استنبطت هذه المسائل الباطنية والقلبية المسماة « بالتصوف » جميعا من القرآن والسنة •

علة الاخفاء

بيد أن في كل علم وفن أشياء تتعلق بتجارب الفرد خاصة، وهي لا تنكشف الا بعد المضي من خلال تجربتها ، أما الجاهل عنها فيقع في بلاء وعسر ، ولا يكون تفهيمه للتصوف في أغلب الاحيان الا اثارة للشبهات ، دون أن يسهل به فهمه له ، كما ترى في الذوقيات والوجدانيات ، أو الكيفيات والمكاشفات العامة ، وقد ظهر بالتجربة أن اظهارها كلها يفضي الى الخسارة الباطنية ، ولذلك يجب اخفاؤها •

« أبواب التصوف كثيرة ، ومنها الاحوال والكيفيات » فلا يجب أن تذكر هذه لكل رجل ، لانها شئون خاصة تدور بين الله وعبده ، فاعلانها يرزأ في الباطن ، وكذلك من أبواب التصوف ، علوم المكاشفات والاسرار ، ولا يحسن فيها أيضا أن يطلع الناس عليها ، حيثما تجد كثيرا منهم يعجزون عن فهمها ، بل تتولد منها شبهات كثيرة لدى سامعيها ، وهي تضرهم ، لان الرجل الذي لم ير فاكهة « المانجو » مثلا ، ولم يطعمها أيضا ، فمهما وصفتها له ، وفسرت حقيقتها ومذاقها، فلن يستطيع فهمها ، قال شاعر : (يسألونني ما هو العشق؟ فقلت لهم كونوا مثلي تعرفوه) •

والسبب في ذلك ، أن الامور التي تتعلق بالوجدان لا تنفذ الى النفس الا بطريق الوجدان ، وهو لا يحصل بالسماع .

علة أخرى

كان ذلك من علل اخفاء ما يتعلق بالوجدان والذوق، ومع ذلك فان كل علم وفن يحتوي على دقائق وعويصات من المسائل ،، لا يقدر كل أحد تبيُّنها ، ولمثل هذا يقول الشيخ الرومي (كلمات وحكم ، كالحديد الصلب ، وكالسيف المسلول ، يجب عليك اذا لم تكن تحمل المِجَّن أن تدبر عنه ، ولا تقبل عليه ، ولا تعرض له بدون الوقاية ، فان السيف غير محتشم فيما يقطعه) .

ولذلك قال ابن عربي « يحرم النظر في كتبنا » فان قال رجل فلِمَ كتبوا كل هذا اذا كان النظر اليه محرما ، فجوابه أنهم كتبوا لاكفائهم واقرانهم .

مصالح أخرى

وهنا مصالح عديدة جزئية ، ترمي الى الاسرار والاخفاء في التصوف، كما أن الناس ينتفعون بهذه الطريق على قدر أحوالهم وصلاحيتهم ، فان حذا آخرون حذوهم ، وتسابقوا معهم ، فهم اذن عرضة للضرر ، وليس هنالك أي أمل في النفع،

ومع ذلك ، فان الكلام الذي يتبدى في الخلوة وفي الخفاء يحمل تأثيرا أعظم •

« ولذلك نجد المحققين في التصوف ، يعلمون على قدر حضور الذهن وحصول الفراغ ، ويعلمون كل واحد على انفراد ، ولذلك تجد التعليم في التصوف خفيا ، لان كل رجل يملك حالا وصفة خاصة بنفسه ، ومن المحتمل أن يعالج الرجل نفسه ـ لهواه ـ بأمر لا يتفق معه ، ويسلك الطريق التي وصفت لغيره لا لنفسه ، فهذا هو موضع العلة فيها ، لا الذين يقولون من أن مسائل التصوف تنتقل صدرا لصدر ، وقلبا لقلب ،دون الشريعة، والحكمة الاخرى في ذلك ، هي أن حديث الخلوة يهتم به أكثر ، وينال من التقدير أعظم نصيب ، فان إخفاء أمر لمصلحة خاصة ليس بجريمة ولا اثم ، وليس هذا بخاص بالتصوف دون غيره ، حتى يبرّر ما يوجد عند بعض الناس من التوحش والنفور من التصوف ، أما ما يعمله المتصوفة الجهلة المتزعمون عباد البطون ، من استخدامه لشهواتهم ، وسوء استعماله ، فهو كذلك غير مختص بالتصوف، فلا يمتنع عن ذلك الجهلة وأهل الاغراض في دائرة الشريعة ، أما المحققون المخلصون الاتقياء ، أو من يتتلمذون لهم ، فانهم يحملون بحمد الله محكّا من القرآن والسنة ، يقدرون به على التمييز بين الصحيح والزائف •

أما الشيخ المجدد ، فقد كان على مستوى رفيع من

التجديد والتحقيق ، فانه كان يرفض كل تعليم في التصوف ، مهما بلغ من القبول والانتشار ، اذا انحرف عن الشريعة ، أو كان سببا لفتنة بعض الناس ، ووقوعهم في ما يريب ولم يكن يشير به على الطالب ، بل كان ينصحه بهجره . ان ذكر كلمة الذات (الله) مقبول ومتداول في جميع سلاسل الصوفية ، لكنني لاحظت أن قول « الله ، الله » فحسب ، لا يقوم على استناد ، أو على أصل ، ثم رأى أن « واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ » وأن (ذَكَرَ اسْمَ ربِّه فصلّى) ليؤمنان الى ذكر اسم الذات ، لكنه مع ذلك ، حينما لم أجد ذكره خلال الاذكار التي تأتي بكل مناسبة في الحديث والآثار ، ولم أجد ذكرا ولا أثرا في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، واستبعدت أن يكون مثل هذا ذكرا يتقرب به الى الله ، وكانت بيني وبين الشيخ مراسلات في هذا الموضوع ، وكان نتيجة ذلك ، أن الشيخ نهاني عنه ، وقرر أن الصوفية لم يقترحوه لانه ذكر ، بل للتمرين وترويض النفس ، وهكذا لم يسمح للذكر الجهري ، والذكر مع الضرب على القلب ، (على طريقة الصوفية) الا بقدر الحاجة اليه ، ثم نصح وقال : (يجب أن تعرف أن الذكر ــ جهرا واتيان الضرب فيه ــ ليسا مما يثاب عليهما ، واعتقاد ذلك معصية).

تنبيه آخر جليل

هو انكار ما شاع في الجهال ، أن العلم الباطن أفضل

وأعلى من العلم الظاهر ! أو من الشريعة ! كما يظهر من بعض الابيات أو الاقوال ، التي فحواها أن الخضر قطع حلقوم الغلام ، ولم يبد هذا السر لعامة الناس ، ولو أن الخضر قد عطب سفينته ، لكن افساده ينطوي على اصلاح كبير ، وكان موسى ، مع أنه يحمل النور والعلم ، لم يفهم كنه ذلك ، فعليك أن لا تطير بغير جناح) .

ومغزاه ، أن أسرار كثير من الامور ومصالحها خفية ، ولا يتيسر فهمها لكل واحد ، وعلى الاخص لعامة الناس ، ولذلك لا يحمد الاسراع بالنقد على أقوال الصالحين وشئونهم، بل يجب العمل بصبر وتأن وتحقيق .

« وفي ذلك تأييد لهجر الاعتراض كما أن الخضر عليه السلام كان في كسره للسفينة وحرقه لها محافظا عليها في الواقع ، كما ذكر ذلك القرآن الكريم ، وأن سيدنا موسى عليه السلام ، ولو أن عنده المعرفة والعلم وكمال النبوة ، لم ينفذ خاطره وحدسه الى تفهم علته وسببه ، فهذا يوجب عليك أن تطير اذا كنت فاقد الجناح .

« وقد ظن بعض الناس من هذه الحكاية ، أن العلم الباطن أفضل من علم الشريعة ، ولذلك بعث سيدنا موسى عليه السلام الى الخضر عليه السلام ليستفيد منه ، وقرروا من هذا بأن الشيخ اذا أمر بشيء وجب اتباعه .

« فاعلموا أن هذه المزاعم باطلة ، وجميعها لا أصل لها ».

أما قولهم إن علم الباطن أفضل من علم الظاهر ، فلا يثبت من هذه القصة لوجهين ، أولا أن علم الباطن شعبة من علم الشريعة ، وسمي اصلاح الظاهر فقها وسمي اصلاح الباطن تصوفا ، فكيف اذن يمكن أن يفوق الجزء الكل ، وثانيا أن الاحوال الخفية ، والشئون البعيدة ، التي اطلع عليها الخضر عليه السلام ، والتي نبحث فيها ، ليست من علم الباطن في شيء ، بل انما هي حوادث جزئية ، وأحوال كونية كشفها الله تعالى عليه .

« وأصل ذلك كله أن الامور التي كانت بعيدة من ناحية الزمان ، أو من ناحية المكان ، تقاربت في علمه ، واستدناء شيء بعيد ، ورؤية شيء قاص كشيء قريب ، ليس من علم الباطن في شيء ، أما علوم موسى عليه السلام ، فانها علوم شرعية كلية ومعارف إلهية . والباطن والظاهر كلاهما من شعبها ، وعلى كل حال ، فان العلم الخضري لم يكن أرفع من العلم الموسوي ، لانه اذا اجتمع رجلان ، رجل شيخ فاضل ورجل غير فاضل ، وكان غير الفاضل يعرف ما وراء جدار أو ستار ، وكان الفاضل لا يعرف ذلك ، فليس من الجائز اذن أن نعد الفاضل بمجرد ذلك أقل منزلة من غير الفاضل » .

« وان ما استقرؤوه من هذا (أن الطاعة واجبة دون ادنى تثاقل) فهو كذلك غير صحيح ، وهو قياس في غير محله ، لان سيدنا موسى عليه السلام ، وقد علم من الله تعالى أن

الخضر عليه السلام كامل ، وعرف أنه لن يأتي عملا يعارض الشريعة ، أما ما أنكر عمله ، فلأنه لم يعرف العلل والاسباب ، وقد كان جائزا له أن يسكت ولا يتساءل ، أما الرجل الذي نجد عمله خلافا للشريعة ، أو الذي يعلم أصحابه غير ما يتفق مع الشريعة ، فلا يمكن أن يعترف بعمله هذا .

« ثم ان الخضر عليه السلام لم يكن مكلفا باتباع الشريعة الموسوية ، وكانت شريعته غير شريعة موسى عليه السلام ، بخلاف هذا العصر ، فكل واحد خاضع لشريعة واحدة ، مكلف بها ، فلا يجوز اتباع الرجل الذي يخالف هذه الشريعة ، وبذلك علمنا أن هذه المزاعم كلها باطلة خاطئة ، ولا يريد الشيخ الرومي من قوله ذلك إن العلم الخضري يفوق العلم الموسوي ، بل مقصوده أن بعض الاجلة اذا لم يقفوا على بعض الاسرار الهينة ، فكيف يجوز لك وأنت صغير أن تأبى ذلك ، وأن تنكر أسرارهم » .

الفتنة الكبرى

أما الفتنة الكبرى التي دخلت في التصوف من طريق هذه الباطنية ، فهي تأويل آيات القرآن الى ظاهر وباطن ، وترجمته وفقا لهما ، فيجب أن نعلم حقيقة ذلك وتفهمها .

« كثيرا ما توجد في كلام الصوفية آيات على غير ما أوله أهل الظاهر ، ففي مثل تلك المواضع يتغالط الناس في الفهم ،

حيث يظنون أن تفسير القرآن هو هذا ، وأن تأويل علماء الظاهر أخطاء وزلات ، فهذا النظر خاطىء خطأً فاحشا ، وهو شعار الزندقة الذي تنهدّم به الشريعة وتنهار وتزول الثقة عنها ، ويطعن بعض الناس على هؤلاء العلماء بأنهم حرّفوا القرآن وغيّروه ، فلا يفسرون الا عن رأيهم ، فيجب اذن أن نحقق ما يقولون .

« ان التفسير الاصلي الحقيقي ، هو الذي فسّر به العلماء المفسرون القرآن ، لكنه يوجد مع ذلك أمور تشابه مقصود المعنى القرآني أو مدلوله ، فتنتقل النظرة من هذه الى تلك فلهذا التشابه التام يقيس بعض الصوفية هذه على تلك ، ويستنبطون أحكاما وفق ما تشاكلها ، ولا يقصد الصوفية بطريقتهم هذه . أن يضمّوه الى النص الاصيل ، بل انما هم يقصدون من وراء ذلك تمثيلا وقياسا لا غير .

« كما أن المقصود من آية (طَهِّرا بَيْتيَ) تطهير الكعبة ، لكن الخيال ينتقل منها الى أن في الانسان كذلك شيئا يشاكل الكعبة ، وهو القلب ، حيث أن الاضواء الإلهية كما تشرق على الكعبة تفيض على القلب أيضا ، (أو كما أن الكعبة هي بيت الله فكذلك قلب المؤمن عرش الله) فقاسوا من ذلك ، أنه كما يجب تطهير الكعبة ، يجب تطهير القلب الذي هو منزل التجليات الإلهية .

ويسمى هذا العلم الاعتبار ، الذي حث عليه في قوله

تعالى (فاعْتَبِروا يا أُولي الابْصَار) ، ويستخدمه جميع الفقهاء والمحدثين في الاحكام كلها ، فانه اذا قال رجل في هذا المعنى بأن المقيس مدلول النص ، يمعنى أن القياس مظهر لا مثبت ، فلا مؤاخذة عليه . ان الفساد كله في الغلو والمبالغة، يقول الشيخ : « كل ما تكلف به بعض الناس ، من أن قرروا أن لكل آية ظهرا وبطنا ، قول غريب ، بحيث لا بد من امكان أن تحوي هذه الآية ظهرا وبطنا كليهما ، وهذه النكت والاعتبارات التي تستنبط من كل آية لا تتسنى للآيات ، كما لا يخفى لعلماء القوانين الشرعية واللغوية،فلذلك يستنكر أن يُدَّعى أن للقرآن بطنا ، بل انما أريد من البطن تلك المعاني الدقيقة ، والحقائق المستنبطة ، التي يفهمها المجتهدون من العلماء ، والتي كتبها علماء الاصول في الوجوه والدلالات ، ثم ان لهذه البواطن مراتب ودرجات مختلفة ، منها ما لا يعقلها العامة ، بل يفهمها العلماء المتوسطون، ومنها ما يفهمها العلماء الراسخون في العلم والمجتهدون فحسب ، وبعضها مما لا يفهمها الا الانبياء عليهم السلام وفوق كل ذي علم عليم .

« إنكار ظواهر القرآن والسنة كفر ، الا أن قبول الظاهر ، وأخذه ، والعبور منه الى الباطن ، هوطريق المحققين، مثلا ، جاء في الحديث الشريف « لا تدخل الملائكة بيتا ، فيه كلب أو صورة » فاستنكر أهل الظواهر اقتناء الكلب في البيت ، غير أنهم لم ينقّوا قلوبهم من الصفات الكلبية ،

ولكنهم يحملون الايمان ، فانهم سيدخلون الجنة كيفما كان ذلك الدخول ، أما منكروا الظاهر ، فقد أباحوا اقتناء الكلب ، وقالوا ان الشيوخ لم يفهموا مغزى الحديث ، اذ معنى البيت هو القلب ، ومعنى الملائكة هو الانوار الغيبية ، وحقيقة الكلب هي الصفات السبعية ، وغير ذلك، فهؤلاء قد مهدوا السبيل الى النار بانكارهم للشرع ، أما المحققون فقالوا : ان معنى الحديث هو ما فهمه أهل الظاهر ، لكن يجب التفكير فيما يجعل الكلاب مبغوضة الى الملائكة ، وهي صفاتها الذميمة السبعية ، والنجاسة والحرص والغضب وغير ذلك ، فحينما لم يبح اقتناء الكلب في البيت الظاهري ، فكيف اذن يجوز القاء صفاته في البيت الباطني .

. وبالغ بعض الناس ، وجاءوا بأمر عظيم ، اذ استدلوا لإثبات هذا العلم السّري الذي ينتقل من صدر الى صدر ، بحديث سيدنا علي كرم الله وجهه ، وأدخلوا مسألة « وحدة الوجود » على الاخص في ذلك ، هؤلاء الجهلة المدعون للتصوف ، قد أشاعوا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم باح بأسراره الخاصة الى سيدنا علي كرم الله وجهه ، وهي تنتقل من صدر الى صدر ، الى هذا اليوم والشيعة أيضا يعتقدون العقيدة نفسها ، وقد سئل سيدنا علي كرم الله وجهه : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس ؟ ! فقال : لا ، إلا فهماً أُوتيته في القرآن .

القرب المنشود

ان اتصال الخالق بالمخلوقات ، أو اتصال الله بالكون اتصالا لا يتكيف فيه ، وقربه اليه ، ذاتيا كان أو صفاتيا ، شيء واقع وأمر مقرر ويستوي فيه المؤمن والكافر ، والصالح والفاسق ، والانسان والحيوان ، والنبات والجماد ، وسائر الكون ، وليس بخاص لواحد دون غيره ، ويقول الله تعالى « هُوَ الاولُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنِ ، وهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَليم » فلا ريب ، أن أولية الله سبحانه وآخريته ، وظاهريته وباطنيته ، تعم لسائر الاشياء ، وكل الكون ، وأحاط علمه بكل شيء من غير تخصيص بشيء دون آخر . « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ » اذ هو سبحانه « يَعْلَمُ ما في السَّموات والارضِ » وهكذا الاقربية التي تجدها في آية « ونَحْنُ أقْرَبُ إليْهِ من حَبْلِ الوَرِيد » ، والمعية التي تجدها في قوله «وَهُوَ مَعَكُمْ»، ثابتة للمؤمن والصالح ، للكافر والفاسق على السواء ، وقس على هذا ، ويلزم لكل مؤمن بالقرآن الاعتراف بصحة القرب وواقعيته ، سواء فهم حقيقته وكنهه ، أم لم يفهم ، ولا يكفي الفهم فقط ، والاعتراف به ، بل يجب استحضاره ، والعمل بوفقه ، أما من اقتصر على الفهم وتعمق في فلسفته كغلاة

القائلين بوحدة الوجود ، فشأنه شأن المسلم الذي عرف حقيقة اقامة الصلاة ، ووقف على حكمها ومصالحها ، ثم بقي تـارك الصلاة ، كذلك اذا علمنـا نحن فلسفة القرب ، ووضعناها ، لا يغني ذلك عنا ، ولا يفيدنا ، لان الهدف الاصيل ، والمطلوب لعلم هذا القرب ، وهذه المعية ، أو الاعتقاد بوحدة الوجود ، أو وحدة الشهود ، أن يحصل شهود الله الدائم في القلب ، أو تحصل درجة الاحسان ، حيث يأتي من يعتقد ذلك لجميع أعمال حياته ، وأفعالها ، من حركات وسكون ، مؤمنا بأن الله قريب أو أقرب ، حاضر ، ناظر ، كأنه بين يدي ربه محتسبا لله وبصيرا، كأنمـا هو أمامه ، وانه يراه وان لم يكن يراه ، فلا شـك أن الله يراه ، وبهذا الاستحضار ، ينشأ عنده اهتمـام بالاحتراز عن معصية الله وسخطه أو عصيانه ، وبجانب ذلك ، تحصـل له في الطاعة والعبادة وطلب الرضا ، درجـة الاحسـان التي هي الكمال المطلوب للاسلام والايمان ، والا لو آمنا بأن اقامة الصلاة فريضة محكمة ، وزيادة على ذلك ، عرفنـا فلسفـة حقيقة الصلاة وأهميتها ، ولم نأت بشيء منها ، وبقينا بمعزل عن الصلاة ، محرومين عنها وتعرضنا لسخط أشد ، وعقـاب أنكى من الله .

والجنـة أيضـا ليست مطلوبـة بالذات

وليس من القرب المنشود ، أو المرام الاصيل للقرب كما قال حضرة الشيخ رحمه الله أن يجلس الرجل (معاذ الله) في

حجره سبحانه وتعالى ، بل انما هـو في مصطلح الصوفيـة المحققين عنوان الدرجة الرفيعة ، التي يتوخى فيها العبد ربه جل وعلا ، أو يطلب رضاه ، حتى أن الجنـة لا تبقى غايـة ومطلوبا بالذات ، وإن هؤلاء السابقين (المبرزين على عامـة أهل الايمان الذين يسميهم الله تعالى بأصحـاب الميمنـة) ، ويجعلهم الله بفضله وعميم كرمه من المقربين اليه المختصين به ، كما ذكر في آيات سورة الواقعـة الآتية : « فَأَصْحَـابُ المَيْمَنَـةِ مَا أَصْحَـابُ المَيْمَنَـةِ ، وأَصْحَـابُ المَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْئَمـةِ » وليس بخاف أن المقصودين من أصحاب الميمنة ههنا ليسوا أهل الجنة أجمعين، بل المراد ، هم عامة أهل الجنة المسلمين ، أما ذكر الخاصة فهو متقدموهو (السَّابِقُون السَّابِقُون أُولئِكَ المُقَرَّبُون»، ومنـه علمنـا أن النوع الثالث فائق على أهل الجنة كذلك .

« لكن ليس المعنى أن هؤلاء سينزلون في موضع آخر دون الجنة ، بل هم كذلك من أهل الجنة ، من حيث الاقامـة والسكنى ، غير أنهم يختلفون عن أولئك ، من حيث الطلب ، فأهل الجنـة نوعان ، طالبوا الجنة ، وطالبوا الحق ، وظهر من تكرير « السابقون » أن هؤلاء سابقـون لكلتا الطائفتـين المذكورتين ، فسبقوا على أهل الجنة كذلك ، وهذا هو المفهوم من امتيازهم عن أهل الجنة ، وان كلام أهل الطريق صريح في هذا المعنى ، فقد قال السلف الصالح أن أسمى درجة الطلب ،

أن لا ينشد الطالب غير الله ، لا الجنة ، ولا توقي النار ، ولكن ليس معناه أن لا يطلب الجنة ، بل انما مغزاه أن لا ينشدها لذاتها ، كما يقول الشاعر : (ما الوصل وما الهجر . إنما يجب أن يكون كل شيء لرضا الله سبحانه ، لان الاماني التي لا تتعلق به باطلة غير طائلة) .

شبهة

وهنا تبدو شبهة ، وهو أننا نجد في الاثر الشريف : «اللهم اني أسألك رضاك وجنتك » وذلك يدل على أن الجنة هي غاية بذاتها .

« فالرد على هذا » أن مسألة الجنة هذه ليست الا كما اذا سأل رجل في أي مكان أستطيع أن اقابل فلانا ؟ فيقال له انها ممكنة في البستان الفلاني ، فيقصد هذا الشخص ذلك البستان ، واذن لن يقول الناس عنه انه جعل البستان منشودا لذاته ، بل يقولون ان منشوده هو الرجل الذي يبغي لقاءه ، ولما كان ميسورا في الحديقة ، فتوخاه فيها ، هكذا المنشود الاصيل في الحديث ، تجده هو الرضا الذي قدم على الجنة ، ولما كان تحصيله ميسورا في الجنة ، جعل الجنة منشودة ، وقال الله تعالى (ورضوانٌ من الله أكبرُ) سورة آل عمران الآية ١٥ ففي هذا الموضوع جعل الله رضاه أكبر من الجنة ، فعلمنا من هذا أن الاكبر والاجل هو رضا الله فلتكن وسيلة هذا الاكبر كذلك أكبر وسيلة ، فقال (ولَذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ) فعرفنا

أن ذكر الله وسيلة ، وأن غاية العمل بجميع الاوامر هي ذكر الله » .

فيجب أن تجعل الله تعالى هو المنشود والغاية في الطاعات كلها ، بل ويجب أن تصرف النظر عما يرونه وصالا ، ولا بد أن تعد العمل الذي يرضى الله به ، هو المقصود والهدف ، وتواظب عليه بالهمة العظيمة ، ، حتى لو رأيت الرضا في الفرقة ، فعليك أن تشيح عن خاطر الوصال ، ولله درّ من قال :

أريد وصاله ويريد هجري فاترك ما أريد لما تريد

دع عنك فلسفة الوصال والقرب والمعية ، التي تهدف الى القعود في حجر المطلوب ، التي تجدها عند أصحاب الفلسفة ، فان الموثوق به ، والمطلوب عند أهل الدين ، هو القرب والرضا ، ومن وسائله الايمان والعمل الصالح ، وقد أشار القرآن أيضا الى ذلك بقوله (إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ)سورةالبينة الآية٧و٨ ، سمى الله هذه الدرجة العليا والمكان الأسمى بخير البرية ، كما أنه قد سمى هؤلاء (بأولئك المقربون) ، كما جعل صلتهم الممتازة علاقة الرضا ، وقد قرر سبحانه وتعالى في موضع آخر بايضاح وتفصيل طريقة التقرب الى الله ، أنها الجمع بين الايمان والعمل

الصالح واكمالها ، اذ الايمان الضعيف والاعمال الصالحة الناقصة حاصلة لعامة المسلمين أيضا ، فيقول الشيخ معلقا على آية (وما أموالُكُمْ ولا أولادُكُمْ بالّتي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى ، إلا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ، فأُولئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وهُمْ في الغُرُفَاتِ آمِنُون •) سورة سبأ الآية ٣٧ •

هذه آية من القرآن الكريم ، قد كشف الله فيها عن كنز ثمين ، وهو القرب اليه ، وبيّن طريق وصوله ، وحذر مما قد يقع فيها الانسان من غلطات وعثرات ، والشيء الثمين في هذا هو التقرب الى الله ، والتقرب ليس هو التقرب الجسدي ، فيرجى قصر المساحة وقلة البعد ، اذ ليس هذا الا من خصائص الجسم ، وبذلك يتبين خطأ عامة الناس الذين يتزيّون ويتشبهون بالخاصة ، يعني بالمشيخة والصوفية ، والحقيقة أنهم دهماء وجهال ، وهؤلاء يزعمون أن التقرب الإلهي هو التقرب الجسدي ، وذلك هو الذي يتبين من أمثلتهم •

وان وجدنا عند المتقدمين مثالا لذلك ، فلا بد لنا من أن نؤله ، ولكن هؤلاء العامة لا يؤلون في مثل هذه الأقوال ، فتجد بعضهم يشبه الله بالنهر ، ويشبه نفسه باللجة ، وبعضهم يشبه الله ونفسه بالنهر والقطرة ، أما نحن فحينما نجد مثل هذه التشبيهات في كلام بعض الثقات فنؤله •

إنكار التشبيه مغالاة

لأن الإنكار للتشبيه مغالاة ، والتشبيه يوجد في القرآن

كذلك وهو : (اللهُ نُورُ السّمواتِ والأرضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمشكاةٍ ، فيها مِصبَاحٌ ، المصباح في زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأنّها كَوكَبٌ دُرِّيٌّ) سورة النور الآية ٣٥، فلو كان التشبيه ذميما باطلاقه فكيف جاء اذن في القرآن؟!..

أقول هذا ، لأني أجد بعض المتشددين يتغالون كثيرا ، ولا يتفهمون المعنى ، بل يرون الظاهر ، ويفتون بالكفر والبدعة ، مع أن الله تعالى يقول (لا تَغلوا في دِينِكُم غَيرَ الحَقِّ) سورة المائدة الآية ٧٧ ، ومثاله أن تحرم الامر الذي يوجد نظيره في القرآن تحريما مطلقا .

فلما وجدت التشابيه في القرآن بعينه ، ظهر اذن أن هذه الشدة في التنزيه ليست بصحيحة ، وذلك أن تحرم التشبيه تحريما كليا .

« بيد أنه يلزم تبين وجه الشبه ، والتشبيه هو اجتماع شيئين في أمر ، مثلا اذا شبه الوجه بالبدر ، فمعناه أن الصفة التي يتصف بها كلاهما ، تجعل الوجه شبيها فيها بالبدر ، دون أن يكون معناه أن الوجه ليس اتساعه وضخامته الا كاتساع وضخامة البدر ، أو أن البدر يحوي كذلك العينين والأنف والأذنين والخد ، والصورة بعينها ، أو كما أن البدر لا يحوي الأرجل والأيدي كذلك لا يحويها هذا الرجل — لا .؟!.. »

« على ذلك ، فان التشبيه الذي عرضه الله تعالى ، انما

معناه ، هو أنه يشابهه في كمال النور ، وان كان مما لايخفى، أن كلا الكمالين لا يتساويان ، وليسا في درجة واحدة ، كما أن جميع أعضاء « الكلي المشكك » لاتتساوى ، غير أن أمرا واحدا يلازم كلا منها ، مثلا شدة الضياء ، وكذلك يجب أن لا يكون المشبه به أكمل وأتم من المشبه ، غير أنه يجب أن يكون أوضح وأعرف ، فهكذا اذا كان جاء في كلام محقق تشبيه الله بالنهر ، وتشبيه نفسه باللجة ، فلابد من أن يكون ذلك التشبيه في شأن مخصوص » •

كما يقول المغربي ع (قد برزت من البحر أمواج مختلفة عجبا كيف خرجت ذات الالوان من بحر لا لون له ؟ !) •

« قد بلغ الحال من الناس ، الى أن جملتهم الذين لم يتعلموا ولم يقرأوا جزءا من القرآن ، يقرأون هذه الأبيات ويتواجدون عليها ، مع أنهم عن فهمها عاجزون ، ولو فهموا لكان فهمهم أن الله متسع ، وخرجنا نحن منه ، فبفهمهم هذا يخسرون دينهم ، فلا يجوز إنشاد هذه الابيات بين أيديهم » •

وكل هذا لم يكن الا نعيا على الصوفية الجهلة ،والصوفية الذين لا يملكون من التصوف الا الاسم على تشبيهاتهم هذه ، وعلى ضلالاتهم في معانيها الظاهرة ، واللغوية ، وكان هذا تنبيها لهؤلاء وزجرا على ما فهموه وأشاروا به ، وتعليما لهم أن معنى القرب ليس كما يزعمونه في النهروالقطرة ، وإن حمل مثل هذه الكلمات على المعنى اللغوي غلط فاحش •

« بل انما المراد بالقرب الذي ذكر في الآية هو الرضا »، وذلك أن يرضى الله تعالى عن عبده ، والقرب درجات ، منه قرب علمي ، وهو حاصل لكل شيء مع الله ، فيقول الله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ) سورةالواقعةالآية٨٥ أو (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، سورة ق الآية ١٦ ، والآخر منها هو قرب الرضا ، الذي يحصل لبعض دون بعض ، والمقصود في الآية المذكورة هو هذا القرب ، دون القرب العلمي ، لانه ليس بخاص للمؤمن والصالح •

« وإن قرب الرضا هذا لكنز ثمين ، لكن كثيرا من أهل الدين لا يحسبونه مقصودا وغاية ، فضلا عن أهل الدنيا ، الذين لا يعرفون قيمته وفضله •

طريق تحصيل الرضا

ولما تبين ان القرب المنشود والذي نُطالِبُ بتحصيله ليس هو القرب العلمي ، بل انما هو قرب الرضا ، وهو أن يرضى الله سبحانه وتعالى ، فيجب علينا أن نستمع بعناية وشغف الى الطريقة التي دلنا الله عليها في القرآن الكريم •

« فأخبرنا الله بتلك الطريقة في آية (وما أموالكم ••••) بأن المال والاولاد التي يتمناها الناس ويشغفون بها ، ليست ذريعة التقرب ، بل ان من ذرائع التقرب ، هو الايمان ،والعمل الصالح ، ولا يخفى أن الدرجات المختلفة من الايمان والعمل

الصالح ليست مطلوبة ، ومطالبا بها ، الا اذا كانت كاملةتامة ، لان الناقص يحصل لكل رجل من عامة المسلمين ، ولا يكون مما يحمد عليه ، وينال الرضا والاعجاب ، والذي لا ينال الرضا والاعجاب ولا يحمد كليا ، كيف يصبح ذريعة للرضا والاستحسان ؟ ! ..

« معنى ذلك أنالقرب الذي نعرفه مطلوبا من استقراء القرآن ، والذي عناه الله سبحانه بقوله (أولئك المقربون) ، والذي عبَّر به عن المكانة العليا للانسانية ، لا يكون سوى كمال الايمان وتمام العمل ، أو بلفظ آخر ، انما يكون ذلك كمال الدين ، ولذلك لا بأس لو نسمي التصوف « علمالقرب» كما أسميناه « علم الاحسان » سابقا . بل هو الصحيح الذي لا غبار عليه ، لان التصوف الاسلامي عبارة عن الاحسان والكمال الديني ، وقد عبَّر عن هذا الكمال الديني بالقرب ، ولكنه عين الدين ونفسه ، يعني اجتماع الاعمال الصالحة بتمامها وكمالها مع كمال الايمان .

عناصر ثلاثة لدرجة الكمال

ان كمال الايمان والعمل الصالح هذا يتوقف على ثلاثة أمور : (١) العلم (٢) العمل المتواصل (٣) الحال ، والدين يحتوي على هذه الاجزاء الثلاثة ، فلو لم يكن العلم لما عرفت الاحكام الإلهية ، ولو لم يكن العمل لم تنفع معرفة الاحكام ، ولو وجد العمل لكان يكفي في ظاهر النظر ، فانك سترى بعد

التبصر والتروّي أنه لا ينفع أيضا ، اذ لا يرجى فيه الاخلاص والاستقامة ، والمقصود من الحال « ملكة » ، ومثاله أن يشغفه رجل بشخص آخر فيسقيه ويطعمه ويخدمه ، فهذا عمله ، أما أن يضطرب له ويتململ فيه فهذا حاله .

« إن العمل الذي يخلو من الحال ، لا يثبت ولا يستقر ، وأنه يستحكم اذا وجد الحال ، كما أن رجلا يصلي ويصوم ، فاذا لم يكن صاحب حال فسوف يأتي هذه الاعمال بشق النفس ، ولا يزال في صراع معها ، فلو فاته منها شيء في وقت ، لم يعبأ ولم يتأسف على فواته كثيرا ، أما الحالة الثانية فهي : فانه اذا فاته العمل حينا ما ، تنغّص عيشه واكتأبت حياته ، وهذا الثاني هو صاحب الحال وهذا شأنه .

وقد ورد في هذا المعنى شعر معناه :

« إن السالك تقوم قيامته اذا نقص من حديقة قلبه تبنة تافهة أو عود حقير ! ... » .

ولو أن إيجاد هذا النوع من الحال غير واجب ، لانه اذا وجد الاخلاص في عمل رجل ، ولو كان متكلفا ، فعمله عند الله مقبول ، ولا خسارة فيه ، غير أن هذه الحالة على خطر ، حيث اذا لم يكن القلب ميالا طامحا فسلوكه اذ ذاك ليس مضمونا ، ولا يدري أحد متى يتعثر وأينما ينقطع وينتهي عمله؟ لذلك يلزم أن يوجد الحال أيضا ، يقول شاعر ما معناه :

« يا حبيبي أرني طريق المجذوب العارف لاني أرى طريق الزهد طويلا وشاقا » .

وإن معنى البعد والطول ، بأن يوجد العمل ، ولا يوجد الحال ، هو أن قطع الطريق مستطاع ، لكنه ليس ميسورا ، ويواجه فيه الرجل المشقة والوعثاء ، ويقول مولانـــا الرومي تأييدا لهذا :

(تجاوز القول وكن رجل الحال) ، ثم ينبه على خطـة (التواضع والانقياد لرجل كامل) ويقول إن هـــذه الحالــة لا تحصل بالدراسة والثقافة ، بل تتأتى بالصحبة ، لانها ملكة ، والملكة لا تنشأ الا بالصحبة ، فلو تناول واحد كتاب تجويــد الخط ، وأخذ يتمرن على الخط ، فلن تنشأ الملكة التي تتحصل له بصحبة خطاط مجيد ، وتجد أن هذا الحال نفسه لكيفيــة الباطن لا يتسنى بدون الصحبة .

العلم والعمل والحال

فما أحوجنا الى هذه الثلاثة ! وهذا هو الدين ، وتعليــم هذه الحال انما تتضمن عليه آية : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ) سورة الحديد الآية ١٦

فيجب المسارعة الى العناية بهذا الجانب ، حتى لا يقسو القلب ولا يغلظ ، لانقضاء فترة من الوقت ، وقد تبين من هذه الآية كم يلح القرآن على الحال .

وهذا هو الشأن الذي أشارت سيدتنا عائشة رضي الله

عنها اليه بقولها : (كان خلقه القرآن) بأن القرآن قد أصبح لديه أمرا طبيعيا ، فما كان يهوى الا ما يحبه الله سبحانه ، ومن كانت هذه حاله فلا خطر عليه من التقهقر ، ولا خوف عليه من التوقف ، بل انه يستمر في المضيّ والتقدم ، لان قلبه يحمل حافزا ، ثم انه يصير محبوبا ، مع كونه محبا لبركة تلك الصفة ، بل وتصبح حاله في بعض الاحيان الحال ذاتها التي ذكرها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا علي رضي الله عنه بقوله : (اللهم أدر الحق حيث دار) •

نرى هذا الامر فيما يبدو لنا مستحيلا ، بل ومقلوبا،ولكن كل شيء في قدرة الله ، فهو يقدر على أن يحول لمحبوبه الامر المعكوس مستقيما صائبا •

« مثلا اذا حاول رجلان ، وتخاصما ، وكان هناك رجل محبوب من الطراز الذي أسلفنا ، وقد انحاز الى أحدالفريقين، مع أن هذا الفريق ليس على الحق ، فان الله تعالى ينحي الحق اليه ، فيتوب هذا من خطأه ، واذن لا يضطران الى أن يتحولا عن رأيهما •

القرب عنوان للكمال الديني

تقرر من ذلك أن القرب هو ذلك الذي يسمى به الايمان الكامل والعمل الصالح ، أو كمال الدين ، وبالاخص ، اذا أصبح هذا القرب حالة طبيعية ، الى أن تصبح الطاعة للحياة الدينية وأحكامها طبيعية ، وان لا يحب شيئا في مختلف شئون

الحياة ، الا ما أحبه لله والرسول ورضيا به ، فيندفع اليه السائق من طبعه وهواه ، فاذن لا خوف من التحول والرجعة من الدين ، ولا خطر من التوقف أثناء التقدم والرقي الديني ، بل ويجد السالك في هذا الطريق طلب المزيد والغرام بالتقدم المتواصل ، ولن يقتنع بأية درجة من درجات الحياة الدينية سواء كانت شخصية أو اجتماعية ، كما أن النفس الانسانية لا تشبع ولا تكتفي بأية درجة واحدة ، في المرغوبات الطبيعية والنفسية ، والمطالب أو الترقيات والتقدمات المادية ، وبعد كل ذلك ، فانك لن تجد حدا ولا غاية في درجات الوصول الى الله، وقال شاعر ما معناه :

« أيها الاخ إن مكانة سامية لا نهاية لها وكل محل تصل اليه تجد فوقه منزلة أخرى » .

« فالجمع بين العلم والعمل والحال هو وسيلة للقرب والرضا ، الذين هما غنى عظيم ، لان هدف الغنى والثراء هو إراحة النفس ، وأي شيء أروح للنفس من ان يكون المحبوب الحقيقي راضيا وقريبا ، وتجد في القرب من الحبيب والخليل وفي رضاه طربا ولذة ، يحولان العناء راحة ونعيما .

قال شاعر ما معناه :

«إن سخطك أيضا نعمة لقلبي فان قلبي المكلوم فداء لك» .

لا يتقاعس الرجل في بذل مهجته ونفسه كما قال شاعر آخر ما معناه :

« ليس من حظ العدو أن يكون قتيل سيفك ، أحيا الله رؤوس العشاق حتى تعمل فيها سيوف المحبوب » •

وذهب بالمجنون أقاربه الى الكعبة المقدسة ، وقالوا له أدع الله أن يرحمك وينجيك من الغرام بليلى ، فدعا الله أن يزيده حبا بها • فانظر اذا كانت هذه الحالة في حب امرأة ، فما ظنك في حب الله ؟ ! ••

العبدية

وتسمى هذه الحالة العشقية والطبيعية ، أو هذا الكمال في الايمان والعمل في اصطلاح الشريعة « عبدية وعبودية »وهي أن يتمثل الرجل كل أمر من أوامر الله تعالى ورسوله دون تردد ولا إباء ، ويحسب في رضاهما واستحسانهما رضاه ومسرته ، ويؤمن بذلك •

« يجب أن يكون موقفنا من الاحكام الشرعية موقف العاشق من حبيبه ، وموقف المملوك العبد من مالكه ومولاه ، فقد حكوا : أن رجلا اشترى عبدا ، فسأله عن اسمه ؟ فأجاب هو ما تتخذه أنت ! ثم سأله : ماذا يشتهي أن يأكل ؟ فقال هو ما تطعمني أنت ، وهكذا استفسره عماذا يرغب في لبسه ، فرد عليه قائلا كل ما تكسوني به » •

فحقيقة العبدية ، هي محو الرجل لهواه ورضاه في سبيل أمر المولى ورضاه ، ولما كان هذا من مقتضيات العبدية المجازية ، فاذن :

« أفلا تكون العلاقة التي بيننا وبين الله هي العبدية ، بل اننا اذا تفكرنا لوجدنا أن علاقتنا بالله هي علاقة العبدية الحقيقية ، وأن الانسان ليتمكن من التخلص من العبدية للانسان دون العبدية لله سبحانه وتعالى ، فهي لازمة ملاصقة ، لا نقدر التخلي عنها أبدا سرمدا ، ولا يمكن هذا الا اذا لم نبق عبدا ، ولم يبق الله إلها ، والعياذ بالله من ذلك » .

وغاية خلق الانسان هي العبدية كما يقول سبحانه وتعالى: (ومـا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ الاّ لِيَعْبُدُونْ) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

« فعرفنا أن الغرض الذي خلق الانسان لتحصيله في الدنيا ، هو هذه الحالة العبدية ، يعني : أن الانسان بعث في هذه الدنيا ليتمثل الأوامر والنواهي الإلهية ، وانه حينما يكملها يحرز درجة العبدية ، اذ كان حينما لم يبرز الى هذا الوجود روحا ، ولم يكن متمكنا من القعود والركوع والسجود لكونه روحا مجردة » .

الأوامر والنواهي لا تتصل غالبا الا بالافعال والاعمال ، سواء كانت هذه الاعمال عبادات اصطلاحية ، أم كانت معاملات ومعاشرة ، أو كانت أخلاقا ، فانما اكمالها جميعا وأداؤها ، هي العبدية ، لذلك كان لابد لرقي كمال العبدية الذي هو متوقفه على هذه العبادات الخاصة ، من أن يظهر الانسان في هذه الدنيا التي هي دنيا الاجساد والنفوس .

وعلى ذلك ، ليس لنا أن نستفسر ونستكنه أسرار الاوامر والنواهي ومصالحها ، بصفة أننا عبيد ، فليس لنا أن نهتم بهذا ، بل يجب أن نقبل كل مايصدر لنا من أوامر ، ونأتي بها من غير تلكؤ وتردد ، وأن نعتقد فيها الحكمة والمصلحة .

« بل وأقول انها ولو رأيناها ضد المصلحة ، فليس لنا فيها أن نبدي ولو أدنى تقاعس وتردد ، حيث أننا لسنا الا عبيدا ومملوكين ، بل ولا محل هناك لنيتنا أيضا ، أنها لنا مصلحة لأننا لسنا بشيء ، كما قال الشاعر ما معناه : »

« لا شأن لك بالصافي والكدر من المدامة ، وما عليك الا السكوت والتسليم ، فكل ماصبه لنا الساقي الكريم انما هو فضل منه ، يجب أن تلهج ألسنتنا بالشكر والاعتراف ، ولا يحسن أن نسأل السبب والفائدة . »

والمقصود من حقيقة الامر في وحدة الوجود ، هو كمال العبدية وحالها ، وذلك بأن لا تمحى أهواء النفس والدنيا بين يدي رضا الله وأحكامه فحسب ، بل وتغلب عليه تلك الحال حتى يغيب وجود الرجل نفسه ، ويغيب وجود ذوات خلق الله تعالى بين يدي الحق سبحانه ، فلا يرى ويشعر به .

« هذه الكيفية هي التي قال عنها أهل هذا الفن انها « وحدة الوجود » وليس معناها ما يقوله العامة الرعاع ، ويعرفونه بأني الإله وأنت الإله ، والمحاريب والجدران هي الآلهة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، وكذلك ما يعتقده

بعض الناس أنه لا موجود سوى الله أصلا ، خطأ صريح أيضا، وهو يتنافى مع القرآن والحديث بتاتا يقول الله تعالى : (اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْء ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ وَكيل) سورة الزمر الآية ٦٢ » .

« والحقيقة أن هذه المسألة ، ليست الا مسألة الحال ، لا مسألة القال ، وهي أن ذات الله سبحانه ، حينما تكون نصب العين ، فاذن لا يحس صاحبها بوجود نفسه ، ولا بوجود الآخرين كذلك ، الا كالمنعدم ، والممحّي ، مثلا اذا كان رجل في طيف أو خيال ، فانه لا يتنبه لأطياف وأخيلة أخرى ، ولا يتلفت اليها ، حتى انه لا يسمع نداء من يناديه ، بل ويغيب أحيانا في خياله ، الى أنه اذا وقف أحد على رأسه ، وناداه ، أو وقف رجل آخر بجنبه لم يشعر به ، ولم يتنبه له ، فانمثل هذا الرجل في استغراقه وذهوله ، يتسنى له أن يقول «لاموجود الا الامر الفلاني » .

قرب النوافل

فوحدة الوجود ، أو وحدة الشهود ، والتفاني والقرب والوصال ، تجد كل ذلك في مصطلح التصوف ، هو الذي يسمى في اصطلاح الشريعة « بالعبدية » وهو ما عبر عنه الصوفية اتباعا للاحاديث المشهورة : « بقرب النوافل » و « قرب الفرائض » وما الى ذلك من العناوين ، وتفصيله كما يأتي :

كلما يعالج العبد الرياضة والمجاهدة ، تنتفي منه صفاته الرذيلة ، وتنكبت دواعي شهوته وغضبه وعللهما ، وتتولد في النفس ملكة الحب لما يرضاه الله ، وملكة الكراهية لما لا يرضاه الله ، وملكة البغض ، وترسخ رسوخا قويا ، وبهذه الطريق تصدر من العبد الاعمال الحسنة والافعال الحميدة ، بكل يسر ، دون اعتناء وكلفة ، وتنعدم الاعمال القبيحة والافعال المذمومة تقريبا ، وقد جاء في الأثر الشريف عن مثل هذا المرء « فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » .

فاذا كان لا يسمع باذنه ما يخالف رضا ربه ، ولا يرى بعينه، ولا يحرك يديه وقدميه خلاف أمر ربه ، بل كان مايسمعه ويبصره أو يفعله فهو تبعا لرضا الله ووفق أمره ، فثبت اذن أن جميع جوارحه العاملة ، من أذن وعين ورجل ويد ، قد صار عمليا لله سبحانه لا لنفسه .

أما معناه في الظاهر فهو مستحيل عقلا وشرعا ، ولما كان جميع أفعال جوارحه وأعضائه تظهر وفقا وتبعا لرضا الله سبحانه ، فقال سبحانه عن نفسه كأنه يصير أعضاءه (أي سمعه وبصره ورجله ويده) .

ولما كان تحصيل هذه المكانة متوقفا على اكثار النوافل ، وكانت المجاهدة والرياضة محتاجتين الى اكثار النوافل أيضا ، سواء كانت هذه صلاة أو صوما ، أو كثرة

المراقبات ، أو تقليـــل الشهوات ، أو أي شيء آخر ، فقال الصوفية عن هذه المرتبة اتباعا للحديث « قرب النوافل » ولما كانت تنعدم وتزول بذلك الصفات الرذيلة والافعال القبيحة ، فقالوا عنه انه فناء الصفات .

قرب الفرائض

هذه الدرجة أسمى من درجة قرب النوافل ، ومغزاهـــا أن يضمحل وجود العبد ، الى أن لا يرى قدرته وارادته أمام قدرة الله وارادته شيئا ، ولا يعيرهما عنايـــة ، ويتحول في الافعال والاعمال الى مثل الآلة لله سبحانه ، وأن يتصور دائما تأثير الحق سبحانه دواما ، وهذا أرفع درجة من الاول ، لأن الاول كان يحوي فناء الرذائل ، ولم يكن يحتوي على فنــاء الاختيار ، فأصبح اذن أرفع من الاول .

والحديث يدل كذلك ، على أن التقرب بالفرائض أفضل من التقرب بالنوافل ، ولذا تجد الجزء الاول من هذا الحديث « وما تقرّب اليّ عبدي بشيء أحبّ اليّ ممـا افترضتُ عليه » ولذلك تجد الصوفية يسمونــه ، موافقة للحـــديث المذكور ، « التقرب بالفرائض » ، وحيثمـــا لا يبقى نظـــر السالك في ذلك على صفاته الذاتية من القدرة والاختيـار ، يسمونه اذن « بفناء الذات » .

التفويض والدعاء

خلاصة كل هذا هي « العبدية » ومعناها ، أنه ليس لنـــا

أي شيء من ذاتنا وصفاتنا ، بل كل شيء ملـك له ، ونحن مملوكون له ، ولا غير ، ومن أسماء هذه العبدية «التفويض»، وان كان يُرى في ظاهر الامر تعارض فيمـا بين التفويض والدعاء ، لكني أذكر لك حقيقته المحتوية على نكتة بديعـة جديرة بأن تحفظ •

ليس معنى التفويض أن لا يدعو ولا يسأل ، بل المطلوب منه أن تكون نفسه غنية ، حتى اذا لم ينل مراده لما اضطرب ، بل اطمأن ، فانه اذا لم يكن الأمر كما قلت ، لما أمر العبـد بالدعاء والسؤال ، بيد أنه يجب لدى السؤال والـدعاء أن يديم في روعه ، أنه اذا لم يستجب لسؤاله ، يعدما سأل ودعا ، فانه سيرضى ويطمئن بجميع قلبه ، انها مسألة أشكلت عـلى كبار الفضلاء ، فقالوا كيف يمكن الجمـع بـين التفويض والدعاء ؟! لكني أقول : يجوز للعبد أن يسأل ما استطاع ، ويتضرع ما أمكن له في سؤاله ، فليس السؤال مما يتنافى مع التفويض •

وأمر مهم يجب أن تكون فيه على بال ، وهو أن «العبدية» تتحلى في شكل أوضح وأقوى ، اذا ألحف العبد في الدعاء ، وتيقن بالاجابة ، وأن الله لن يحرمه ، لأن هذا شأن العبـد وأجدر به ! وهو من آداب السؤال ، والخيار بعد ذلك كله لله ، والله اذا رأى من مصلحة العبد رزقه استجاب لدعائه ، ولما أمر الله بالسؤال وجب عليه ، فصـار السؤال مطلوبا ، والدعاء أيضا مقصودا وغاية •

« فان المقصود اثنان ، أحدهما ما يسأله العبد ، وثانيهما السؤال نفسه بل ان الخطر في الامتناع عن المسألة [1] ، لأنه أمر بالسؤال ، ولكن العبد استغنى عنه وزهد فيه ، وبعض الناس يرون الدعاء مقصودا ، ولا يرون ما يدعون له مقصودا ، وهو خطأ عظيم ، وحسبه الناس التفويض ، لأنه قد يعد استغناءً عن الله ، وهو يتعارض مع شأن العبدية كليا .

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه يضيف الى دعائه بعد طعامه كلمات ، (غير مودع ولا مستغن عنه ربنا) وهنالك مئات من الآثار ثبت فيها السؤال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجات كثيرة ، فكيف يكون مثل هذا خلاف التفويض ، فان اعتقاد السؤال مخالفا للتفويض خطأ فاحشا ، ولو أنه خطأ اجتهادي ، وسببه غلبة الحال !! »

الأوراد مكان الدعاء

كثيرا ما يسأل الناس عن الأوراد لقضاء مطالبهم وحاجاتهم مكان الدعاء ، ويحسبونها أعظم تأثيرا واغناءً ، فكشف الشيخ في هذا الأمر عن حقيقة جليلة ، حين شكا رجل تقاعده عن العمل ، وطلب « حجابا » فقال :

ليس للمهنة « حجاب » ، ولكني أوصيك أن تردد « يا باسط » اثنتين وسبعين مرة ، بعد كل صلاة من الصلوات

(١) كما جاء في الحديث .

الخمس ، ثم استطرد قائلا : ان الناس في هذه الايام يغرمون بالأوراد ، ولا يقبلون على الشيء الاصيل ، وهو الدعاء ، مع أنه روح ولب لجميع العبادات ، ثم تحدث بما ينفع في هذا الشأن ، فقال انه يتولد في القلب ، لمباشرة الأوراد ، كيفية الادعاء ، وهي أني أعالج تدبيرا ، فكأن النتيجة في يده ، أما الدعاء فان شأنه شأن خاص ، انه يحوي كيفية العبدية ، وهي قول العبد اني أسأل الله تعالى فلو شاء أعطى .

شأن العبدية

ان الذين تستولي عليهم كيفية العبدية . يصطبغون بصبغة عجيبة ، فقد كان الحاج امداد الله رحمه الله متكيفا بهذه الكيفية ، فقد جاء اليه رجل ، وقال له دلني على ورد يرزقني الله به رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال حضرة الشيخ ما أعظم طموحك ! أما نحن فلسنا بخليقين بأن تتشرف بزيارة القبة الخضراء الشريفة ، ما أعجب شأنه في التواضع وانكار الذات والانكسار ! لقد كان اماما في هذا الشأن ، ولقد كان جميع شئونه تشهد بالتحقيق والحكمة ، ولا غرو ، فان الماء انما يجري الى الحدور والمنخفض من الأرض .

كان أعظم ما يتعلمه الانسان ويستفيده في مجالسه وصحبته ، هو الفناء والامحاء ، وكان من شأنه أنه كان يرى كل واحد من أصحابه والمنتمين اليه أفضل من نفسه ، وكان

يقول اني أرى زيارة أقدام القادمين وسيلة للنجاة ، لقد كان مظهر العبدية والتواضع الجم في كل شئونه وأوقاته •

ان الكمال المقصود للشريعة والطريقة كلتيهما هي العبدية، التي قيل عنها فيما سبق انها قرب الرضا ، وهو ان يذيب العبد مرضيات نفسه في مرضيات ربه ، وأن يجعل أعماله كلها تبعا لأوامر الله سبحانه كليا ، ولذلك لا يمكن حصول هذا القرب والوصول ، الا بطريق الاسلام ، لأن معرفة أوامر الله سبحانه وتعالى ومرضياته الصحيحة الموثوق بها ، لا توجد الا في دين الاسلام ، واذا حصل القرب والوصول بدون اتباعها ومعرفتها، فمثلها مثل اللص والثائر اذا دخل على الملك في مخدعه من طريق خلفية غير عادية ، ثم حسب نفسه من مقربي الملك ، ويشرح هذا حكاية لطيفة ضربها الشيخ مثلا لهذه النكتة :

مثال عجيب للوصول من غير رضا

الغاية الاصيلة هي الرضا ، لا الوصول فحسب ، بمعنى أن الوصول والقرب الذين يحصلان من غير رضا الله ، ليسا بغاية ، ولا منشودين ، ومثال الوصول من دون الرضا ، كما جاء في حادثة الرأي الملكية في دهلي ، أن ريفيا جاء الى دهلي ليرى الملك ، فقابل رجلا ، فسأله عن طريقة يمكن بها رؤية الملك ، قال الرجل ليس هذا بعسير ، فانك اذا ضربت رجلا كريما ساقك الى الملك ، وهناك سترى الملك ، فقال الريفي فمن أجده أكرم منك ، وأخذه فضربه ، ولما كان هذا الرجل

من الوجهاء والسراة ، لحقه الخزي والعار الكثير ، فغضب جدا وساقه الى الملك ، وهكذا تمكن زيارة الملك ، والاجتماع به لكل واحد في كل وقت .

ليست هذه الرؤية والمشاهدة الا مصحوبتين بالجريمة والجناية ، وليست الرؤية محمودة الا اذا رافقته بهجة الملك وفرحته ، وكذلك لا يحمد الا الوصول الذي يرافقه الرضا ، وقال في أثناء كلام له في هذا الصدد ، بأن سر نقل الانسان من عالم الارواح الى عالم الاجساد ، ليس الا في أن يترقى في قرب الرضا ، بامتثاله للاوامر واتيانه بالاعمال ، وليحصل نعمة التقرب المصحوب بالرضا ، فأبان فيها أن مدار غاية القرب المقصود كله على الاعمال ، وما شكاه كثير من الصوفية من افتراقهم عن عالم الارواح ، وكما بدأ الشيخ الرومي كتابه به ، (استمع الى الناي ماذا يحكي وكيف يشكو البين) .

حمل الشيخ كل هذا على غلبة الحال هذه ، وقرر في تلك الكلمة أن موت المؤمن هي الحياة الاصلية ، وعلى الاخص وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فانها حياة حقيقية أو ميلاد ملكوتي .

هذه الحياة موت في حقيقة الامر

« هناك نكتة لطيفة ، اني قررت الى الآن كون الموت حياة ، أما الآن فأقرر كون الحياة موتا ، ان حقيقة الموت هي الانتقال من عالم الى آخر ، أو انقطاع هذه الحياة الناسوتية ،

ومعناه الآخر ، أن الموت يقال للميلاد الملكوتي ، لأنه يحصل هناك الانتقال من عالم الناسوت الى عالم الملكوت ، فهكذا الميلاد الناسوتي فانه موت من نوع ، لأنه يحصل فيه الانتقال من عالم الارواح الى عالم الاجسام ، بل ويحسن أن نسميه موتا ، لأن ما يسمونه الموت يحصل به الانتقال الى الوطن الحقيقي ، وظاهر أن الوصول الى الوطن من الغايات ، ولا يقال له الموت الا في العرف والعادة ، غير أن الحقيقة هي أن الموت الحقيقي هو مفارقة الوطن الحقيقي الى الوطن الموقوت ، لكنه لما كان الناس على عمومهم غافلين عن الوطن الحقيقي سموا انقطاع الحياة الناسوتية موتا • ولا يسمون الميلاد الناسوتي موتا ، لكن الذي يعرف أن له وطنا يعتقد خلاف ذلك •

لذلك تجد شيوخ الصوفية في كثير من الاحيان

« يحنون الى الوطن الحقيقي ويتأسفون على مفارقته ، فالشيخ الجامي يشير الى هذا الوطن ويحزن على مفارقته »•

« لماذا تجاهلت وكرك ونسيته ، وأصبحت مثل الأنذال من يوم هذا الخراب » •

الوطن الاصلى هو عالم الارواح ، وان عالم الناسوت بالنسبة اليه خراب ، فيجب اذن أن يحزن على مفارقته ، لا على مفارقة هذا العالم ، فالشيخ الرومي يذكر هذا ويقول :

« فاستمع الى الناي ماذا يحكي ويحدث وأنه يشكو التنائي والبين » •

فلماذا رزقنا هذه الحياة ؟

لما كانت هذه الحياة موتا ، وكنا في السابق في وطننا الاصيل عالم الارواح ، فلسائل أن يسأل ، لماذا أخرجنا من وطننا ، وبعثنا الى هذا العالم ، وقد كانت حياة ذلك العالم أفضل ، وقد كان القرب هناك أشد ؟!..

فالجواب عليه ، انا بعثنا هنا للاعمال ، ولذلك أوثرت الحياة الحاضرة على الحياة الغابرة ، وقد فطن لهذه الحقيقة المحققون ، أما المغلوبون عليهم فانهم يتمنون ليتهم بقوا في عالم الارواح ، اذ فيه كما يبدو الراحة بل القرب كذلك ، يقول الشاعر :

يا راحة وهدوء بال في حلم العدم ، لم أكن فيه أسيرا لجمال وهائما في خيال ، لكن الظهور نبهني وأوقعني في شرك الهوى ، وهذا لأن التذكر والحنين لا يكونان عادة الا في حالة فراق ، أما الوصال والقرب فلا حنين فيهما ولا تذكر .

كراهة هذه الحياة ، والسخط عليها لغلبة الحال

فلنقرأ الآن تحقيق حضرة الشيخ المجدد وابتكاره ، انها غلبة الحال وليس تحقيقا ، ما الذي يمنى النفس بذلك العالم؟ أليس لأنه يتضمن القرب ؟ لكن القرب لا حد له ، لأن كل درجة بعدها درجات ، وظاهر أنه لما كان القرب بالطبع حبيبا الى النفس ، فكل درجة منه أصبحت حبيبة الى النفس ، وعلى

الاخص للعشاق الذين كلما عرفوا أن هناك درجات أخرى للقرب ، لا يستطيعون الصبر والقناعة على درجاتهم ، وقد قال الشاعر في أمثال هؤلاء « الطامحين المستزيدين » .

« انني لا أقول انهم لايجدون سبيلا الى الماء ، ولكنهم عطاشى يستقون وهم على شاطىء النيل » .

« فانهم لا يشبعون عن زيادة القرب ، فلما عرفناهذا سهل علينا أن نفهم أن ذلك العالم كان فيه قرب ، لكن قرب ذلك العالم كان قاصرا ، ولم يكن يزداد ويعظم ، اذ القرب لايعظم عادة الا باتصال الجانبين ، وانما من عادة الله سبحانه أن تقوى وتعظم علاقته مع عبده اذا كان العبد يطلب ذلك ويحرص عليه ، وحقيقة الطلب هي العمل ، ولما لم يكن هناك عمل ، لم يكن للقرب أن يزداد ويشتد .

الرقي بالطلب

لذلك بعث الانسان من عالم الارواح الى عالم الاجسام ، ليتولد من الطلب العمل ، فيتفتح منه الباب الى الرقي والتقدم ، وقد قال الله سبحانه في الحديث القدسي (مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شبراً تقرَّبْتُ إليه ذراعاً ، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربت اليه باعاً ، ومن أتاني يمشي ، أتيته هرولة ، أو كما قال) سبحانه ما أعظم منته ! وما أعظم ما يمن ويتفضل على طلب صغير من عبده ! لكن بشرط أن يأتي السعي والطلب من العبد مبتدئا ، كما تبين من الحديث فيما تقدم .

« فالحقيقة ان المزيد من القرب يفتقر الى الطلب ، وبعد الطلب الى السعي ، لان الله سبحانه ليس بجسم حتى يكون (معاذ الله) في مكان نجتاز اليه مسافة أرضية ، فنجلس في حجره ، لا يمكن اكتساب القرب اليه الا بأن نربح رضاه ، ونكسب رحمته ، وان نستعطف عنايته بنا ، فهذا معنى قرب الحق سبحانه .

وينحصر رضا الله سبحانه وقربه في شيء واحد ، هو الاعمال الصالحة وكلما استأثر العبد الاعمال الصالحة ،انعطفت عناية الله سبحانه اليه ، فيقول الله سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ، أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرِيَّةِ، جَزاؤُهُم عِنْدَ رَبِّهِم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ، خَالِدِينَ فيها أبَداً ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه.) سورةالبينة الآية٧و٨، قد حصر الله سبحانه الرضا ، أو قرب الرضا في هذه الآيات في الاعمال الصالحة .

ولما علمنا أن مفهوم القرب هو الرضا ، وأن الرضامتوقف على الاعمال الصالحة ، علمنا اذن انالاعمال نوعان ، أعمال القلب ، واعمال القالب ، وهي التي تتعلقبالجوارح ، ثمللاعمال قسمان ، منها ما هي موهوبة ، وما هي مكتسبة ، مثل المحبة الاصلية ، والخشية الحقيقية ، والشوقالحقيقي ، (أيصلاحية هذه الامور وصلاحية الانسان لها) ، وهي أعمال القلب

الموهوبة ، والله يستطاع مدها وزيادتها بالذكر والمراقبات والرياضات وغير ذلك ، وهي أعمال القلب المكتسبة » .

ومما لا شك فيه أن الاعمال الحقيقية هي التي يعمل فيها الاكتساب والاختيار ، أما الاعمال الموهوبة فلا يقال لها أعمال الا بالمجاز ، القرب الذي يكتسب بالقصد ، انما يحصل بمثل هذه الاعمال الاختيارية » ولم يكن في عالم الاوراح سبيل الى اعمال الطالب ، لانه لم يكن هناك قالب أو جسم ، ولا الى أعمال قلبية مدارها على الكسب والاختيار ، اذ لم تكن هناك آلات الاكتساب بتاتا .

لقد كان هناك قرب ، لكنه كان واقفا على حد ، فلم يكن من الممكن التقدم فيه ، لان الاعمال كانت هناك غير مستطاعة، لذلك فالمحققون يتألمون بتصورهم لعالم الارواح ، يقولون أي راحة هناك ؟ انما الراحة والمتعة هنا ، فان للعبد أن يتقدم ما شاء عن طريق الاعمال والقربات ، وليس له حد ينقطع اليه فانه لا ينقطع بحد ، وكيف يرتاح العاشق اذا وجد المحبوب أمامه ، لكنه يقول له إياك أن تتقدم ، انه يحب ويهوى أن يعانق محبوبه ، بل يحب أن يعانقه محبوبه ويضمه الى صدره[1] .

---

(١) ومعنى هذه المعانقة حاصل ، لان المقصود منها أن المحبوب يأخذ العاشق في كنفه في غاية القرب ، أما القرب فثابت بقوله تعالى : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » أما الاكتشاف والاحاطة فقد قرر الله ذلك بقوله : « ان الله بكل شيء محيط » .

فاذا كان تقارب الطرفين ميسورا في هذه الدنيا ، فلقائل أن يقول ، فماذا بقي للآخرة ؟

والجواب ، إن ظهور هذا القرب الكامل التام ، والمتعة الكاملة به لا يكون الا في الآخرة ، لان القرب الذي يحصل بين العبد وربه بعدمقدمه الى هذا العالم ، وان كان أكثر وأشد مما كان قد يحصل في عالم الارواح ، ولكنه يقصر عن أن يطمئن به قلب الانسان كليا ، أما في الآخرة فسيحصل الرواء كليا ، اذ سيتمتع كل عبد برؤية الله سبحانه ، وفق ما يتمنى ، لانه يرزق هناك قوة لاحتمالها ، حسب تمنّيه ورجائه .

غير أن الذي لا يمكن انكاره ، هو أن التمني لن يكون أكثر من قوة الاحتمال ، وهذا هو السر في التفاوت بين درجات القرب ، وذلك بأن كل رجل يحرز القرب قدر ما تقتضيه صلاحيته واستعداده ، لذلك سيتشقى قلبه ، أما في هذه الدنيا ، فلا بد من حجاب لاجل ستائر مرخاة ، فلا يحصل الانكشاف حسب التمني ، فتبقى في نفس يعقوب حاجة لا يقضيها .

فهم خاطيء

وثمة فهما خاطئا وقع فيه بعض الصوفية ، الذين يظنون أنهم سيجدون في الآخرة التحنن والالتياع والاضطراب لرؤية الحق سبحانه ، فلا حور فيها ولا قصور ، انما هنالك التعطش

والهتاف بمثل ما قال موسى على الطـور « أرني » فهـؤلاء يعتقدون أنه لن يحصل السلوان كاملا ، حتى في الآخرة كذلك، مع أن مثل هذا الخطأ من المحبين العشاق مصفوح عنه •

(لو أخطأ فلا تقل له مخطئا ، فلو رأيت دماء الشهيد على جسده لا تغسله) ، لا يلامون في هذا ، غير أن رد هذا الاعتقاد والظن لا بأس به ، انه في الحقيقة خطأهم الذي وقع في كشوفهم، لانه لم ينكشف لهم فوق ذلك • ويمكن ان يكون هذا حالة بعض العشاق في الآخرة لوقت ما ، لكن لا بد أن تشفى نفوسهم، وتقضى لباناتهم لتجلي الله تعالى ، ولما لم يكن لهم علم واطلاع على هذا التشفي الذي سيحصل في الآخرة ، حسبوا أن التحنن لن يزال ، حتى الى ما بعد الدخول في الجنة •

وأحكَمَ هذا الخطأ قياس" ، هو أنهـم قاسوا الجنـة على الحالة التي هي في هذا العالم ، ومن حالة هذا العالم ، أن جمال المحبوب غير متناه فعلا ، وغرامنا في هذا المعنى غير متناه، اذ لا ينتهي الى حد ، يقول الشاعر :

« بكل تداوينـا فلم يشف ما بنـا » •

فحسبوا أن جمال المحبوب غير متناه في الآخـرة أيضا ، وعشقنا لا قرار له ، فكيف، تحصل اذن الطمأنينـة والراحـة هناك أيضا ؟ ! ••

فأقول ان الطمأنينة ستحصل ، وطريقه أن جمال المحبوب من دون شك غير متناه ، لكن غرامـك سيتناهى الى حـد ،

والقرب سيحصل لك بمقدار ما تلائمه صلاحيتك وتقتضيه ، فبذا يرزق كل واحد منا التروّي والتشفّي ، فافهم أنك لن تجد القلق في الجنة ، بل انما كل داخل فيها سيرتاح ويهدأ ، انما القلق خاص بهذا العالم ، على كل حال فقد بعثنا الله في الدنيا لنتقدم وتترقى بأعمالنا .

التصوف ليس البطالة بل هو الكمال في العمل

ان الدين الذي يجعل الاعمال غاية خلق الانسان ، وقطبا لرقيه وتقدمه ، بل ان الذي جعل جميع الاعمال الحسنة في ضوء الايمان وهدايته ، عبادة أصيلة ، ثم انه لا يعني بهذه الاعمال الحسنة صلاة وصوما وغير ذلك من العبادات المشهورة فحسب ، بل ويعني بسائر الامور والمعاملات للحياة الفردية ، والجماعية ، والاخلاق ، والمعاشرة ، والحكومة والسياسة ، والجهاد والقتال ، والامن والمصالحة ، والثقافة والمدنية ، الى تفاصيل الحياة العملية كلها ، بما في ذلك من أعمال دقيقة جزئية ، والقيام والقعود العاديين ، وسائر آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، فكل ذلك خاضع لهدايته وارشاده ، وداخل تحت اشرافه ، وليس التصوف الا هذه الدرجة من كمال الدين ، فماذا يكون المعنى لهذا التصوف سوى الكمال في العمل مع الايمان ، ان من الغريب أن هذا الكمال العملي ، أعني التصوف ، قد اعتبره أولئك الذين يؤمنون به ويشغفون به من غير المحققين ، وأولئك الذين ينكرونه على السواء فرارا من شئون الحياة

وقضاياها ، والنفور منها ، ورهبانية وانقطاعا الى الزاوية .

جريمة الاستخفاف بالعمل

افترض محبوا التصوف والمغرمون به ، للعشق والمحبة ، والقرب والمعية ، والوجودية والعينية ، وغيرذلك من المصطلحات الفنية ، معاني أوحتها نفوسهم ، وزعموها من أنفسهم ، مما وضعت وحقرت لديهم عبادات الصوم والصلاة وغير ذلك ، فضلا عن أن تكون هناك عناية بالمعاملات والمعاشرة ، والاعمال والاحكام الدينية للاخلاق ، ثم انهم اذا شاهدوا عند بعض المشيخة قلة العناية بالاعمال ، لغلبة الحال ، أو لاعذار خصوصية ، لم يفهموه ، ولم ينظروا الى عذرهم ، وهو غلبة الحال ، بل يقعون فريسة في حبائل النفس ، ويظنون هذه الغلبة والعذر كمالا بعينه ، ويتبعونهم في هذا ، فيضيعون دنياهم ودينهم ويخسرونهما .

كما تجد بجانبهم ، المنكرين غير المحققين منا ومن غيرنا ، فمن أساؤوا الظن بهذه الامور ، وحسبوا التصوف هجرا باتا للاعمال ، وانقطاعا الى الزاوية ، أو حسبوا الصبر والتوكل ، والترك والتجرد ، والزهد والقناعة ، والتحمل والتواضع ، وغير ذلك دعوة الى سقوط الهمم ، ومجموعة من الاخلاق السلبية المبنية على الجبن ، فأنكروه أو عرضوا التصوف الاسلامي كأنه مستقى من « يوك » والاشراقيين البراهمة ، والافلاطونيين ،

وكأنه نظام مستفاد من « كيان » أو طرق تصورهم وخيالهم ، أو هو فلسفة من السرّية Mysterisma ، وأثبتوا بذلك براعتهم ودقة فهمهم وبعد غورهم .

ومن دواعي ذلك ، أن أفكارا ومقالات مثل العشق والمحبة ، والقرب والوصال ، والوجودية والمشهودية ، والعينية والغيرية ، قد تغلغلت في كتب التصوف الهامة ، وفي كلام الصوفية العظام ، وشغلت مكانا كبيرا ، حتى أصبح التصوف عنوانا لهذه الاشياء في نظر الذين لا يدققون النظر ، ثم ان ما يعبرون به عن هذه الاقوال والمقالات ، من مصطلحات دقيقة فلسفية ، وتعبيرات متنوعة براقة شاعرية ، يجعل التصوف شعرا خياليا ، لا صلة له بالجد والكفاح ، وفلسفة ، لا شأن لها بالحياة العملية . ضد حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحياة الصحابة العملية .

فخلاصة ما ذكرنا ، ان ما قام به الشيخ من التجديد والتحقيق في هذا الموضوع ، والذي عرضناه بشيء من الشرح والبسط ، وكان لا غنى عن ذلك ، في نفي هذه الاخطاء المتراكمة المتراكبة ، وفي فهم العلاقة الصحيحة بينها ، وبين التصوف الاسلامي ، وخلاصتها ان العشق والمحبة ، والقرب والمعية ، ووحدة الوجود ووحدة الشهود ، كلها في الحقيقة عناوين مختلفة ، وأنماط متنوعة ، أو مصطلحات فنية للتفهيم والتعبير عن مفهوم واحد ، وعن حقيقة واحدة ، يعني العبدية التي هي « عصارة خالصة للكتاب والسنة » ، انهم لا يتخذون التعابير

الحديثة ، والعناوين والاصطلاحات الجديدة ، الا للتقريب الى الفهم ، وأي فن أو علم دينيا كان أو دنيويا لا يخلو من هذه التعبيرات والمصطلحات ، والعنوانات الجديدة ، التي يدعو اليها العصر وتطوراته ، وتوجبها الضرورة .

الهدف الاصيل هو العبدية التي هي كمال العمل والطاعة

والمقصد العظيم والهدف الجليل لهذه العناوين ، والتعبيرات ، والاصطلاحات هو إبانة هذه العلاقة بين العبد والرب ، بالعبادة والعبدية ، والتفاني والتسليم ، الذي يفهم من آية : (ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ) ، وهو اظهار لذلك ، وادماجها في الحياة العملية ، لتكون علاقاتنا بالله علاقة العبد الرقيق الخاضع ، الذي يظل مشمّرا ومستعدا لطاعة سيده في كل وقت ، وكذلك لتتحصل صبغة من « الاحسان » من معرفة الذات والصفات ، والاحاطة والمعية ، والقرب والاقربية ، التي نفهمها من « فان لم تكن تراه فانه يراك » ، التي تجدها لدى المملوك ، حين شهود مالكه ، ومثوله بين يديه ، اذ لا يتردد من أداء أي عمل صغيرا كان أو جليلا ، وانما هذا كمال العمل والطاعة .

كمال العبدية يستلزم كمال الاسلام والرضا

ما أعظم السيد وأكرمه ! هو صاحب الكمال والجمال والنوال وجامعها ، الذي لا تكون العلاقة معه عبدية جافة

فحسب ، بل علاقة صلة غرامية لازمة ، فلو كانت علاقة العبدية هذه متجردة من الشوق والجذب عن العشق والمحبة ، ولو كانت نوعا من الجبر والعبدية المجردين ، لامكنت اذن الطاعة العملية للاحكام في أي صورة وشكل كان ، لكن لن تجد فيها علاقة الرضا والتطوع القلبية ، ولن توجد درجة « كل ما يأتي من الحبيب خير » ، الدرجة التي هي التسليم والرضا ، بل وقد يمكن بالعكس منه ، نشوء الشكاوى ونبوّ القلب ، اذا لم تتفق الاحكام مع النفس في كثير من الاحيان ، ولذلك ما كان من احجام الشيخ إمداد الله وإعراضه من السماح بالمراقبة التوحيدية ، حتى يظهر شيء من صبغة العلاقة الحبية والعشقية ، لأنه كان يخاف أن تتولد الشكاوى ، وينشأ الكفران ، حينما يرى العبد الخير والشر ، والراحة والألم من مشيئة الله في الامور التي لا توافق طبعه ، والتي لا يقدر على التحمل فيها ، فيجب أن يكون كمال التسليم والرضا مع كمال العبدية ، بأن يكون كما قال الشاعر ، ما معناه :

(عذابك عذب ، ومرك حلو لنفسي ، وان نفسي فداء للحبيب الذي يؤذي القلب لايكن حظ العدو أن يهلك بسيفك ، حيا الله اعناق المحبين حتى يمتحن فيها سيفك ، دع عنك الفراق والوصل ، ولا تطلب سوى رضا الحبيب ، فحرام أن تطلب منه سوى نفسه).

هذا هو اللون الغرامي الذي أفاضته محبة الله ورسوله في

حياة الصحابة رضي الله عنهم العملية كانوا به يحملون رؤوسهم على أكفهم في سبيل الاحكام الإلهية ، فما كانوا يخافون سهما ولا سيفا ، ولا كانت محبة الأهل والأولاد تحول وتعوق من الاتباع والطاعة ، ولا كانت ألفة الاوطان والمكان تمنعهم من الاغتراب والهجرة .

انما الغاية العظيمة من العشق والمحبة ، والوجودية والشهودية ، هي الحياة العملية للعبدية ، وتحصيل كمالها ، يعني تحصيل مكانة « الاحسان والرضا » ، وذلك بأن يضمحل ويتضاءل كل وجود في النظر ، سوى وجود الله سبحانه ، وبأن يزول كل خوف أو رجاء من غير الله ، فكريا كان أو نظريا بالنسبة الى أحكامه سبحانه ، ولا يعبأ ولا يكترث كذلك بنفعه وضرره كذلك ، وأن تغلب الطاعة والاسلام لأحكامه سبحانه في كل حالة وصورة وخيال .

★ ★ ★ ★

السلوك والتربية

أما مداومة الطاعة في الاحكام والاعمال ، فهي التي تسمى العبدية والخضوع ، وهما اللذان يعبَّر عنهما بكلمة «الاسلام» وهما روح التصوف الاسلامي ، أما التربية بهما فهي عند الشيخ التهانوي المجدد هو السلوك الكامل ، وهو أن لا يقصر المرء ما استطاع في امتثال الكتاب والسنة ، وجميع الاحكام والاعمال الشرعية ، سواء كانت فرعية أم أساسية ، وذلك ما تراه في كتاب « تربية السالك للشيخ المذكور » بآلاف صفحاته ، كما تراه في مكاتيب الشيخ ، فان كلا من ذلك يدور حول هذا الموضوع ويبحث عنه ، ولكن يجب أن تفهم أن ليس معنى العمل الهتاف باسمه ، وهذا الصخب الذي تسمعه صباح مساء ، فكل ينادي « العمل » « العمل » كما نرى في هذا العصر ، وأن العوام لا يريدون بذلك غير الاعمال والحركات البهيمية أو الصبيانية والجنونية أو الشركية ، كما أن الاطفال لا يعرفون ما داموا أطفالا سن الرشد والحياة التي هي أبقى وأعلى ، فلولا توجيه آبائهم واشرافهم لقضوا كل وقتهم في اللهو واللعب والمناقشات في الاشياء التافهة الجنسية وفي الاكل والشرب والمتع ، أو كما أن الطيور والانعام لا تعرف لها

مستقبلا ساميا معلوما ولا هدفا رشيدا ، غير أنها تتبع ماتوحي نفوسها اليه بالطبع من دون تبصر ولا تفهم من صباحها الى مسائها ، تتكالب على الاكل والشرب والتوليد والنسل ، فهذا ميدان مسابقتها أو على حد التعبير العصري الدارج ، أنها تنكب على جهاد الحياة ، وتنهمك في التنازع للبقاء ، فتنقطع الى هذه التفاهات ، أو أن يصير الرجل كسفيه أو مجنون ، ضرب هذا ورمى ذاك وشتم ذلك ، فالحاصل أنه لا يعرف هدفا معقولا لأي عمل من أعماله وحركاته مثل المجانين واتجاهاتهم.

العمل والحركة عند المشركين

هنا قسم ثان لمثل هذا العمل يدق فهمه وتكثر فيه المغالطات، وهي أفعال المشركين الذين قطعوا صلتهم عن خالق الانسان ورب العالمين ، فبعضهم لزموا عبادة النار وحسبوها بل سموها ديانة ، فيباشرون أعمالها وأفعالها ، وبعضهم يعكف على عبادة الشمس ، أما الآخرون فقد اختاروا الشجر والحجر أو الانسان والحيوان ، سواء كان حيا أو جامدا أو ناميا ، واتخذوه لهم آلهة ووقفوا حياتهم لها ، أما الذي يفوق كل هذا لبسا ودقة وخطأ فهو أن « يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » وهو أحدث أنواع الشرك وأكثرها طرافة ، وقد استفحل وقوي أمره من باب الإلحاد والكفر والانكار ، فعاقب الله رجاله لانحرافهم عن جادة الحق ، بأنهم يلحدون فيخضعون أمام أناس مثلهم ، فمنهم من يعدو خلف

الاشتراكية والشيوعية لا يلوي على شيء ، ومنهم من يهيم بالجمهورية والديمقراطية ، فيلذ له سماع الهتافات ويتبع كل ناعق لها ، ومنهم من يبذل نفسه وروحه للآمرية والسفسطائية ويضحي بنفسه لمن دعا بدعوتها وهكذا تحول الانسان عن عبادة الله سبحانه ، ومنح إعظامه واكباره وعبادته الآخرين من أمثاله ، وناط بهم جميع أفعاله وأعماله[1] ، ثم انه من طبيعة الانسان العامة ، أن الانسان كلما تجاوز الحدود الثابتة لله سبحانه وحده ، فلا ينتهي الا الى أن يعبد هذا ويخضع لذاك من صغار الآلهة الكاذبة وكبارها ، فهذا طابع الالحاد الحاضر الذي يؤله فيه الانسان الانسان ، ولا تنحصر عبادته في إله واحد ، بل لابد له أن يخضع لكل صغير وكبير من الزعماء والآلهة السياسيين ، والحركات الاخرى ، من غير تبصر ولا ترو ، وهؤلاء الآلهة المزورون يطلبون من عبادهم أعظم قربان من نفوس وأرواح وأموال وشرف من غير رحمة ولا هوادة ، أفنجد فيما مضى من الزمن أن آلهة العصر القديم طلبوا من تضحيات للمال والنفس ما طلب هؤلاء الآلهة الحاضرون « الزعماء الجدد » في الحرب العالمية الاولى ، وأكثر منها

---

(١) نحن أكثر تأسفا على المسلمين الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس وقد أسند اليهم تجديف سفينة الانسانية ، وقد وكلوا سفينتهم الى جناح حينا والى أتاتورك حينا آخر ، وسلموا قيادتهم حينا ثالثا الى جواهر لال نهرو وأمثالهم من الابطال القوميين في كل شعب من شعوب الامة الاسلامية .

في الحرب الثانية ، أوكما يجبي هذا الخراج القاسي هؤلاء المتألهون في بلادنا الهند وباكستان صباحا ومساءً ، من يوم أن تحررت البلاد من نير الانجليز بكل بهيمية وحيوانية،وبكل وقاحة وقساوة .

فان الانسان حينما ينقطع عنه حبل الله ، يتسلط عليه الشيطان ويخلب عقله « يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ » سورةالبقرة الآية ٢٧٥ ، كأن الانسان يتحول بذلك كرة للقدم ، تتحرك وتعمل دائبة ، غير أن كل حركة من حركاتها لا تكون الا نتيجة لركل قدم لاعب (زعيم) وقد صور القرآن ، بأسلوبه المعجز وبلاغته التي لا مثيل لها ، هذا الهيام والتيه اللذين تتصف بهما الحياة المشركة في الاعمال والحركات فقال : « ومَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَيْرُ ، أوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحيقٍ » سورة الحج الآية ٣١ وقد حل الدعاة السياسيون والاجتماعيون والاقتصاديون ودعواتهم وفلسفاتهم محلَّ النسور الآكلة للجيف التي تمزق جسم الانسانية ، وتملأ بطونها بهذه اللحوم الممزقة وقطعها ، أو ترميه في مكان بعيد جدا عن الحياة الصحيحة الابدية ، وأسباب الحياة والعمل ، حيث لا رجوع ولا مصير له الا الهلاك الابدي .

المقصود من العمل هو العمل الصالح

والحاصل أن العمل الذي خلق الانسان له ، ليس مقصوده

هذا الفوضى والاضطراب والهتاف المتواصل للعمل ، وليس المقصود منه الخبط والتيه السوفسطائي ، انما الغاية هـــو العمل الصالح الذي يخرج الناس من هذا الخبط والاضطراب الذين يوجدان في العلم المشكوك فيه ، ثم الذي يمنحهم مـــن غير نظر الى لون النسل ، وفوارق البلاد ، والأمم ، والفقـــير والغني ، والطبقة المترفة والكادحـــة ، يمنحهـــم الحنيفيــــة الكاملة ، والوجهة الوحيدة التي لا يتسنى للانسانية الخلاص والانقاذ الا بالايمان بالإله الواحد ، الخالق للسماوات والارض ، وهو الذي عناه ابراهيم الحنيف بقوله : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّموات والارضَ ، حنيفاً وَمَا أنَا من المُشركين » سورة الانعام الآية ٧٩ وليس الايمان الا قبول هذا العلم والهدي الصادرين من الله سبحانه ، اللذين لا ريب فيهما ، واللذان يحيطان بكل شيء ، وهو خالق السموات والارض « يَعْلَمُ مافي السَّموات والأرضِ » سورة العنكبوت الآية ٥٢ ، واذا عمل الانسان بمقتضى هذا الايمان والعلم فهو العمـــل الصالح المطلوب في شريعة الاسلام وتعليمه .

أهمية حقوق العبــاد

لو حللنا العمل الانساني لوجدنـــا له صلة من أي طريـــق كانت بحقوق الانسان وواجباته ، أو بحقوق العبـــاد ، سواء كان العمل فرديا أو اجتماعيا ، سياسيا أو اقتصاديا ، مدنيا أو ثقافيا ، وانما جميع الفتن وكل الفســـاد ينشأ من التغافـــل

والتجاوز في أداء حقوق عباد الله هذه ، ومن الاحجام عن تأديتها ، أو التقصير في قضائها ، فانظر ما يقوله الشيخ في (قصد السبيل) :

« ان طريق الاقدام على التصوف هي أن يتوب الرجل عن سائر آثامه أولا ، وان كان عليه للناس حقوق ، فيشرع في محاولة قضائها ، أو أن يستسمح فيها أرباب الحقوق ، لأنه من دون أن يتخفف من حقوقهم لن يصل الى الله ، ولو جاهد واجتهد طول حياته » .

علامات النسبة الباطنية

فالذي يقولون عنه انه النسبة الباطنية ، يمكن لنا عنها أن نقرأ علامتها في كتاب « قصد السبيل » نفسه ، وان لحصول النسبة الباطنية علامتين : احداهما : أن يثبت ذكر الله في القلب ، حيث لا يزول لمحة واحدة عنه ، والثانية : أن ترغب النفس وتميل الى امتثال أوامر الله ، سواء كانت من باب طرق العبادة ، أو كانت من باب المعاملة مع العباد بعضهم مع بعض ، أو كانت مادل فيها سبحانه على طريقة التحادث والتحاور ، أو كانت ما دل الله سبحانه فيها على طرق القيام والقعود ، وأن تحجم النفس وترغب عما نهى عنها الله سبحانه ، مثل ما ترغب النفس الى الرغائب الطبيعية وتحجم النفس عن المكاره الطبيعية ، وعما لا تميل النفس اليه ، وأن تصطبغ سائر عوائده بصبغة القرآن الكريم .

الوصول الى الله لا يمكن بدون الاعمال

هذا هو لب التصوف الاسلامي والتجديدي ، حيث أنه عنوان للكمال في جميع الاعمال ، وفقا لما جاء به القرآن ، غير أنه كما تجد أن الموضوع الخاص في هذه الاعمال للفقه هي الاعمال الظاهرة ، فلذلك فان موضوع التصوف هي الاعمال الباطنة (لكنه مع التزام الاعمال الظاهرة وترقيتها) ، بحيث لو جاهد أحد في أعمال الباطن والقلب وأحوالهما من دون أعمال الظاهر والجوارح ، وجاهد واجتهد طيلة حياته فلن يصل الى الله ، ولن يكون متصوفا في التصوف الاسلامي ، اذ الهدف الاصيل في التصوف الاسلامي هو ارضاء الله سبحانه ، وذريعته السير الكامل على أوامر الشريعة ، ففي هذه الاوامر منها ما هي تبع للظاهر مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من العبادات ، وكالنكاح والطلاق وقضاء الحقوق التي تجب على الزوجين ، وغيرها من التي تسمي الديانات ، وكالاخذ والرد والتحاكم والشهادات والوصية وتقسيم الميراث وغيرها من شئون المعاملات ، وكالسلام والكلام والطعام والقيام والقعود والضيافة وغيرها من شئون العشرة والاجتماع ، وهي تسمى بمسائل « علم الفقه » ، ثم ماهي تبع للباطن ، كالمحبة لله والخوف منه والذكر له ، وتقليل حب الدنيا والرضا بمشيئة الله ، وترك الحرص ، واحضار القلب في العبادة ، وأداء الاعمال الدينية باخلاص ، وعدم تحقير أحد ، وتجنب العجب ، وكظم الغيظ وغيرها ، وتسمى سلوكا .

العمل باحكام الباطن كذلك فريضة

والعمل بأحكام الباطن فريضة وواجبة مثل الاعمال الظاهرة ، وانه ليتولد الفساد في الاعمال الظاهرة من فساد الباطن أحيانا ، مثل أن تكسل النفس لسقوط المحبة لله والقلة فيها ، أو أن يأتي الرجل بصلاته بدون تعديل أركانها مستعجلا، أو امتنع من الزكاة والحج بسبب البخل ، فلم تتطلع النفس اليها ، أو ظلم أحدا لكبره أو لغلبة غضبه ، أو أضاع الحقوق وتركها ، وما الى ذلك •

ولو عالج الاحتياط في هذه الاعمال الظاهرة بدون أن يصلح نفسه ، فلن يفيده هذا الاحتياط أيضا الا لبضعة أيام •

فلذلك لا يجب اصلاح النفس للاعمال الباطنة فحسب ، بل ويجب كذلك لتأدية الاعمال الظاهرة في صورة كاملة تامة•

الحاجة الى الشيخ

لكنه قلما يعرف الرجل نقائص النفس وعلل الباطن ، واذا عرفت وفهمت ، فقلما يعرف الرجل طرق علاجها واصلاحها ، واذا علم كذلك وعرف لتعسر اذن العمل به لصراع النفس ، ومن هنا يحتاج الانسان الى الشيخ الكامل ، لأنه هو الذي يعرفه بهذه الامور بعدما يتفهمها ويتعرفها ، ثم يصف لها علاجها وتدابير مداواتها ، ويعلّم أشغالا وأذكارا لتستعد النفس

للاصلاح ، وللسهولة في المعالجات والتدابير ، والذكر عبادة بذاته .

عملان للسالك

فيجب للسالك الاتيان بعملين : أحدهما لازم يعني مزاولة الاحكام الشرعية الظاهرة والباطنة ، وآخرهما وهو مستحب : هو اكثار الذكر ، فمزاولة الاحكام تأتي برضا الله سبحانه ، واكثار الذكر يحدوا الى زيادة الرضا والقرب ، وهذه هي خلاصة طريق السلوك وغايته .

فعلمنا من هذا أن خلاصة التصوف الاسلامي هي توخي رضا الله سبحانه ، وهو يقتصر وينحصر في استدامة ومزاولة الاعمال الظاهرة والباطنة كاملة ، وان لهذه الاعمال درجتين : احداهما للفرائض والواجبات التي تجب مزاولتها على كل مسلم ، ولذا يجب تحصيل تصوف هذه الدرجةعلىكل مسلم وجوبا لازما ، وهو يسمىالولاية العامة، أما الدرجة الثانية فهي درجة اكثار الذكر أو زيادة الرضا والقرب .

« لابد فيه من أن يشتغل الظاهر في نوافل العبادات ، والباطن والقلب في ذكر الله سبحانه دائما ، فلا يغفلأبدا،وهي درجة مستحبة ، وهي التي يقول لها الناس « التصوف » لكن يجب أن تذكر وتعلم » .

التصوف المحرم

« وان ساقه الاشتغال في هذه الدرجة الثانية الى ضرر في

شيء من أمور الدرجة الأولى ، أو ينقص فيها ، فالاشتغال في الدرجة الثانية اذن محذور ومحرم ، مثل ما يفعله بعض الجهلة بأنهم يهجرون الاهل والعيال ، ويشغفون بالدروشة » •

وهكذا تجد كثيرا من الجهلة يحسبون الاذكار والاشغال والمراقبات والرياضات ، أو الاحوال ، غايات ومنشودات أصيلة للتصوف والولاية ، وهي جهالة خالصة ، لأن المقصود هو أعمال الظاهر والباطن لا غير ، أما بقية الاذكار والاشغال المتعارفة ، أو الرياضات والمراقبات ، فليست الا تدابير ووسائل لاصلاح الاعمال ، أما الاحوال فهي الثمرات التي ليست بلازمة ، أي الثمرات التي لا يلزم أن تظهر ، وليس تحصيلها بواجب ولا منشود •

البيعة التقليدية ليست بواجبة

وكثير من الناس حسبوا الارادة والشياخة والبيعة لازمة للتصوف ، أو حسبوا البيعة الصرفة كافية ، وهي جهالة خالصة ، أما الغرض الحقيقي من الشياخة والارادة فهو أصلاح الاعمال الظاهرة والباطنة ، وعلى الاخص علاج الامراض النفسية ، ولو كان الشيخ والمريد معنيَّين بالاصلاح والعلاج عناية تامة فالبيعة التقليدية الصرفة ليست بواجبة اذن ، غير أن الانسان كما يلتمس لامراضه الجسدية طبيبا نطاسيا أعلم من يمكن حصوله ، ثم يراجعه في مشاكله الصحية ، كذلك

يجب الاعتناء بذلك في طبيب الباطن الذي يداوي الاسقام النفسية ، ولذلك لابد من عرفان سمات الشيخ الكامل •

علائم الشيخ الكامل

(١) أن يحمل من العلم القدر الذي لا غنى عنه ، (٢) وأن يكون محافظا على الشريعة في العقيدة والعمل والخلق جميعا ، (٣) أن لا يكون حريصا على الدنيا ، ولا يزعم لنفسه الكمال ، لأنه كذلك شعبة من حب الدنيا ، (٤) ويكون قد قضى مدة في صحبة شيخ كامل ، (٥) وأن يحسن العلماء والمشيخة المعاصرون المنصفون الظن به ، (٦) أن يرغب اليه الخاصة والعقلاء المتدينون اكثر من العامة ، (٧) والذين بايعوه كان أكثرهم أحسن حالة من حيث الشرع وقلة الحرص في الدنيا ، (٨) وكان يعطف ويحدب على حال مريديه في تعليمهم وتلقينهم ، وكلما رأى فيهم سوءً أو سمعه ، نعى عليهم ومنعهم منه ، لا أن يدعمهم على حالهم كيفما كان ، (٩) والجالس في صحبته يشعر بالنقصان في حب الدنيا ، والزيادة والتقدم في حب الله ، (١٠) أن يكون هو نفسه ذاكرا مشغولا ، اذ بغير العمل أو بدون عزمه لا تحصل البركة في التعليم • ويجب أن لا يلتمس فيه هل يضطرب ويتلوى الناس من تأثير القائه والتوجيه منه ، لأن ذلكما ليسا مما يلزم للولاية ، والحقيقة أنهما عمل نفسي يشتد ويعظم بالتمرين ، ولا يختصان بالتقوى ، بل تجد الكافر يقدر عليه كذلك ، وهذا العمل ليس من الواجب فيه أن ينطوي

على فائدة ، لأن تأثيره لا يدوم ، غير أن المريد البليد الذي لا يتأثر بالذكر شيئا ، يتلقى تأثرا وانفعالا لقبول الذكر لأيام عديدة ، بمعالجة الشيخ لهذا العمل ، لا أن يتلوى ويضطرب وينقلب •

الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة

يحسن أن نعرف تفسير كل هذا على وجه الاجمال فقد قال مجيبا على سؤال رجل :

« الشريعة اسم لمجموع الاحكام التكليفية ، وهو يحيط بالاعمال الظاهرة والباطنة جميعا ، وكانوا يرون الفقه مرادفا له لدى المتقدمين ، كما أثر عن الامام أبي حنيفة في التعريف بالفقه (معرفة النفس مالها وما عليها) ثم جاء المتأخرون فأصبح في مصطلحهم العنصر من الشريعة الذي يخص الاعمال الظاهرة فقها ، وأما ما يخص الاعمال الباطنة من شعب الشريعة فصار تصوفا [1] » •

« انه يقال لطرق هذه الاعمال الباطنة طريقة ، ثم ما يتولد من الصفاء والانجلاء في القلب لصلاح هذه الاعمال الباطنة ، يتكشف به للقلب بعض الحقائق الكونية المتعلقة بالاعيان والاعراض ، وعلى الاخص الاعمال الحسنة والخبيثة ،

---

(١) لكن هذين ليسا بمتخالفين ومتضادين ، بل ان التالي تكميل للاول كما تراه مشروحا ومؤكدا في هذا الكتاب .

والحقائق الإلهية من صفاتية وذاتية ، وعلى الاخص المعاملة التي بين الله والعبد ، ويقال لهذه المكشوفات حقيقة ، ويسمى الانكشاف معرفة . ويدعى صاحب الانكشاف محققا وعارفا » .

« فجميع هذه الامور تبع للشريعة ، وأما ما شاع عند العامة أن الشريعة انما تدعى بها الاعمال الظاهرة ، فليس بمأثور من أي رجل عالم ، وليس مفهومه عند العامة بسديد كذلك ، اذ هو اعتقاد لتضاد الظاهر والباطن » .

الولاية العامة والخاصة

فالاجمال هو أن التصوف عنوان لجمع الشريعة ، أو الاعمال الظاهرة والباطنة كلتيها وللعناية بها ، وانه ليقال لجمعها والعناية بها في دائرة الفرائض والواجبات « الولاية العامة » التي يجب تحصيلها على كل مؤمن ، أما الدرجة الثانية فهي العناية بالذكر الكثير مع التقدم في الفرائض والواجبات والتزامها يعني كما جاء في « أذكروا الله ذكراً كثيراً » سورة الاحزاب الآية ٤١ ، و «الذين يذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم » سورة آل عمران الآية ١٩١ ، فلا يغفل ويسهو عن ذكر الله ومراقبته ، أو الذكر والاستحضار في جميع حركاته وسكناته ، في جلوسه وقيامه ، لينشىء كيفية الاحسان في العبادة في سائر الاعمال، فكل ما نفعله نفعله وكأن الله شاهدنا، وكأننا نراه ، اذ أننا اذا لم نكن نراه فانه يرانا ، فهذه الدرجة

هي درجة « الولاية الخاصة » وخصوصا اذا أطلق الناس كلمة « الولاية » أو اعتبروا أحدا من « المقبولين » ، فالمراد من ذلك هذه الدرجة ، وقد يعبر عنه بالقرب والحضور .

« السالك والمريد » طالبان لكمال الدين ، وهما السائران على هذا الطريق ، و « الشيخ » هو الهادي والدليل في ذلك ، و « حقيقة السلوك » هي الجد في أعمال هاتين الدرجتين الظاهرة والباطنة واصلاحهما وتقويمهما ، و « حقيقة التصوف » هي تعمير الظاهر والباطن ، و « اصلاح الظاهر » هو أن تتفق الاقوال والافعال جميعا مع الشريعة ، و « اصلاح الباطن » هو « صلاح حالة القلب » .

المريد يعاهد الشيخ على هذا الجد والعمل والاصلاح ، والشيخ يعاهده ويعده بالتوجيه والارشاد ، علميا وعمليا ، بناء على تجربته وبصيرته ، ويتعهده ويتفقد جميع أسقام الظاهر والباطن العملية ويداويها ، مثل الطبيب النطاسي الرفيق .

تعدي مرض مريض الروح

كما أن المريض لا يقدر على أداء اعمال الحياة الفردية والاجتماعية حق أدائها ، بل ويحذر في أدائها زيادة المرض في كثير من الاحيان ، ان كان المرض مما يتعدى ، فلا يكون المرض خطرا على صاحبه فحسب ، بل ومساهمته في الحياة العملية خطر على الجماعة كلها أيضا ، وتجد مثله مريض القلب

والنفس والروح ، فانه لا يقدر أن يؤدي حقوق الاعمال الدينية والفرائض الدينية ، ولا يحسن القيام بها ، بل وتكون أمراض النفس في أكثر الاحيان أكثر تعديا من أمراض الجسم، وهي التي تحدث في النظام الاجتماعي والفردي كله بتعديتها وفسادها اختلالا وتدهورا ، وكما أن بعض الامراض لا ينجع فيها غذاء صالح ، بل ويأتي بتأثير معكوس ، ويزيده ، فكذلك الاعمال الصالحة والظاهرة في كثير من وجوهها ، اذا كانت مصحوبة بالامراض الباطنة لا تكون الا ظاهرا ورياءً لاغير ، وان المتدينين الجامدين ، أو الذين لا يحملون من الدين الا اسما وصورة فحسب ، فأولئك لايزيدون الدين نقصانا فحسب، بل ويبيعونه ، وان المفاسد والاسقام التي ينطوون عليها ، تذيب البقية الباقية من الدين لدى المريض وتمحوها ، مثل مريض السل ، فانه يؤثر على من حوله ، وينتشر مرضه في الجماعة كالوباء .

ان الانسان ليتردد الى الطبيب في أمراضه الهينة والجليلة، وتفتتح المستشفيات والمستوصفات في الازقة والسكك والشوارع ، وحينما يصبح المريض خطيرا ينقل الى المستشفى بعيدا عن داره ، ليعطي الدواء والغذاء في أوقاتهما ، وليتفقد حاله كما يجب ، ويحتاط في حاله . أما المرضى الذين يشكون الامراض المعدية فانهم يرسلون الى المستشفيات النائية البعيدة

من العمران ، ويعدون ذلك خيرا وضرورة لا مناص منه ، لصون نفوسهم ونفوس غيرهم أيضاً •

الوحشة من العلاج الروحي والباطني

لكن العجيب المضحك أن الناس يندهشون كلما سمعوا ذكر علاج الامراض النفسية والروحية والباطنية ،ويستشرفون قائلها ، كأنما هي ليست أمراضا ، وليس علاجها من الواجبات، وكأن الآية : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً) سورة البقرة الآية ١٠ ، لا تتضمن ذكر الامراض القلبية ،وكأن الآية « إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيم » سورة الشعراء الآية ٨٩ ، لا تطالب بسلامة القلب وصحته ، ولا تأمر بهما ، وكأن الاحاديث لا تحوي على حديث : (إِنَّ فِي الجَسَدِ لَمُضْغَةً اذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسد كُلُّهُ ، واذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسدُ كُلُّهُ ، ألا وَهِيَ القَلْبُ !)•

زاوية الشيخ مستشفى للامراض الروحية

ثم اذا ذُكرت « زاوية الشيخ » التي هي مستشفى أمراض القلب لرأيت كثيرا من العلماء والمتدينين والصالحين تتقطب جباههم لسماع هذا ، ان هذه الغفلة والجهل العامين الذائعين لا يؤثران فقط في دين المتدينين مع علمهم وعملهم الظاهريين ، حتى يصبح دينهم جسما بلا روح ، بل وتجد جهلا فوق جهل ، انهم يستغنون عن امراضهم وعلاجها أيضا ، ويحلون أنفسهم محل المصلحين والاطباء للعالم أجمع ، فالنتيجة ظاهرة أن مثل

هذا الاصلاح قبل أن يأتي بنتائج صالحة ، يصبح مصـــدرا للأنواع المفاسد ولأصناف الخلل والاضطراب ، ويصير في اكثر الاحيان فتنة محضة .

والأهم في تجديد التصوف الذي قام به الشيـــخ هو للاعمال الظاهرة والباطنة ، واذا آثرنا التعبـير الحديث ، فان سلوك حضرة الشيخ هو التربية والتهذيب مع الجمع الكامل للاعمال الظاهرة والباطنة ، واذا آثرنا التعبـير الحديث ، فان حضرة الشيخ قــد رتب وهذب فنّ اصلاح النفس بطريــق نفسي ، وجعله فنا علميا ، فلم يبق للسالك التواء ولا تعقيــد في السبيل ، فكل سائر على الجادة يستطيع الوصول الى الغاية من دون خطر .

المبادىء الاولية الاساسية

المبادىء في هذا الفن ثلاثة :

(١) التمييز بين المقصود وغير المقصود ، (٢) المتييز بــين الاختياري وبين الاضطراري ، (٣) التمييز بين الطبيعي وبين العقلي (الاعتقادي) .

« فالرضا الإلهي » هو الغاية المنشودة في هذا الطريق ، وطريق تحصيله « الاتباع الكامل » لاعمال الشريعة التكليفية، سواء كانت للظاهر أو للباطن ، للقالــب أو للقلب ، وســواء كانت اختيارية أو عقلية .

ترى بوجه عام أن الناس أعرضوا عن الاعمالالاختيارية ،

وجعلوا الاحوال غير الاختيارية غايتهم ، ووقعوا وأوقعوا في المجاهدات والرياضات الشاقة ، للوصول بعملهم الى هذه الغاية ، فجعلوا هذا الطريق المستقيم البسيط طريقا ملتويا معقدا ، كتب الشيخ الى طالب توخى مالم يكن في الاختيار ، فتعنّى ووقع في مشاق عظيمة .

« فان كنت راغبا مغرما بالعناء والمشقة ، فليس لدي من دواء ، بيد أن الطريق مستقيم ، وهو أن لا يعتني الرجل في الامر الذي لا اختيار له فيه ، بل يتشجع ويعتزم لما هو في الاختيار ، فلو أخطأ استغفر عما مضى ، ويستعمل همته وعزمه في ما يأتي ، ويلتزم الدعاء كذلك ، مع التفرغ زيادة على ذلك كله » .

الحسرة والفكر في الماضي والمستقبل

ويجب الاعتدال في الجهود أيضا ، كأن تفوت الاعمال الصالحة عامة الناس ، فلهم أن يتأسفوا عليها ما شاؤوا ، فانما يجديهم ذلك ، لكنها اذا فاتت خاصة الناس فلا يتأسفوا لها ، بل ويحزنوا قليلا من الوقت ، ثم يتوبوا بكل نفوسهم ، ولا يهتموا ولا يقلقوا على ما مضى قلقا شديدا ، فيفكروا ان كيف فاتنا هذا ؟!..

فان هذا الشغل في كل حين يضر السالك ، لان همه وقلقه هذين يصبحان حجابا وعائقا عن الرقي والعلاقة مع الله سبحانه،

والسر في هذا أن العلاقة بالله تزداد وتقوى بنشاط من القلب ، أما هذا القلق فانه يرزأ هذا النشاط وينقصه .

ولذلك لم يستحسن المحققون علاجا بالتفصيل والتطويل والرياضة ، وخصوصا بعدما شاهدوا القوى الانسانية الموجودة ، والاحوال الحاضرة ، لأن الرجل ينحصر سعيه في التفكير والمعالجة ، للتداوي لكل مرض ، واحدا واحدا بالتفصيل ، فلأجل هذا :

« لنوجد للروح ثلاث مصيبات في كل أوان :

(١) التحسر على ما مضى ، (٢) الشبهات فيما يجري ، (٣) والخوف والحذر مما يأتي .

فلما شاهد المجددون المحققون وبالاصح قد بصّرهم الله سبحانه وتعالى (ومنهم مرشدي الحاج امداد الله رحمة الله عليه[1]) أن الطريق طويل قد ينقضي أجل الانسان قبل الوصول الى غايته ، بل ان التعب الشديد والوقت المديد الذين يواجههما السالك في طريق الوصول الى ثمار التربية ، يصبحان كما قال الشاعر : قبل أن تصل اليّ أفضي الى ربي .

« ثم ان قوى رجال العصر الحالي لضعيفة واهنة ، وهممهم قاصرة ، فبمشاهدة كل هذا بالهام من الله ، وضعوا خطة أخرى

---

(١) ومنهم شيخي حكيم الامة عليه الرحمة .

للتربية ، وهي أن كلا من الماضي والمستقبل حجاب من الحق سبحانه ، وان الله خلقنا لمشاهدته ، لا للمطالعة والدراسة في الماضي والمستقبل ، ولله در الشيخ الرومي اذ قال : ان الماضي والمستقبل حجاب من الله » •

ولضعف رجال العصر الحاضر ولقصر هممهم ، كان شيخنا الحاج « امداد الله » يستفسر المريدين عن كثير من الامور كم الفراغ وكم الدخل ؟ •• وكيف الصحة ؟ •• وما هي العلائق؟•• وكيف القوة ؟ •• اذ لا يحسن التكليف بالعمل أكثر مما تتحمله القـــوة •

أربع طبقات في التربية

درس شيخنا حكيم الامة أحوال الناس وأشغالهم ، عـــن ضعفهم وقوتهم وقصور هممهم ، بطريقه العلمي الحـــكيم الخاص ، فقسم الطالبين والسالكين في أربع طبقات ، نظرا الى تفاوت أحوالهم :

(١) العامي الذي هو في غير حاجة الى الكسب والى أداء حقوق الاهل والعيال •

(٢) العامي الذي يهتم ويعني بالكسب وأداء ما يجب عليه لاهله وعياله •

(٣) العالم المتفرغ من أمور دنياه •

(٤) العالم الذي يتشاغل بأعمال مهنته •

ووضع لكل منهم خطته على حدة ، نجد تفصيلها في كتاب « قصد السبيل » وخلاصته :

« أن يحسب القرب غاية منشودة ، وأن يكب على الطريق التي قررت له ، وهي اختيار الاعمال الاختيارية بعد تصحيح العقائد ، كل عمل لوقته سواء كان عملا ظاهريا من صلاة وزكاة وغيرها ، أو عملا باطنيا مثل الخوف والرجاء والشكر والصبر وغير ذلك ، والذكر والتفكير فهما كذلك من العمل ، ويجب عليه أن يقبل عليها ويشتغل بها في أكثر أحيانه ، وأن يجتنب الاسباب التي تسبب البعد ، وهي معاصي الظاهر والباطن ، وانه ليس في حاجة الى أن يعني بتكوين الملكة في أسباب القرب ، ولا في حاجة الى أن يقطع مادةالبعد، ولكنه يجب عليه أن يرى الامور الاختيارية التي يصدر منه الخطأ والتقصير عنها ضررا ، ويجعلها موضع اهتمامه وعنايته ويستصلحها ، أما الامور غير الاختيارية ، فلا يلتفت الى وجودها ، ولا الى انعدامها ، ولا يتعب كثيرا في اصلاحها أيضا ، كما لو حدث خلل في عمل عظيم قضى ذلك العمل ، وان صدر منه منكر استغفر منه ، ثم يشتغل بأمره ، ولايشغل باله بذلك ، ويفكر كيف فاته أو كيف أتاه ؟!»

« وانه لمغالاة ومبالغة نهى عنهما الكتاب والسنة (١) (لا تَغْلُوا في دينكُمْ)سورة النساء الآية ١٧٠ ، (٢) من[1]

---

(١) من شدده شدد الله عليه « ١ ــ ح » .

شاقّ شاق الله عليه ، (٣) سددوا وقاربوا واستقيموا ولن تحصوا ، ( ) من غلبه النوم فليرقد ، لا تفريط في النوم فانما التفريط في اليقظة ، ويقول العارف الشيرازي :

ان الزمان يشاد الذين يتشددون .

السلوك المسنون

الغرض هو أن يطلب المقصود الاصيل ، وهو « الرضا الإلهي » وأن يبتعد عن سخطه سبحانه .

وعليه أن يزاول العمل الذي له تأثير في الرضا والذي ينحصر في المأمورات الواجبة ، والمستحبة ، وان فاته قضاه ، فأي شيء أيسر من هذا في الدين ، قال الله تعالى : (ما جَعَلَ عليكُمْ في الدّين مِنْ حَرَجٍ) سورة الحج الآية ٧٨ ، وأن يجتنب ويبتعد عما يسوق الى سخط الله سبحانهوالذي ينحصر في المنهيات ، فان صدر عنه استغفر الله سبحانه عن ذلك .

« ولا يرين نفسه في الخاصة فيتوحش ويكتئب منأحوال العامة ، وأن لا يطلب الثمرات في العاجلة ولا الرتب العليا في الآجلة ، غير أن عليه أن يواظب على دعاء الله أن يرزقهالتوفيق في الدنيا ويرزقه الجنة في الآخرة ، وأن ينجيه من النار ، فهذا هو السلوك المسنون » .

مفتاح الاختياري وغير الاختياري

ان الانسان لو ملك هذا المفتاح (التميز بين الاختياري

وغير الاختياري) فاذن لا يسهل ولا يصفو له الدين فحسب ، بل وانما يسهل ويصفو الكمال الديني والتصوف الاسلامي أيضا ، وما أسهل وأروح قطع المسافات فيه ! وما أسرع السير ! وانه منتهى الراحة والاستغناء بأن القرب والرضا الذين هما المطلوبان والمقصودان لعينهما ، ليس العناية بتحصيلهما مطلوبة ومستهدفة ، لأن ذلك ليس في الاختيار انما في الاختيار السعي والطلب ، أو العمل ، ولذلك ترى أنه لا يطالب بجد واهتمام الا الطلب والعمل ، لا الثمرات والنتائج أو الوصول والحصول (١) .

روح السلوك

ومن المقرر والمتحقق لدى رجال الطريق أن الطلب غاية ، وليس الوصول بغاية ، وشرح هذا أن لا يحل في قلبه الطلب والتشوف لحصول المقصود ، فذلك أيضا من الحجاب ، لأن هذا التشوف تمهيد للتشوش واضطراب النفس ، وانما التشويش يبدد اجتماع القلب ، ويضيع التفويض ، والاجتماع

---

(١) يقول حضرة الشيخ الحاج رحمه الله في بيت من شعره : « انك مختار فيما أن تنال أو لاتنال ، غير أن الواجب عليك أن لا تنقطع عن السعي والجهد » . وان كل خطوة في هذا السعي والجهد غاية بنفسه ، وقد أديت هذا المفهوم في بيت « كل خطوة في سبيل الطلب غاية بنفسها ، والذي في أثناء الطريق هو في منتهى الطريق » .

والتفويض هما شرطان للوصول ، فليمكن ذلك وليثبته ، لانه روح السلوك .

لن تجد الكمال التام الا لدى الانبياء ، وانهم أيضـــا لا ينظرون الى أنفسهم نظرة الكمال ، فكل يعد نقائص نفسه ويراها ، سواء كانت حقيقية أم اضافية ، ولذلك يجب ترك رجاء الكمال ، غير أن الرجاء في سعيه بل العزم له واجـب ، ومثال ذلك ، أن المريض سواء يئس منه ممرضوه أم لم ييأسوا ، لا يجوز معه أن يترك التفكير في صحته ولا التمريض له ، وان النجاة بل القرب لا يتوقف على الكمال ، بل انما وعد به على العناية بالتكميل ، كما يقول الشاعر : (حصل أم لم يحصل لن أترك التمني ووجدت أم لم أجد لن أترك البحث والالتماس في كلتي الحالتين) .

ويرى الشيخ التهانوي أن الرجل اذا لم ينجح بعد ما أدى ما كان عليه في السعي والنشدان فانه ، سينال أجره مرتين .

سأل رجل ، اذا أراد رجلان أن يعملا عملا ما ، فاجتهدا فيه ، وقد نجح أحدهما دون الآخر ، فانه قـــد خاب ، أفيناالان أجرهما سويا أم يجد أحدهما أقل وآخرهما أكثر ؟ كما اذا اجتهد رجلان في تعلم القرآن الكريم ففاز واحد في محاولته ، لأنه اقتدر على تلاوته ، وكان يتلوه بنفسه ويقرئه غيره كذلك ، أما الاخر فلم ينجح لضعف أو مرض أو بلادة فيه ، لكنــه

لم يدع الاجتهاد طول حياته لتعلمه ، فقال الشيخ : ان كليهما سينالان أجرهما سواء ، مع أنه ليس من العجب أن يكون أجر الذي لم ينجح أكثر من الرجل الذي نال أمنيته ، ففي الحديث الشريف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الماهر في القرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق له أجران) متفق عليه ، ثم قال الشيخ : انه يلاحظ من هو أعظم صلة وأوثق علاقة ، ويرى بنظرة التقدير ، لأجل ذلك يجب الاستمرار في العمل ، ولو لم يصل الى النجاح طول الحياة .

حقيقة احضار القلب

سل الذين يعملون (كم يجدون من اليسر والطمأنينة ؟) ولا تسأل الذين يرون كل عمل عسيرا قبل أن يمارسوه ، ان الشيخ محمد يعقوب رحمه الله (أستاذ شيخنا) قد كشف عن هذه الحقيقة بقوله : ان الصلاة فعل مركب ، ينطوي على أجزاء مختلفة من قيام وقعود وركوع وسجود وقراءة وذكر وغير ذلك ، واحضار القلب ، وهو أن لا تؤدي أعمال الصلاة بذاكرتك فقط ، بل بالقصد واقبال القلب ، بأن تقول : اني أؤدي الآن من لساني هذا الامر ، وأما الآن فأقبل الى الركوع ، والآن أدخل في السجود ، فعلى كل ، يجب عليك أن تجدد ارادتك في كل فعل وفي كل لفظ ، وتمهد الطريق ليحصل

لك حضور القلب . انا لنجد في تأييد ذلك حديثا[1] (من صلى ركعتين مقبلا عليهما بقلبه) مرجع الضمير في « عليهما » هو ركعتين ، يعني الصلاة ، والحاصل أن يقبل بقلبه على الصلاة ، فلما كان مركبا ، فان التوجه والاقبال هما ماذكرهما الشيخ فيما سبق ، وان هذا الامر اختياري ، ولذا يجب تحصيله بالعزيمة والعمل ، فهذا حضور القلب الذي في الاختيار ، يعني أن درجته التي يطمع فيها السالكون في الأعم ليس في الاختيار ، غير أن الدرجة التي هي منه ، والتي هي مطاوعة للاحضار وتابعة له هي اختيارية ، وفي اكثر من هذا وزيادة عليه ، يجب الدعاء لا غير ، وكذلك الذوق والاشتياق وغيرهما ، ليسا في الاختيار بل يجب لها أيضا الدعاء ، وليست المجاهدة علاجها ، كما لم يجيء في الحديث لعلاجها الا الدعاء لذلك : (اللهم اني أسألك شوقا الى لقائك) فلا تباشروا المجاهدة وغيرها لتحصيل الشوق ، ولا تسألوا الشيخ علاجا له أيضا ، ولا تشكو اليه عدم حدوث الشوق في النفس ، غير أنه يجب أن تدعوه فحسب ، قد عم هذا الخطأ في الاختياري وغير الاختياري ،

---

(1) أما أنا كاتب هذه السطور فارى في تأييد ذلك الآية « حتى تعلموا ما تقولون » وقد استدل بعض الناس بهذه على أن يصلي وهو يعقل المعنى والحقيقة معا ، لكني اقول لو كان معنى الاية كما يقول هذا الاستدلال فيكون « تعقلون » وما أشبهها من كلمات أخرى غير « تعلموا » أوفق وأنسب ، أما في هذا الموضع فنفهم أنه يعني بأن يعلموا مغزى ما يعقلون ، وأما ما يقولونه فهو الالفاظ .

حتى تورط فيه كثير من الخاصة ، ولا يفرقون بينهما ، ولذلك أزال الشيخ أنواع الشبهات التي تقع في هذا الصدد ، وقد كتب في رسالة :

مانعان خاصان في طريق السلوك

من موانع طريق السلوك ، أمران خاصان يكثر وقوعهما ، وقلما تجد من السالكين من لم يتورط فيهما ، بل وتجد أهل العلم أيضا قد ابتلوا بهما ، وأولهما أنهم يقعون في الاهتمام بالامور التي لا تدخل في اختيارهم من الذوق والشوق والاستغراق والمتعة وتوحد الخيال والقلب ، وازالة الخطرات، والتألم والانجذاب والعشق المطبوع وغير ذلك ، وانهم ليرون فيها ثمرات ونتائج للذكر والشغل والمجاهدات ، ويعدون اذا لم تتأت لهم هذه حرمانا ، مثل الانقباض ، وهجوم الخطرات وشيوع النفس ، أو كمحبة رجل أو مال ، أو غلبة الشهوة والغضب الطبيعيين ، أو كثافة القلب ، أو عدم التمكن من البكاء ، أو غلبة حزن أو خوف دنيويين وغير ذلك ، فانما يرون هذه الامور ضارة بالطريق ومانعة من المقصود ، ويرون عدم اتحادها وزوالها من موجبات البعد عن الله سبحانه .

وأما موضع الاشتراك فيهما فهو أنهم يعنون بتحصيل أمور غير اختيارية ، أو ازالتها ، وفي ذلك مفاسد عديدة ، احداها اعتقادية ، لأنه مخالفة خفية لقول الله سبحانه

(لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً الا وُسعَها) سورة البقرة الآية ٢٨٦ ومعارضتها ، لأن القدرة على الاختيار تتعلق بالضدين ، فالامر الذي ليس في الاختيار ليست ازالته من الاختيار ، واذا اعتقد السالك المقصود متوقفا على حصولها وزوالها ، فكأنه اعتقد أنه لا يشترط للمقصود والمأمور به أن يكون في نطاق الوسع والاستطاعة (أي في دائرة طاقة الانسان) ، وهو مخالفة صريحة لقول الله (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاوسعَها) وما أعظم هذا الخطأ !..

والمفسدة العملية الاخرى ، هي أن هذه الامور اذا لم تبق اختيارية فلن تحصل بالاجتهاد ولن تمحى به أيضا ، بيد أن الاضطراب سيزداد ويعظم بالخيبة والحرمان ، وأما القلق المتواصل فربما يُمرض الانسان ، فيحرم كثيرا من الاوراد والطاعات ، وثانيا فربما تضيق الاخلاق لغلبة القلق والهم ، وبذلك يتأذى الاخرون ، وربما يحصل التقصير في أداء الواجبات نحو الاهل والعيال لغلبة الهمّ والغمّ ، وتتعدى هذه الحالة الى المعصية ، وربما يرتفع الاضطراب الى حد أن الانسان ينتحر بما يقنط ، ويصير مصداقا لقوله : خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين ، وأحيانا يهجر الاعمال والطاعات ظانا اياها غير مجدية لقنوطه ، ويصل الى البطالة والانقطاع عن الشغل ، وأحيانا يسيىء الظن بشيخه بأنه نفسه لا يعرف طريق المقصود ، وربما يسخط من الله سبحانه بما

يخطر بباله أني أحاول وأجتهد الى هذا الحد ولا أنجح ! فأين ذهبت جميع تلك الوعود الثابتة من (والذّينَ جَاهَـدُوا فِينَا لَنَهدِينَّهُمْ سُبُلَنَـا) سورة العنكبوت الآية ٦٩ ، (مَن تقرّب اليّ شِبراً تقربتُ اليه ذراعاً) ؟!..

« فالمقصود أن ذلك مثال للمفاسد التي تحتـوي ضررا جسديا أو نفسيا أو دينيا من معصية أو كفر ، ولذلك قلـت في السطر الاول في تمهيد كلا الامرين : (ان تحصيل غـير الاختياري وازالته) مانعان لطريق السلوك ، وقد داوى أهل الطريق هذه الموانع في كل عصر رعاية بصلاحية الطالبين ، ومن تلك المعالجات ما يدخل حينا لحين في تربية السالك وفق حالة ذلك العصر وصلاحيته فتصير من أجزائه » .

وحينما يقع الناس تحت أيدي المشايخ السطحيين ، انما يقعون في المفاسد والمشوشات الدينية والدنيوية ، (كماسترى في رسالة أحد المريدين) ، وانهم انما يقعون في أنواع المفاسد لانهم يعتنون بالامور التي ليست في اختيارهم ، يحدث ذلك، بل وأكثر من ذلك اذا لم يستعملوا الاختيار والهمة والعزيمة .

« لقد وقعت منذ سنوات في أمراض متنوعة وتشويشات مختلفة لايجديني العلاج فيها ، وأظن أن كثرة المعاصي هي من أسباب تلك الامراض ، لقد أفسد العمـل الخاطىء والمعاصي حالتي ، فأنا أنشد الهداية من الله سبحانه ولكني لا أجدها ،

بايعت قبل ست سنوات في السلسلة القادرية ، ثم نقضت البيعة لأني أكرهه وأعاف منه ، بسبب ما رأيت من مخازي الشيخ المرشد ، ثم وقعت أنا أيضا في نفس تلك المخازي ، وأصبحت الآن لا أعتني حتى بالقيام بالصلاة والصوم . الايمان صحيح لكني متباعد عن العمل ، وكل هذا لاختلال صحتي ، فأرجوك أن تدعو الله سبحانه لي خيرا ، أو تقترح علي بشيء حتى أتخلص من الملمات والآفات ، اني أرى الذنب ذنبا فأتوب الى الله وأستغفره ، وأحب أن أتخلص من المعاصي، لكنه لا يجديني أية حيلة ولا تدبير » .

فقال ردا عليها :

« انني ــ وليس غيري ــ أعرف الطريق التي تصدر بها الاعمال الاختيارية من الانسان بدون أن يستعمل اختياره » .

« ما يوسوس لك من تأثير التصرف ، فاني أشك أولا في تأثيره ، ومهما يكن فاني ولا ريب متجرد من هذا الكمال » .

« ان بلية الناس أنهم يجتهدون في أمور دنياهم ، ولا يدخرون في ذلك جهدا ، ولا يقصرون فيها ، غير أنهم يحبون قضاء مآربهم الدينية بمحض الدعاء ، دون العمل الى حد الهمة والاختيار » .

« لما ذهب الحاج الشيخ امداد الله نور الله مرقده الى بمبائي قال له تاجر : أرجو من حضرتك أن تدعو لي أن يرزقني

الله سعادة حج بيته الشريف ، فقال نعم سأدعو ولكن بشرط ، وهو أن تملكني زمام أمرك يوم تتحرك الباخرة ، فاني سآخذ بيدك وأركبك الباخرة ، فانه قبل أن يكون هذا ، لا يجديك دعائي ، فانك قبل أن تزمع على ذلك فلن تترك أعمالك وشواغلك ، وهي لا تقل من نفسها ، فماذا يصنع دعائي للحج ، وليست بآتية اليك ، والذين تشرفوا بها فهم كذلك اضطروا الى القدوم اليها » .

« انظر الى أن ابا طالب الذي هو عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكبر محب له ، نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خذلته قريش وعادته ، وكان الرسول عليه السلام يحبه أيضا حبا جما ، وقد حاول كثيرا لاسلامه ، لكنه لم ينفعه محبته صلى الله عليه وسلم له ومحاولته لاسلامه ، لاجل أن أبا طالب لم يرد ذلك بنفسه ، فأصابه صلى الله عليه وسلم بذلك هم شديد ونزلت الآية : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، ولكنَّ اللهَ يهْدي مَنْ يشَاء)سورة القصص الآية ٥٦ ، وهذا كل ما أبان عنه في كتابه « تسهيل الطريق » وميزه من سائر الطريق ونظام العمل الكامل في سطرين :

« يجب ان لا يهتم الرجل فيما ليس في اختياره ، وليستعمل الهمة في الاختياري منه ، فان قصَّر شيئا استدرك الماضي باستغفاره ، وبدأ في مستقبله بتجديده للهمة ، وليلتزم الدعاء كذلك ، مع استعماله للهمة والتضرع والخشوع » .

قد بين الحقيقة « وروح التصوف » في جملتين ردا على عالم بقوله : إن المقصود في هذا الطريق هي « الافعال لا الانفعالات » •

سبحان الله ما أحسن تفسيره ! اذ تلخص جوهر المقصود وما ليس من المقصود ، وما هو في الاختيار ، وما ليس في الاختيار في جملتين فحسب •

الرذائل لا تستأصل بالرياضة

والامور الطبعية أيضا ليست في الاختيار ، والناس يضيعون وقتهم وقوتهم في اجتهادهم باستئصالها وازالتها ، فيلقون في نتيجته ألم الخيبة والخسران ، مثلا يريدون أن يمحوا ويزيلوا الميول الطبيعية الى الشر والسوء بمجاهداتهم ورياضاتهم ، ويستأصلوا الاخلاق المذمومة ، والحال :

« أن الرياضة لا تمحو ولا تزيل أصول الاخلاق الذميمة ، بل انما تهذبها وتقومها ، ومعنى كل ذلك أن آثار تلك الاصول تميل وتتحول ، يعني يتغير اتجاهها ومواضع عملها ، كما لو أن الرجل ينطوي على الغضب والبخل ، فالرياضة لا تقدر على اجتثاثهما واستئصالهما ، بل تتهذب بها بحيث كان في الماضي يبخل في مواضع الخير ، ويغضب على الصالحين الابرياء ، أما الآن ، فسيغضب على الاشرار والمفسدين وعلى نفسه وعلى المبغوضين الى الله ، وسيبخل فيما لا يحل الانفاق والبذل فيه•

وبهذا الطريق تصبح الاخلاق الذميمة ذريعة للتقرب ، بعد ان كانت من قبل ذريعة للبعد » (هكذا قال مرشدي الحاج إمداد الله) .

« وبهذا انحسم الخلاف المشهور ، هل تغيُّر الاخلاق من المستطاع أم لا ؟ ! فعلمنا أن تغير الاصول ليس في وسعنا ، جاء في الأثر الشريف (اذا سمعتم برجل زال عن جبلته فلا تصدقوه) غير أن الآثار ومواضع الاعمال وطرقها يمكن له التحول ، ولاجله جاء الامر بالمجاهدة والرياضة » .

إن مجرد الميل والطلب لمعصية أو شر ليسا من العصيان ولا من الشر . الا اذا لم يصحبه العمل ، وليس الانسان مكلفا إلا:

« بأن لا يعمل بما تطلب منه الاخلاق المرذولة ، أما ان يمحي الاقتضاء والرغبة نفسها ، فليس الانسان مكلفا بذلك ، وليس من اليسير أن يناله ، غير أن النفس تتهذب وتتثقف بالرياضات والمجاهدات ، لانها تنقاد وتتدلل بيسر ، ضرب الشيخ لذلك مثالا بقوله : إن ذلك كالحصان الرّيض والمهذب الذي ينفر ويستن كثيرا ، لكنه يسهل قياده وينقاد بيسر ، لكن الناس يحبون بوجه عام أن تفنى الميول الطبيعية والنفسانية بحذافيرها ، كما كتب طالب يقول : « اني أتمنى وأرجو أن لا تساورني الشبهات » فرد عليه : « معناه أن تتمنى غدا أن لا تلم بك الحمى » (وقد كان كتب من قبل ،

أن ورود الشبهة من غير اختيار النفس لا يتعارض ولا يتنافى مع تصديق الله ورسوله) » .

شكى اليه رجل ميل نفسه الى الأمارد ، وقد كان موفور الهمة واثق العزيمة ، ما كان يقصر في العلاج الذي في مستطاعه، كتب يقول : اني لا أحادث من تميل نفسي اليه من غير حاجة ، ولا ألقي النظرة عليه بأرادتي وأغض بصري عند الحاجة كذلك ، وبذلك يضعف ميل النفس حتى يكاد ينعدم ، لكن السقام الاصيل لا يبرح . كان بذلك يشكو عدم فناء الميل الطبيعي والنفساني كليا ، وعدم اقتلاع المادة فرد عليه :

« ليس هنا من حيلة لاستئصال المادة ، فانك اذا تناولت الدواء لحمى الغب أفيمكن القول اذن أنك لن تبتلي بها في السنة القابلة ؟! وأية حيلة تتقي بها من تولد الصفراء ، ولو فعلنا ذلك فكثير من المنافع التي تظهر لوجود الصفراء ستزول أيضا ، والفوائد في المادة الشهوانية كثيرة » .

وسأل طالب علاجا يتخلص به من الشهوة النفسانية فأجابه : تعال غدا بعدما تتوب عن الغذاء الحرام ، واسأل الدعاء للتخلص من الجوع كذلك ؟!..

الفرق بين الطبيعي والعقلي

اذا لم يفرق السالك بين الطبيعي والعقلي فما اكثر الاخطاء التي يتورط فيها ! كتب سالك : اني أجد حب رسول الله صلى

الله عليه وسلم غلابا في هذه الايام حتى لا أجد مثله لأحد ، حتى أنني لا أجد حب الله أكثر منه أيضا ! فرد عليه :

« ليس ذلك بصحيح ، فان العقلية هي الغالبة في محبة الله ، أما في محبة المجانس الطبيعية فهي الغالبة ، وترى المحبة العقلية في بادىء النظر ضعيفة ضئيلة بالنسبة الى المحبة الطبيعية ، والأمر خلاف ما يظهر ، لأنك ترى أنه ان صدر من هذا المحبوب الطبيعي كلام خبيث أو أمر شر في ذات الله سبحانه (معاذ الله) فلا يسع النفس الا أن تبغضه ، وبذلك تقرر أن محبة الله هي الغالبة » .

نجد في القرآن والحديث الشريفين فضيلة البكاء ، لكن بعض الناس رقيقوا النفس من طبيعتهم ، فانهم يبكون لكل شيء ، أما البعض الآخرون فلا تكون عندهم رقةقلب طبيعية فأخبر الشيخ بأمر عجيب ، اذ قال « ان مثل هذا الرجل لو تأسف على حالته عقليا لكان هذا معدودا من البكاء » .

« قال عالم : أتشير آية (يبكون ويزيدهم خشوعا)سورة الاسراء الآية ١٠٩ الى البكاء بالارادة ؟ فأجاب قائلا : ان هذه الآية تدل على فضيلة البكاء ، ولا تأمر به ، ولذلك ليس المقصود منها البكاء بالقصد والارادة ، قال رجل : أما الذي لا يقدر على البكاء ، فقال : هو أيضا يقدر عليه ! قال كيف يقدر عليه ؟ فقال التأسف على عدم قدرته على البكاء بكاء أيضا .

خطأ خطير في فهم بعض الكبار

من الغريب أن الكبار يرون المطلوب والكمال في عامة الاحوال أن يحصل الفناء والامحاء في ذكر الله ، بحيث اذا هم أرادوا النسيان لم ينسوا ، ولم يأت طيف لغير الله في النفس أصلا أبدا ، مع أن الذي لا خفاء فيه ، هو أن ذلك ضدالطبيعة الانسانية وفطرتها العامة ، بل ان ماذكر الشيخ المجدد في هذا الصدد هو أحسن رد على ذلك ، وهو قوله بأن هذا تمنّ للاضطرار مكان الاختيار الذي عليه مدار كل الفضيلة والحكمة التكوينية •

« كتب رجل : اني أنشد منذ زمان أن يدخل وينفذ ذكر الله في القلب حيث اذا أردت نسيانه لم أستطع ، وأن يستعصي على قلبي حضور غيره ، فأجابه : اني كذلك لم أرزق هذه الحالة ، ولا أشتهيها كذلك ، لأني لا أبقى فيها صاحب اختيار ، بل أصبح مضطرا » •

ثم كتب هذا الرجل مستعينا برسائل الشيخ المجد والامام أحمد السرهندي : « ان رأس الامراض الباطنية اعتقال القلب وأسره بغير الله ، وعلامة البراءة منه أن يتناسى غير الله كليا ، ويغفل عن سائر الاشياء ، حتى اذا تكلف التذكر لتلك الاشياء لم تعرفها ذاكرته ، الى أن يستحيل خطور غير الله على القلب ، واني اذا أبصرت هذا المستوى لا أجد نفسي الا بعيدة عنه مجردة والحمد لله على أن غير الله لم يحل الى جذر القلب ،

غير أن جوانب القلب لا تخلو من غير الله وخواطره » •

غلبة حال أهل المرتبة

« تغلب الحال أحيانا على أهل المقام ، فاذ ذاك تجد تأثير الثورة في تعبير المسائل ، وعندي أن العنوان شديد ، لكن المفهوم هو نفس ما استفيد من النصوص ، واني أعبر عنه بعنوان آخر سهل يقارب أن يكون شرحا لكلام الشيخ السرهندي على وجه التقريب ، وهو أوضح من التعبير المعروف ، وذلك أن معنى الاعتقال والأسر ، ليس هو العلاقة مطلقا ، لأن العلاقة المطلوبة ليست ذميمة ، بل العلاقة المقصودة هي أن يتأثر القلب ببعد هذا الذي اعتقل به القلب أو قوته ، حتى ينشغل بتصوره والحسرة له ، فيطرأ الضعف والقلة على الطاعات لأجل هذا الانشغال ولو لم يصل الى هذه الدرجة ، فمجرد الحزن ليس بمانع ، أفيمكن لأحد أن ينكر حزن يعقوب الشديد ؟! وأفيمكن لأحد أن يقول عن حالته انها كانت مانعة عن الحق؟!• »

مفهوم ذلك ، أن معنى غلبة ذكر الله ، وغلبة العلاقة به ، أو معنى عدم الغفلة ، أن لا يؤثر ذكر غير الله ، والعلاقات بغير الله سبحانه ، في اتباع مرضات الله سبحانه وطاعاته ، لئلا تأتي بنقص ولا ضعف ، وهو أن لا يصدر منا عمل ولا فعل خلاف رضا الله سبحانه في دائرة أفعالنا •

انتهى الكتاب

★ ★ ★ ★

الفهرس

	الصفحة
تقديم الكتاب بقلم الاستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي	٣
ترجمة الشيخ أشرف علي التهانوي	١٦
بين التصوف والحياة ١٨ــ٤٩	
تناقض	١٨
سر هذا التناقض ...	١٩
تنقيح التصوف من الاوهام والزوائد ...	٢٠
حقيقة التصوف	٢١
التصوف هو الفقه الباطني	٢٣
خطأ جسيم	٢٨
التزكية المرضية	٢٩
الحب وشرطه	٣٠
حدوث مصطلح التصوف وتدوينه كفن	٣٢
مهمة التصوف في الحياة	٣٥
أهمية اللباب	٣٦
الشريعة بين فقهين ...	٣٧
التوسع في الدراسات والاخلال بالعمل ...	٣٨
من معاني الاحسان	٣٩

	الصفحة
أحكام اصلاح الباطن مرتبة	٤١
الحاجة الى التربية واصلاح الباطن ...	٤١
الدنيا لا تحصل كذلك لغير المتصوف	٤٤
لا صلاح بغير التصوف	٤٥
نكتة غريبة نادرة ...	٤٧
سبب النفور من التصوف	٤٧
الأذكار والأشغال والمجاهدات ٥٠ــ١٣٨	
الغايات والوسائل ...	٥٠
إكثار الذكر	٥٤
حقيقة الذكر	٥٨
خطأ كبير	٥٩
ذكر الله درجات	٦٠
شهادة من القرآن على كون درجات الذكر مختلفة	٦١
الذكر القلبي اصطلح عليه الصوفية	٦٢
درجات الذكر	٦٣
لون من المحبة	٦٣
الذكر أساس الشريعة والطريقة	٦٥

الصفحة

كيف يحصل ذكر الله	٦٧
ذكر القلب أفضل أم ذكر اللسان	٦٩
خطأجسيم في باب الذكر	٧١
طريق الطاعة والذكر ملخصاً	٧٤
اربع طبقات للسالكين	٧٤
مبدآن أساسيان لتجديد التصوف ...	٧٩
النسبة الباطنية	٨١
لا يصح خدمة الخلق بدون تصحيح الرابطة بالرب	٨٤
المجاهدة	٨٦
معالجة الشدة والعناء بدون الحاجة اليها لن تسمى مجاهدة	٩٠
حقيقة الزهد	٩١
المجاهدة بدون قصد	٩٥
المجاهدة لا تستأصل الرذائل	٩٥
تنبيه هام	٩٧
السلوك والرياضة المفصلان	٩٧
شبهة	١٠٢
نتيجة المجاهدة الحقيقية ليست أحوالا	١٠٣
حقيقة التصوف في جملتين	١٠٤
حقيقة الكشوف والكرامات	١٠٦

الصفحة

الإلقاء والتصرف	١١٠
البيعة	١١٥
الصحبة والأواصر ...	١٢٨
إفراد الشيخ	١٣٢
الصحبة تشرب القلب الدين	١٣٦
الحب والعشق ...	**١٣٩ــ١٦٠**
العشق من لوازم الايمان	١٤١
الحب العقلي	١٤١
الحب العقلي اختياري	١٤٤
الحب قاصر على المناسبة	١٤٧
معنى « خلق الله آدم على صورته »	١٤٨
تأويل حمل الأمانة ...	١٥٠
دواعي الحب موجودة في الله بصورة كاملة	١٥٢
ما يجب في الحب العقلي	١٥٣
العشق والتفويض ...	١٥٤
حقيقة العشق المجازي	١٥٥
باطنية التصوف ...	**١٦١ــ١٧٢**
علة الاخفاء	١٦٢
علة أخرى	١٦٣
مصالح أخرى	١٦٣
تنبيه آخر جليل	١٦٥
الفتنة الكبرى	١٦٨
القرب المنشود ...	**١٧٢ــ٢٠٨**
الجنة أيضا ليست مطلوبة بالذات	١٧٣
شبهة	١٧٥

	الصفحة
إنكار التشبيه مغالاة	١٧٧
طريق تحصيل الرضا	١٨٠
عناصر ثلاثة لدرجة الكمال	١٨١
العلم والعمل والحال	١٨٣
القرب عنوان للكمال الديني	١٨٤
العبدية	١٨٦
قرب النوافل	١٨٩
قرب الفرائض	١٩١
التفويض والدعاء	١٩١
الأوراد مكان الدعاء	١٩٣
شأن العبدية	١٩٤
مثال عجيب للوصول من غير رضا	١٩٥
هذه الحياة موت في حقيقة الأمر	١٩٦
فلماذا رُزِقنا هذه الحياة ؟	١٩٨
كراهة هذه الحياة والسخطعليها لغلبة الحال	١٩٨
الرقي بالطلب	١٩٩
الكمال الأخروي	٢٠٢
فهم خاطىء	٢٠٢
التصوف ليس البطالة بل هو الكمالفيالعمل	٢٠٤
جريمة الاستخفاف بالعمل	٢٠٥

	الصفحة
الهدف الأصيل هو العبدية التي هي كمال العمل والطاعة	٢٠٧
كمال الاسلام والرضا	٢٠٧
السلوكوالتربية ... ٢١٠–٢٤٦	
العمل والحركة عند المشركين	٢١١
المقصود من العمل هو العمل الصالح	٢١٣
أهمية حقوق العباد	٢١٤
علامة النسبة الباطنية	٢١٥
الوصول الى الله لا يمكن بدون الاعمال	٢١٦
العمل بأحكام الباطن كذلك فريضة	٢١٧
الحاجة الى الشيخ	٢١٧
عملان للسالك	٢١٨
التصوف المحرم	٢١٨
البيعة التقليديةليست واجبة	٢١٩
علائم الشيخ الكامل	٢٢٠
الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة	٢٢١
الولاية العامةوالخاصة	٢٢٢
تعدي مرض مريض الروح	٢٢٣
الوحشة من الفلاح الروحي والباطني	٢٢٥
زاويةالشيخمستشفى للامراض الروحية	٢٢٥

	الصفحة
المبادىء الأولية الأساسية	٢٢٦
الحسرة والفكر في الماضي والمستقبل	٢٢٧
أربع طبقات في التربية	٢٢٩
السلوك المسنون	٢٣١
مفتاح الاختياري وغير الاختياري	٢٣١
روح السلوك	٢٣٢
حقيقة احضار القلب	٢٣٤
مانعان خاصان في طريق السلوك	٢٣٦
الرذائل لا تستأصل بالرياضة	٢٤١
الفرق فيما بين الطبيعي والعقلي	٢٤٣
خطأ خطير في فهم بعض الكبار	٢٤٥
غلبة حال أهل المرتبة	٢٤٦
الفهرس	٢٤٧

★ ★ ★ ★

١٢ جمادي الاولى ١٣٨٣ هـ الموافق لـ ٣٠ ايلول ١٩٦٣